رواية

مكتبة

عدنية شبلي

دار الآداب

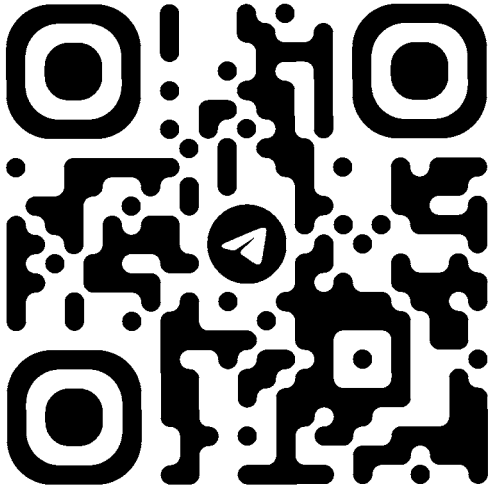

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

تمويه

تمويه

عدنيَّة شبلي / روائيَّة فلسطينيَّة

الطبعة الأولى عام 2025
ISBN 978-9953-89-784-4

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب للطباعة والنشر

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:
www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

عدنيَّة شبلي

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمويه

روايـة

دار الآداب بيروت

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم يَعُد بمقدرة التربة الإفلات من مصيرٍ مُحتَّم يقضي بتحوُّلها تحت وقع المطر الغزير إلى رقعةٍ موحلةٍ. صافعًا سطحها، يدفع المطر المتدفِّق بحبيباتٍ بُنِّيَّةٍ عاليًا، بعضها يتطاير بشراسةٍ في اتِّجاهاتٍ معاكسةٍ كلَّ مرَّة تنزح عجلات السيَّارة إلى طرف الشارع غير المعبَّد، مُفسِحةً المجال أمام السيَّارات الأخرى لتجاوزها. من بين هذه الحبيبات ما يحطُّ على زجاج النافذة الأماميَّة الذي تظهر عليه بقعٌ صغيرةٌ بيضاويَّة تلطِّخه لوقتٍ قصير، حتَّى تُغير مسَّاحات السيَّارة إليها وتزيل غالبيَّتها. ما لا تتمكَّن هذه المسَّاحات من محوه هو آثار أنفاس الراكبَيْن المتجمِّعة فوق الجهة الداخليَّة من الزجاج، وتجعل رقع الوحل المنحصرة على جانِبَي الشارع، وفي الحقول، والسهول، كما التلال البعيدة غامقة الخضرة بأشجارها المبتلَّة، تندمج معًا في غبشٍ ملوَّن يزيده هطولُ المطر إبهامًا. من المسلَّم به أنَّ لا يدَ لنا فيما يجري.

البرد شديدٌ في الخارج، بينما حِدَّته داخل السيَّارة قد خفَّت كما تفصح الحطَّة المستلقية فوق الرفِّ الأماميِّ في هيئة أفعى على أهبة الزحف صوب فريستها، إلى أن تمتدَّ نحوها، كلَّ فينةٍ وأخرى، أصابع السائق، تتناولها وتمسح بها ما أمكنها وصوله من شقِّ النافذة الداخليّ.

يبقى قَدْرٌ محدودٌ من جزئه الأيمن مُغبِشًا، هو الجزء الممتدُّ أمام الراكبة التي تعكف عيناها على ملاحقة الجريان الملتبس لخطِّ الأفق، يستهلُّه تبدُّل الحقول والسهول والتلال.

بمنأى عن أنظار الراكبة، تتعطَّش الأرض إلى الغيث المنهمر عليها بعد انحباسه منذ نهاية الشتاء الفائت، باستثناء هطوله مرَّةً أو اثنتين في الربيع، ثمَّ مرَّةً أخرى في أواسط الخريف. كثيرًا ما يثير انحباس المطر الذي لا يعلم أحدٌ كُنْهَه، القلقَ، فالأرض متعبة، سطحها متشقِّق، وتربتها قاسيةٌ من فرط افتقادها الماء بعد أن وهبت على مدار عامٍ كاملٍ ما بحوزتها من رطوبةٍ للأشجار والنباتات النامية فوقها، وهي عديدة، أنواعها متباينة. لكن جلُّها أشجار اللوز أو الزيتون التي تكسو معظم السهول والتلال.

من سباته الحاليّ، بأغصانه البنِّيَّة التي يتساقط عليها المطر هذه اللحظات، ستبرعم فوق شجر اللوز مع حلول منتصف الشتاء أوراقٌ نحيلةٌ غامقة الخضرة، يسبقها بأيَّامٍ قليلةٍ ظهور زهر تنبثق عنه بتلاتٌ يانعةٌ بيضاء، تأتي ريحٌ قويَّةٌ تحرِّكها وتنزعها عن التيجان التي تتشبَّث بها، فتهوي فوق التربة، مغطِّيَةً غالبيَّة أجزائها الواقعة تحت الشجرة ببياضٍ واهن. على الشجرة حيث تركت البتلات الزهرَ، ينكشف داخل التيجان حبُّ لوزٍ صغيرٌ مخمليٌّ يميل لونه إلى البنفسجيّ، يخضرُّ على مهلٍ فيما هو يكبر ليصبح بحجم حجرٍ صغير يمكن رميه لإبعاد أذىً ما. مع بدء الصيف، تبدأ القشرة الخارجيَّة بالاصفرار فالتيبُّس والانشقاق، كاشفةً داخلها عن قشرةٍ أخرى صلبةٍ بنِّيَّة اللون، تحوي النواة في باطنها. بمواصلة الصيف مسيره واشتداد حرارته، تصير حبَّات اللوز شبه قادرةٍ على السقوط من تلقاء نفسها، إلَّا أنَّ ذلك يحدث على نحوٍ أسرع لو هزَّ أحدٌ الأغصان. كما وتشرع الأوراق بالتيبُّس، فتتلوَّى ويسقط بعضها،

ثمَّ تهبُّ نسائم الخريف وتزيلها كلِّيَّة، تاركةً الأغصان وحيدة. هذه هي الدورة المعهودة للتحوُّلات التي يمرُّ بها شجر اللوز. مقارنةً بها، يُمضي شجرُ الزيتون الفصول الأربعة بلا تغييرٍ يذكر تقريبًا. أوراقه لا تتساقط البتَّة، إنَّما تبقى تلوِّن التلال الجبليَّة بخضرة تدنو إلى الزرقة طيلة العام، يكاد يبين من بينها حبُّ الزيتون الأخضر الذي ينضج على مدار أشهر، وربّما يصبح بعضه أسود مع نهاية الخريف، في حين يبقى شبه متوارٍ بين الأوراق. أحيانًا، تظهر وسطَ الكروم رقعٌ جرداء تتوسَّطها العديد من الحفر في التربة ناجمةٍ عن قلع الأشجار.

في الحقول التي تبين حاليًّا بنِّيَّةً موحلة، قد تتبدَّل النباتات المزروعة كلَّ عامٍ أو كلَّ عقدٍ أو كلَّ قرن، إمَّا لمنح التربة استراحةً من صنف نباتٍ ما يكون استنفد قواها، وإمَّا لتغيُّراتٍ أخرى تعود إلى ازدياد الوضع سوءًا يومًا بعد يوم، يواكبها غالبًا تبدُّل أصحاب الأرض. تظهر عندها أشكالٌ وأطيافٌ متفاوتةٌ من الخضار مع حلول الربيع، بعضها يدوم حتَّى مطلع الصيف. هناك بالأساس الاخضرار الناعم المتبدِّل للقمح المتمايل، والأخضر الغامق لنبات الفول الفوضويِّ الذي ينتشر بين ثناياه نوَّارٌ أبيض صغير، أو سيقان عبَّاد الشمس واهنة الخضرة، الحائمة فوقها أقراصٌ صارخة الصفار، والأوراق الكثيفة حادَّة الخضرة للقطن، المستتر بينها زهرٌ صفرتُه شاحبة، يدوم ليومٍ أو يومَيْن قبل أن يتحوَّل إلى أصفر داكن، ثمَّ أحمر، فبنفسجيّ، حتَّى يجفَّ ويسقط، وبعد ما يقارب الشهرين يحلُّ محلَّه البياض المنفوش المألوف من القطن، يتكوَّم فوق جذوعٍ بنِّيَّةٍ متخشِّبةٍ إثر جفافها مع اقتراب الصيف من نهايته. هذه هي طائفة الألوان التي تتناوب على احتكار الحقول لعدَّة أشهر، تخترقها لمامًا أشكالٌ ودرجاتٌ مغايرةٌ من الخضرة قد تعود لشجرةٍ معمِّرة، بلُّوط أو

خرُّوب، أو لنباتٍ زُرِع في العام المنصرم في الحقل ذاته ويعاود النزير منه النموَّ من جديدٍ رغم أنَّ أحدًا لم يزرعه، عدا عن نباتاتٍ برِّيَّةٍ تحيط بحواف الأرض المزروعة، فاصلةً إيَّاها عن قطعة أرضٍ أخرى بمحاذاتها. بمقدم الخريف، بعد أن يكون موعد الحصاد قد انتهى وجُزَّت النباتات، تتحوَّل السهول إلى صفراء تغطِّي سطحها جذوعٌ قصيرة، يجري حرثها فيما بعد ليعاد تشكيلها في كتلٍ من التربة القاسية التي تظلُّ العروق الجافَّة معلَّقةً بها، حتّى يأتي المطر، كالمطر الحاليّ المنهمر، فيُفكِّكها، ويذيبها.

فجأةً يقول السائق للراكبة الجالسة بجانبه شيئًا يظهر بأنَّها لم تسمعه جيِّدًا. تلتفت ناقلةً بصرها من الغبش الممتدِّ في الخارج نحوه، ليفاجئها وضوحه وفق ما تشي عيناها اللتان تنفتحان على وسعهما للحظةٍ قصيرة. تسأله عمَّا قال. يردُّ أنَّ عليها أن تنزل الحطَّة. تسأله عمَّا قال ثانية، هذه المرَّة بصوتٍ تشوبه الدهشة. يكرِّر السائق قوله طالبًا منها أن تنزل الحطَّة. من الواضح أنَّ فهم الطلب يبقى مُستعصيًا على الراكبة التي تعود لتسأل عن السبب. يردُّ السائق باقتضابٍ شديدٍ ممزوجٍ ببعض التوتُّر، أنَّه يطلب منها أن تنزل الحطَّة وحسب. لكن لماذا؟

من الممكن أن يؤدي هذا الاقتضاب الشديد إلى غضبٍ عارم يهدِّد بالامتداد إلى الراكبة التي تكرِّرُ سؤالَها بعنادٍ عن السَّبب. يردُّ السائق بهدوء يتصاعد منه الغيظ، أنَّه يوجد حاجزٌ طيَّارٌ على الطريق. تجوب بعينَيْها كلَّ جهةٍ باديةٍ من الطريق عبر زجاج السيَّارة. ليس هناك سوى كتلٍ ملوَّنةٍ تتهادى متدحرجة، يمتزج فيها البنِّيُّ بالرماديِّ بالأخضر. تسأله عن مكان الحاجز بالتحديد. يردُّ بأسنانٍ تصطكّ، في الغالب ليس بردًا، بأنَّه أمامهما على الشارع. قد تلمح عيناها في تلك اللحظة خضرةً متراقصةً فوق خطٍّ أسود عريض. مع ذلك، يبدو بأنَّ

الطلب غير مألوف وهي تسعى لفهمه أوَّلًا، حيث تعود لتستفسر عن السبب. يحتدُّ اصطكاك أسنان السائق ليخرج من بينها طلبه بصوتٍ صارخٍ بأن تنزل الحطَّة وكفى! فيما تواصل السيَّارة مسيرها لا يعيقها كلُّ ما يجري داخلها، إلى أن ينفرج الغبش الملوَّن عن بضعة جنودٍ واقفين في منتصف الشارع وقد نصبوا حاجزًا طيَّارًا. تخفِّف السيَّارة من سرعتها حتَّى تتوقَّف في أعقاب إشارةٍ من أحد الجنود نحو السائق، بينما تهرع الراكبة وأخيرًا للانصياع لما طُلِبَ منها وتمتدُّ يدها نحو الحطَّة لتنزلها بسرعةٍ عن الرفِّ الأماميّ، دافعةً إيَّاها تحت مقعد السائق الذي يقول بشفتَيْن متثاقلتَيْن إنَّه لا حاجة لها أن تفعل ذلك، طالبًا منها أن تترك الحطَّة في مكانها. غير أنَّ الجنود يضعون حدًّا لكلِّ هذا الجدل بإشارةٍ إضافيَّةٍ من يد أحدهم، تفيد بأنَّ على السائق إنزال زجاج نافذته، وهو ما يستجيب الأخير إليه. يقول الجنديّ شيئًا له يدفع إلى وجهه بتعبيرٍ ينمُّ عن ابتلاع رغبته بالتأفُّف قبل أن يدور بنصف جسمه الأعلى قليلًا ناحية اليمين لإخراج محفظته من جيب بنطاله الخلفيّ. يفتحها ويطلِّع بطاقة هويَّته، ثمَّ ينحني إلى الجانب، يفتح جيب السيَّارة الداخليّ ويتناول حقيبةً بلاستيكيَّةً تحوي أوراقًا مطويَّة، يخرجها ويقدِّمها جميعًا إلى الجنديّ. بعد التدقيق فيها، يقول الجنديُّ شيئًا مجدَّدًا، ثمَّ يبتعد مع بقيَّة الجنود. يقف هؤلاء معًا في منتصف الشارع، حيث ينصرفون إلى تقليب الأوراق وبطاقة الهويَّة بين أيديهم، وإلى التداول فيما بينهم ومع آخرين عبر جهاز الاتصال اللاسلكيّ، كلُّ ذلك بغير انفعالٍ تحت المطر الذي يصير رذاذًا.

يلفُّ الصمت الراكبَيْن، مواصلَيْن الجلوس داخل السيَّارة، عندما يباشر الهواء البارد القادم من الخارج عبر النافذة المفتوحة بمحو آثار

أنفاسهما الدافئة المتكدّسة فوق الجزء الأيمن من الزجاج الأماميّ. يرجع أحد الجنود حاملًا أوراق السائق الذي يشغّل محرّك السيَّارة، فيسارع الجنديّ إلى رفع وإنزال يده الممسكة بالأوراق، وقد أضحت مبتلّة، متحوّلةً في يده إلى ما يشبه المروحة البالية. يعود السائق لإطفاء المحرّك. يشير إليه الجنديُّ بشيء يقوده إلى الخروج من السيارة ومرافقته.

إلى يمين الشارع، يقف السائق برفقة الجنود، هم يوجّهون الأسئلة إليه، وهو يجيب عليها باقتضاب. تلزم هي مقعدها داخل السيَّارة، ترقب أشكالهم التي باتت شديدة الوضوح، يصل مسمعَها كلماتٌ متفرّقة، لا تفهم أيًّا منها، وهذا مثلبٌ واحدٌ فقط من مثالب الفارق الكبير في العمر بينها وبين شقيقها. لم تبدأ بعدُ مرحلة تدريسها اللغة العبريَّة.

يعود السائق إلى السيَّارة، ليجد شقيقته الصغرى، ترتجف بردًا. يغلق النافذة، وتنطلق السيَّارة بهما نحو السماء المكفهرَّة. تتدافع الغيوم في جوف بعضها البعض ملتهمةً بقايا بياضها، متحوّلةً إلى ما يشبه كتل الرماد الفائر التي ينبثق من بين ثناياها الوعيد بمزيدٍ من المطر. وبالفعل، تعود لتمطر مع أنَّ الراكبَيْن، على الأرجح، لم ينتبها خلال انشغالهما بالموقف مع الجنود إلى أنَّ المطر قد توقَّف. الأرض وحدها تدرك هذا بعدما ارتوت بالكامل، ولم يَعُد بمقدورها امتصاص أيٍّ من قطرات المطر المتساقط الذي يواصل الانصباب فوقها، زائدًا من حدَّة السيول المندفعة من سفوح التلال، ومن فوق الصخور، ومن على أسطح السيَّارات والشوارع والبيوت، تتدفَّق جميعًا إلى جوف الوحل المتخبّط تحت وطأة الجرف وبطش الريح العاصفة. تنحرف السيَّارة إلى طريقٍ فرعيَّةٍ أشدَّ ضيقًا، مواصلةً صعودها وحيدةً تحت وابل المطر باتِّجاه الغيم المتجمّع عند الأفق. حالما تصله، تقود الطريقُ الضيّقة السيَّارةَ داخل

السحب المنخفضة التي تأخذ بالانقشاع كاشفةً عن شوارع مهجورة، تحدُّها بيوتٌ بسيطة، أبوابها وشبابيكها موصودة، تكسو جدرانها الرماديَّة المبلَّلة عباراتٌ خُطَّت باللون الأخضر والأحمر والأسود، مكتوبةٌ على عجلةٍ بأحرفٍ مائلة، توشك على الفرار من الكلمات دون أن تسلب خطَّ الكتابة جماله. يسقط الاحتلال. فلسطين حرة أبية. انتفاضة مستمرة. ثورة حتى النصر. الحرية لأسرى الحرية. الفهد... بغتةً ينقضُّ من بين البيوت بضعة شبَّانٍ ملثَّمين يحملون في أيديهم الحجارة والعصيّ ويغيرون نحو السيَّارة. يوقفها السائق فورًا، وينزل رأسه ما إن يهوي الحجر الأوَّل على سطحها، فيما تبقى الراكبة في موضعها، تلاحق ما يجري بأنظارها، مهيمنًا على وجهها الانشداه. يلتقط شقيقها شيئًا من تحت المقعد حالما تهوي عصا على الجهة الخلفيَّة من السيَّارة، وأخرى حين يهرع إلى الخارج حاملًا الحطَّة ملوِّحًا بها أمام الشبَّان. تتوقَّف لحظتها أيديهم الممسكة بالحجارة والعصيّ في الهواء ويجمدون في مكانهم. ثمَّ يختفون. تبتلعهم جدران البيوت والسحب في لمح البصر. يسود سكونٌ تامّ.

يهرع شقيقها إلى تفقُّد أنحاء السيَّارة وفحص مواضع الانبعاج والخدوش التي أحدثها سقوط الحجارة والعصيّ عليها، وتعود هي إلى تأمُّل الجدران التي ابتلعت الشبَّان. لا أثر لهم البتَّة. باقيةٌ فقط العبارات المخطوطة. تكمل عيناها متابعة خطوط الكلمات حيث توقَّفت من قبل. الفهد الأسود. النسر الأحمر. تحجبُ العبارةَ الأخيرة جزئيًّا شجرةُ لوزٍ أغصانها غليظةٌ رماديَّة، نهاياتها رفيعةٌ بنِّيَّةٌ تشبَّعت بالبلل، تسقط عنها في أوقاتٍ متباعدةٍ قطرات الماء المتعلِّقة بها، ثمَّ تشتدُّ كثافة سقوطها ما إن يحطَّ سرب عصافير فوق الأغصان. الآن تعود العصافير للظهور بتردُّد

وقد انحسر المطر تمامًا، منها ما يطير فوق الساحة ومنها ما يهبط عند بقعة مياهٍ صغيرةٍ كوَّنتها الأمطار. تدفع العصافير بمناقيرها داخل البقعة وتشرب، أو بأجنحتها لتستحمّ، قبل أن تعود إلى شجرة اللوز لمرافقة بقيَّة العصافير عليها. تواصل الراكبة التحديق في حركة العصافير المتوتِّرة، حتَّى يسقط عن أحد الأغصان شيءٌ حجمه كبير، ما يشبه حبَّة لوزٍ ضخمةً بنِّيَّةً متيبِّسة، تستقرُّ على مقربةٍ من بعض الأعشاب الخضراء اليافعة الطالعة حول الجذع. تتعلَّق عيناها بحبَّة اللوز تلك. على الرغم من البعد، يظهر جليًّا ملمسها الناعم غير المألوف، كما يبدو بأنَّها تحرَّكت بقدرٍ طفيف. بعد وقتٍ من إعمال النظر، يبيت لونها أقرب إلى الأخضر منه إلى البنِّيّ، أو هو آخذٌ بالتحوُّل من البنِّيّ إلى الأخضر. كما عقب تدقيقٍ أشدَّ يبين بأنَّ لحبَّة اللوز هذه ما يشبه الذيل. يكمل شقيقها طوافه حول السيَّارة إلى أن يصل الباب عند جهة المقود، يرمي بالحطَّة على الرفِّ الأماميّ، ثمَّ يدخل ويجلس فوق مقعده. وتجمد هي في مقعدها ما إن تدير الحرباء المستقرَّة قرب العشب النامي حول جذع الشجرة رأسها ببطءٍ شديد، حيث تصوِّب نظرها إليها مباشرة، وترمقها.

تتوارى بقيَّة ذلك اليوم خلف الغيوم المتكدِّرة، يتبدَّد الزمن، وعلى خطاه الكثير من الأيَّام المقبلة التي تمحو الرتابةُ تفاصيلها. في الواقع، تمرُّ بضع سنين لا يحدث خلالها ما يسترعي الانتباه، ربما باستثناء ازدياد الوضع سوءًا يومًا بعد يوم، واستمرار الاعتقالات، من ضمنها اعتقال طالبٍ يدرس في مدرستها بتهمة خطِّ عباراتٍ معاديةٍ للسلطات. إنَّه خبرٌ يضاف إلى بقيَّة أخبار الاعتقالات المتعاقبة، كذلك لشقيقها، بتهمٍ لا يتوقَّف عندها الكثير. إلَّا أنَّ إحدى عمليَّات الاعتقال هذه تستهلُّ تجربةً لغويَّةً غير مسبوقة.

ليل، بيت، جلبةٌ مصدرها خفيّ، يليها قرعٌ حادٌّ على باب المدخل. تهرع لفتحه. أمامها جنديٌّ يحجب خلفه مجموعةً كبيرةً من الجنود، يبادر لسؤالها بالعبريَّة عن شقيقها. وأخيرًا. عليها أوَّلًا أن تجد جذر الفعل. مفرد. مذكَّر. ضمير المخاطب. زمن الحاضر. في الحال يعلو صوت انفجار الجنود الواقفين خلف الجنديِّ بالضحك، كما ويظهر شقيقها. تسأله عن الخطإ اللغويِّ الذي ارتكبته وأدَّى إلى انفجار الضحك هذا. إجابتها، تُردف، جاءت وفق ما تعلَّمت في حصص اللغة العبريَّة. يردُّ شقيقها أنَّه نحويًّا جرى تصريف الفعل على نحوٍ صحيح. ما لم يكن كذلك هو اللكنة. لقد مدَّت الحركات بين الأحرف أطول ممَّا لزم. غير أنَّ الوقت الآن ليس مناسبًا لمناقشة مثل هذا الموضوع، يختتم، ثمَّ يتَّجه إلى الجنود الذين يكفُّون عن الضحك ويقومون بتطويقه قبل أن يسوقوه معهم إلى الخارج. يبقى جنديٌّ واحدٌ عند باب المدخل يسدُّ طريقها. تواصل وقوفها في مكانها.

ليس بعيدًا عن باب المدخل، لا تُعَدُّ العتمة دامسةً في الخارج مع انتشار الأضواء القويَّة للمركبات العسكريَّة، كما وتنطلق سلسةٌ من الأسئلة والأجوبة المقتضبة كالعادة، تنتهي بنداء شقيقها باتِّجاهها، طالبًا منها أن تحضر له منشفةً وقطعة صابونٍ بسرعة. تجيب سائلةً إيَّاه لماذا، فيصلها صوته صارخًا غاضبًا بأن تحضر له منشفةً وقطعة صابون وكفى. فورًا. فعلًا شقيقٌ وقح، يجزم امتعاضها. يظلُّ واقفًا في الخارج على مقربةٍ من المدخل يحرسه ثلاثة جنود، بينما تتَّجه لتنفيذ ما طلب منها، يتبعها بضعة جنودٍ آخرين. تُنقِّي منشفةً صفراء وأصغر قطع صابون الزيت المغلَّفة بورقة رُسِم عليها جَمَلٌ حالمٌ يرفع رأسه بأنفة تؤكِّد عدم التفاته إلى ما يدور حوله. يتكرَّر رسم الجمل ذاته محفورًا على سطح الصابونة.

في هذه الأثناء يداهم بقيَّة الجنود الغرف وقد صحَّوا جميع النيام في البيت وبعض الجيران. يقلِّبون الأثاث، يلقون بمحتويات الخزائن من طعامٍ وأوانٍ وملابس وكتبٍ وأوراقٍ على الأرض. تتابع بأنظارها ما يفعلون بلا عزيمة، فيما هم ينفِّذون الأوامر، شبه متيقِّنين بأنَّهم لن يجدوا شيئًا. بعد انتهاء التفتيش، تبتعد المركبات العسكريَّة، في إحداها يجلس شقيقها في المقعد الخلفيِّ بين جنديَّيْن. لا حاجة إلى القلق. من المرجَّح أنَّه سيجري إطلاق سراحه عقب توقيفه لمدَّة ثلاثة أيَّام، على غرار ما حدث في الماضي، وما سيحدث في المستقبل، مع أنَّه لا يمكن لأحدٍ التيقُّن من ذلك في كلِّ مرَّة.

حاليًّا، تَمضي الأيَّام الثلاثة بتعثُّرٍ واختلال، يغلب إبَّانها الفَقْدُ على البيت، مُثقلًا كلَّ ركنٍ فيه. ربَّما يطوِّعه، هذا الفقد، لأوقاتٍ محدودةٍ في النهار، الانشغال بإعادة ترتيب الأثاث ووضع كلِّ ما رُمِي على الأرض في مواضعه السابقة داخل الخزائن وعلى الرفوف. الآن يتم إرجاع الأشياء بصورةٍ أفضل ممَّا كانت عليه في الماضي إلى أماكنها التي يمكن تنظيفها أيضًا. هي فرصةٌ أن تكون جميع الخزائن شاغرةً بعد رمي كلِّ محتوياتها على الأرض؛ فعلٌ لا يمكن لممتلكيها الإتيان عليه بمثل هذه السهولة والعفويَّة، على الأقلِّ ليس دفعةً واحدة. أمَّا الليل، فينشرخ فيه بسبب ما حدث هوَّة سحيقة، يكتسحها ارتجاف ضوء النجوم أو انبعاث النور عبر نافذةٍ ما على نحوٍ مباغت، فيما يخترق العتمة المرتعشة المضطربة أزيزُ الصراصير الليليَّة الذي قد يدحره لوهلةٍ قصيرةٍ صوت سيَّارةٍ عابرة، أو تغريد عصفور.

ليلةٌ ويوم، وليلةٌ أخرى ويومٌ آخر، ثمَّ الليلةُ الأخيرة واليوم الأخير. يُطلَق سراح الموقوف، عائدًا مع منشفةٍ تحمل في ثناياها رائحة عطنٍ

طفيفة وقطعة صابون بالكاد امَّحى من فوقها الجمل. تزول فقط ملامح وجهه والتفاتة رأسه غير الآبهة. وبالطبع ما جرى في أيّام الاعتقال الثلاثة ليس موضوعًا للحديث مع أحد. ينصرف شقيقها إلى الانشغال بمتابعة هموم الحياة اليوميَّة، ملتهيًا عنها فقط أثناء تحديقه في الفراغ مُطرقًا، أو عصره البرتقال.

إنَّه ربيع، حين لا يضير تبدُّل الفصول نضارة شجر البرتقال كلِّيَّة. الخضرة الغامقة لأوراقه دائمة، لا تخور لا بمضيّ الوقت ولا أمام زوابع الغبار التي قد تلفُّها، بينما زهره الأبيض يدوم من أواخر الشتاء وحتَّى أوائل الربيع، مزيِّنًا الأغصان لأسابيع عديدة، آسِرًا بعطره الجوّ. هذا الزهر، إنْ أثمر، قد يحتاج إلى أكثر من عامٍ حتَّى ينتج عنه حبُّ برتقالٍ ناضج، ما قد يتزامن مع ظهور الزهر الذي سيثمر عنه حبُّ البرتقال في العام المقبل. آنها يتمكَّن الاثنان، الزهر الأبيض بعطره العسليّ وحبُّ البرتقال بلونه الناريّ، من قضاء فترةٍ زمنيَّةٍ ليست بالقصيرة جنبًا إلى جنبٍ على الشجر، تطوّقهما خضرة الأوراق الكثيفة، ممَّا يلفت الأنظار خاصَّةً مع بلوغ الشتاء نهايته حين تندر الألوان، إلى أن تتساقط بتلات الزهر على الأرض أو يجري التقاط الحبّ، إمَّا للأكل وإمَّا للعصير.

لتحضيره، ينتقي شقيقها الحبَّات الأشدَّ نضجًا وطرواة، وبالتالي حلاوةً ووفرةً للعصير. ثلاث حبَّاتٍ تكفي لصنع كأسٍ واحد، لكنَّه يعصر ستًّا. يغسلها في البدء تحت الماء البارد، ولو بشكلٍ سريع، لإزالة الغبار وأيِّ رواسب أخرى تعلَّقت بالقشرة الخارجيَّة التي فور الضغط عليها تفرز سائلًا زيتيًّا قد يسيل ويختلط بالعصير، وإن صحبه الغبار، يغيِّر ذلك من الطعم بشكلٍ ملحوظ. بغضّ النظر، إنَّ جملة التعليمات والخطوات الاحترازيَّة هذه التي يتَّبعها لا تمنع في النهاية من إنتاج عصيرٍ حامضٍ

مرّ، يؤدّي بشقيقته إلى تجنُّب مكان تواجده عند إتيانه على تحضيره، وهو تصرُّفٌ قلَّما يفيد. ما إن يلمحها لاحقًا، يعلمها بأنَّ هناك بانتظارها في المطبخ كأس عصير برتقالٍ صنعه لها، منبِّهًا إلى فوائده للجسم. على كلّ، الوقت يدنو من منتصف الربيع والبرتقال من انتهاء موسمه، ما يبعث على الأمل في أن تكون هذه المرَّة الأخيرة التي يجري فيها عصره حتَّى الشتاء المقبل. ثمَّ إنَّ التأخُّر في شربه قد يقود إلى تعقيداتٍ أخرى. النمل كثيرًا ما يكون متحمِّسًا لتذوُّق ذلك العصير، لا تردعه عنه لا حموضة طعمه ولا مرارته. بالكاد تستقرُّ قطرةٌ واحدةٌ منه خارج الكأس، حتَّى تنطلق من ركنٍ خفيٍّ في المطبخ أسراب النمل دابَّةً بكثافةٍ نحوها، ثمَّ إلى السطل حيث تتجمَّع فضلات القشر. ظهورها هذا يقود إلى انشغال مَن في البيت بأمرها وتحديد المذنب في استدعائها وكيفيَّة التصدّي لها في أسرع وقتٍ ممكن. في غضونها، يواصل النمل دبيبه حول الكأس، متسلِّقًا إيَّاها أو زاحفًا بين جنبات القشر، مختبئًا داخلها، هائمًا فوق سطحها، مقبِّلًا أحده الآخر، أو مبتعدًا عنه، متزاحمًا بعضه فوق بعض، متكتِّلًا معًا أو في طريقه إلى الانفكاك، جاعلًا من البرتقال أرضًا يمكن نزولها والجوْب فيها، جارًّا إيَّاه تدريجيًّا وببطءٍ خارج سياقه. بناءً عليه، لا يعود من المستغرب أن تصادف هي، طالبةٌ في المدرسة، البرتقالَ متمركزًا برفقة صفةٍ داخل جملةٍ مفيدة، يمكن اعتمادها على سبيل المثال لا الحصر في إحدى حصص قواعد اللغة العربيَّة، حين يكون موضوع الدرس الضمائر المنفصلة، كالآتي: أنتَ من أرض البرتقال الحزين. أنتِ من أرض البرتقال الحزين. أنتما (للمذكَّر والمؤنَّث) من أرض البرتقال الحزين. أنتم من أرض البرتقال الحزين. أنتنَّ من أرض البرتقال الحزين. هو من أرض البرتقال الحزين.

هي من أرض البرتقال الحزين. هما (للمذكَّر والمؤنَّث)؟ من أرض البرتقال الحزين. هم من أرض البرتقال الحزين. هنَّ من أرض البرتقال الحزين. أنا من أرض البرتقال الحزين. من أين نحن؟

ولا يقتصر ظهور البرتقال في المدرسة على حصص اللغة العربيَّة. خلال موسمه، قد يظهر داخل سلَّةٍ بانتظار عصره في محلِّ الفلافل الواقع في مبنًى صغيرٍ يُحاذي الجهة اليسرى من بوَّابة المدرسة الحديديَّة الصفراء. أثناء الاستراحات يرتاد الطلبة هذا المحلَّ المستأجر من قبل سيِّدة تصنع الفلافل بنفسها. غير أنَّ الإقبال عليه، هذا العصير، يبقى محدودًا، ممَّا يعني بأنَّ صاحبة المحلِّ لا تضطرُّ إلى تحضير كمِّيَّاتٍ كبيرةٍ منه، وغالبًا ما ينتهي بها الأمر إلى إرجاع حبَّات البرتقال غير منقوصةٍ إلى بيتها. لصاحبة المحلِّ هذه بدنٌ ضعيف، ووجهٌ تشعُّ تعابيره، خاصَّةً عينيها، بالصرامة والإصرار. ثمَّ باقتراب استراحة الغداء من منتصفها، تخبو الحدَّة في وجهها ويشرع العرق ينزُّ منه وهي تهرول بين مقلى الفلافل وصحون سلطة البندورة بالبصل، والخسِّ المقطَّع، والخيار المكبوس، والبطاطا التي تكون قد قَلَتها قبل ساعةٍ أو أقلّ، وأخيرًا الطحينة وربَّما الشطَّة، كلٌّ حسب رغبة الطالب أو الطالبة، قبل أن يحطَّ الرغيف المنتفخ بأشهى الأطعمة بين يديهما. التالي، فالتالي ثمّ التالي، يحاصرها الطلبة من كلِّ صوبٍ برغباتهم، وأذناها تتلقَّفان بإصغاءٍ شديدٍ ما ينادى به نحوها من غمر الصراخ الذي تتعالى أمواجه باتِّجاهها بضراوةٍ، يُشجِّعها الجوع المعهود من منتصف يومٍ مدرسيٍّ مملّ. من بين هذه النداءات تأتي المطالبة برغيف فلافل مع كلِّ شيء، رغيف فلافل مع كلِّ شيءٍ وآخر بدون بندورة، رغيف فلافل بدون خسٍّ ورغيف فلافل بدون خيارٍ مكبوس، رغيف فلافل بدون بطاطا وآخر مع

كلّ شيءٍ وإن أمكن زيادة البطاطا من الرغيف بدون البطاطا عليه، ثلاثة أرغفة فلافل بدون طحينة، رغيف فلافل عاديٍّ ورغيف فلافل مع شطّة. إنَّ عدد ما يتمكّن منه هؤلاء الطلبة من احتمالات لا يخلص. ما لا شكَّ به، أنَّ القدرة الفائقة على الاصغاء التي تتمتَّع بها أُذُنيها وحدَّة بصرها الفائقة، تضمنان بأنَّ كلَّ طالبٍ وطالبةٍ يستلمان طلبهما وفق رغبتهما وحسب دورهما. لن يتناول أحدٌ ما لم يطلبه، ولن يسبق أحدٌ غيره مهما تدافع باتّجاه قاطع المحل الفاصل بينها وبينهم. إنَّ الطالب في المدرسة الذي اعتُقِل بتهمة كتابة الشعارات المعادية للسلطات، هو ابن صاحبة محلّ الفلافل هذه.

كذلك إلى أرض البرتقال الحزين يجيء رجلٌ بصحبة عائلته من بلدٍ قَصيّ ليعيش في مستعمرةٍ قريبة وينشئ فيها مزرعة. ثمَّ لسببٍ ما ربَّما يكون وجيهًا، يقرّر هذا الرجل اعتبار نفسه صديقًا للعائلة. والداها، كونهما لا يجيدان العبريَّة، يحيلان مهمَّة استقباله ومصادقته إلى شقيقها الذي يتأكَّد، مع اقتضاب إجاباته، بأنَّه لا يسعى جاهدًا لمصادقة أحدٍ. وهكذا كلَّما التقى الاثنان يسرع الحديث لبلوغ خاتمته بعد برهةٍ قصيرة. هي، على عكس ما يُظهِر شقيقها من لا مبالاة، يأسرها الفضول تجاه هذا الرجل القادم من خلف البحار، حاملًا فوق لغتِه العبريَّة لكنة لغته الأصليَّة التي تبين مرَّةً تلو الأخرى في لفظه حرف الراء بالتحديد. إنَّه يطحنه في فمه قبل أن يلفظه إلى الخارج، ليتردَّد صداه متدحرجًا مبدِّدًا وضوح الكلمة التي تفوَّه بها للتوّ.

عدا عن لكنته، يحضر هذا الصديق كلَّ عامٍ معه هديَّةً للعائلة من مزرعته، جَدْيٌ لا يعرفون ما يفعلون به، فيبقى مربوطًا بحبلٍ قرب السيَّارة، إلى أن يختفي ذات يوم. في كلِّ مرَّة، يكون لهذا الجدي فراءٌ أبيض نقيّ

يحمل غربةً لا يمكن إغفالها، تجعل من وقوفه قرب السيَّارة ليس أشدَّ عجبًا من وقوفه قرب جديان المنطقة التي يختلط في ألوان فرائها الأسود بالبنِّيِّ بالأبيض لتشكيل رسومٍ متمايزةٍ عند كلِّ واحدٍ من بينها. في الآن ذاته، نقاء بياض فروه يجعله غير متمايزٍ عن بقيَّة الجديان التي يُربِّيها الصديق، ممَّا يُحوِّل أمر اختفائه من قرب السيَّارة بعد فترةٍ وجيزةٍ من إحضاره، ثمَّ عودة ظهور جديٍ جديدٍ باللون والحجم نفسهما في العام المقبل، حدثًا رتيبًا غير مثيرٍ للشبهات.

أثناء بقائه مربوطًا، ينصرف الجدي إلى مراقبة ما يدور حوله بسكينة، متابعًا، نظريًّا على الأقلّ، لقاءً يصبح مرَّةً تلو الأخرى فرصةً تنتهزها الطالبة للتدرُّب على إجراء محادثةٍ بالعبريَّة. تنقِّب في عبريَّتها غير الطليقة عمَّا يعينها على سؤال الصديق عن أمورٍ شتَّى قد لا يكون هناك رابطٌ واضحٌ بينها، إلَّا أنَّها أسئلةٌ تضمُّ في تكوينها أكبر قدرٍ من المفردات التي تتعلَّمها في المدرسة. كما هي، بمنأًى عن فصاحتها، تعين على نفض الوجوم الذي يتسبَّب به اقتضاب شقيقها الشديد في الكلام، أو ركونه إلى الصمت في حضرة الصديق. تأتي حينها أجوبة الأخير بعبريَّةٍ محمَّلةٍ على الدوام بلكنة يجَلْجِل فيها حرف الراء، طاغيًا على بقيَّة الأحرف في خضمِّ تدحرجه خارج الفم. تتدحرج هذه الراء وتتدحرج، لدرجةٍ تصير معها ردوده عصيَّةً على الفهم، ممَّا يدفع بالطالبة أحيانًا إلى إعادة السؤال أكثر من مرَّة. عقب استنفاد ردوده بعد فترةٍ عن أسباب مغادرته بلاده التي تُفصِح أجوبته بأنَّه عاش فيها حتَّى وقتٍ ليس بالبعيد، في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، تسأله عن حياته هناك.

تمضي إبَّانها بضع سنين إضافيَّة يزداد فيها الوضع سوءًا يومًا بعد يوم، كما تتزايد حملات الاعتقالات، بما فيه اعتقال شقيقها، فالإفراج

عنه، حيث يعود البرتقال للظهور مجدَّدًا في الأرض عصيرًا، ثمَّ حزينًا، هذه المرَّة في إحدى حصص اللغة العربيَّة عن البلاغة. موضوع الدرس هو الاستعارة، أركانها، أنواعها واستخداماتها. ما هو أكيدٌ أنَّنا لا نستعير كلمةً كما نستعير قلمًا وعلينا أن نعيده، إنَّما نستعير الكلمة، مستشرفين لها معنًى آخر لا يُنقص من معناها الأصليّ أو يضيره، بل يحيل إلى معنًى جديدٍ فريد. تجدر الإشارة إلى أنَّه في الحصَّة لا يجري التعرُّض إلى كيف صار البرتقال حزينًا، فهذا أمرٌ ليس للاستعارة شأنٌ به.

في حصصٍ أخرى، يجري التدرُّب على مختلف أنواع الخطِّ العربيّ. خطُّ الرقعة، سرعان ما يفهم الطلبة، هو الخطُّ الذي عليهم اتِّباعه عندما يكتبون. بدرجةٍ أقلَّ يتدرَّبون على خطِّ النسخ وخطِّ الثلث، والخطِّ الديوانيِّ وخطِّ التوقيع، والخطِّ الكوفيِّ والخطِّ الأندلسيّ. هي تدريباتٌ تستدعي الإمكانيَّات اللانهائيَّة لأشكال الكتابة التي تتراوح ما بين النجاح والفشل في تقليد خطٍّ ما حتَّى يصبح مفهومًا للقارئ أو القارئة. التدريب، بمُفرَدِهِ، يرفع من شأن المحاكاة جاعلًا منها شرطًا للفهم. كما أنَّه يقود الطالبة إلى القدرة على الكتابة، متى شاءت، بخطٍّ يعتمد جميع الخطوط الممكنة، إضافةً إلى استخدام الخطوط المستقيمة التي تستهلُّها الكتابة المسماريَّة حسبما تظهر فوق لوحٍ صخريٍّ داخل صورةٍ رديئة الجودة في كتاب التاريخ المدرسيّ في الفصل عن حضارات بلاد الرافدين.

تستغرقها عمليَّة الكتابة أيامًا عديدة، كونها تستلزم الدقَّة في التدوين والحاجة إلى المحو وإعادة الكتابة بعربيَّةٍ فصحى لا ترد فيها أيُّ أخطاءٍ إملائيَّةٍ أو أخطاء قواعد أو أغلاطٍ نحويَّة. هذا يأتي من باب تجنيب القرَّاء أيَّ احتمالٍ لعدم الفهم. بعدما تنتهي، تتَّجه إلى متجر تصوير

بيانات. يجري الحديث بالعبريَّة، ممَّا يؤكّد بأنَّ صاحب المحلّ إسرائيليٌّ لا يتقن قراءة اللغة العربيَّة. تطالب بتصوير الورقة في ألف نسخة، شارحةً بأنَّها طالبةٌ تقدِّم بحثًا علميًّا، عبارةً عن مقالةٍ بصدد الكتابة المسماريَّة ونشأتها في بابل، عليها توزيعها على كافَّة الطلبة في المدرسة. من متجر الألوان وموادّ البناء، تشتري أربع علب رشٍّ ألوان، تضمُّ اللون الأحمر، والأخضر، والأسود، والبرتقاليّ. البرتقاليّ هو على الأرجح للتمويه.

الآن يجدر الانتظار.

مع غياب الشمس وامتداد العتمة على مهلٍ في كلِّ جهة، تخلد العصافير إلى النوم بعد ثورة زقزقتها التي تسبق حلول الظلام. تحطُّ فوق غصنٍ أو حافة نافذة، تنفش ريشها، تدفع منقارها داخله، ثمّ ترفع إحدى رجليها، وتغمض عينيها. كائناتٌ قليلة، منها بعض الطيور، لا يمكن تمييزها بدقَّةٍ في جوف السواد، تبقى صاحيةً في ساعات الليل. فأرٌ أو جرذٌ يدأب على قضم ما يجد من بقايا طعامٍ مرمية، قنفذٌ جامدٌ في موضعه، ووطاويط تعاود الطيران بين حينٍ وآخر في العتمة الدامسة التي لا يتمكّن مضيّ الوقت حاليًّا من أن يذلِّلها. باستمرار الانتظار لبضع ساعاتٍ أخرى، قد ينجلي غياب النوم في الجسم على هيئة خدر.

من صلب هذا الظلام الذي يتواصل الصحو فيه وتتشبَّع بحلكته التلال والأشجار والبيوت حيث يسترسل الآخرون في نومهم، تخطو الطالبة بحذرٍ بين أشجار الزيتون، فوق مسلكٍ ضيّقٍ ربصته أقدامٌ عديدةٌ سبقتها إليه، إلَّا أنَّ أحدًا لم يكن قد داسه في مثل هذه الساعة من الليل سوى قدمَيْها، منتعلةً حذاءً مقاسه أكبر من مقاسات أحذيتها الحالية. كذلك ترتدي ملابس تحيلها إلى كتلة لا يمكن تمييزها بسهولةٍ عن قتام الليل. تتراوح ألوان ملابسها بين الأسود والكحليّ والبنّيّ، كما

وتغطّي وجهها بلثامٍ أسود شفاف. تترك المسلك داخل الكرم بغتة وتختبئ خلف جذع شجرة زيتون، تبعد سربَيْن عن الشارع مع انبعاث صوت سيَّارةٍ عابرةٍ في العتمة. هذه سيَّارة معلِّم اللغة العبريَّة.

يعلم جميع الطلبة في المدرسة بأنَّ معلِّم اللغة العبريَّة ينام في الحصص، لأنَّه يعمل حتَّى الساعة الثانية والنصف صباحًا في حراسة مستعمرة. مرتَّبه الشهريُّ من وظيفة التدريس لا يكفي لإعالة أُسْرَته. لكن مع بداية كلِّ حصَّة، قبل خلوده إلى النوم، يشير إلى الطلَّاب بقراءة الدرس بصوتٍ عالٍ واحدًا تلو الآخر وفق أماكن جلوسهم في غرفة الصفّ. هو، على الرَّغم من إعيائه الشديد، يواظب على الصحو من حينٍ لآخر لتصحيح اللكنة العربيَّة في لفظ كلمةٍ عبريَّةٍ أو في مخارج حروفها أثناء قراءتهم الدرس. يعيد لفظ الكلمة بلكنة مُتحدِّث عبريَّةٍ إسرائيليّ يستحيل على أيٍّ منهم محاكاتها على غراره، معلِّمهم، وما أمكنه القيام به إثر عمله لسنواتٍ طويلةٍ في حراسة المستعمرة. يتصعَّبون حرف الراء على وجه الخصوص. لم يتمكَّن أيٌّ منهم من تقليد معلِّمهم في لفظه. مثلهم مثل غيرهم من مُتحدِّثي العربيَّة، تعوَّدوا لفظ الراء بضرب طرف مُقدِّمة اللسان على اللثَّة بضع ضرباتٍ قصيرةٍ متواليةٍ متتابعة. حرف الراء في العبريَّة كما يلفظه معلِّمهم وغالبيَّة ناطقي العبريَّة الذين يعتمدون اللغة منذ صغرهم، يأتي مُغايرًا. في حالتهم، حين ينطقونه، بالكاد تمسُّ مؤخِّرةُ اللسان سقفَ الحلق. المهاجرون الجدد أيضًا لا يتمكَّنون من تفوُّه الراء بهذه الطريقة في حديثهم بالعبريَّة، كونهم يحمِّلون الحرف لفظهم له في لغتهم السابقة، وأقربهم مثالًا صديق الشقيق الذي تواصل الراء عنده التدحرج بلا توقُّف، حتَّى تصل الطالبة، وهي تلهثُ إلى المدرسة المحاطة بسورٍ عال.

تتسلَّق البوَّابة الحديديَّة الصفراء بسرعة، ثمَّ تقفز راكضةً نحو أرض الساحة التي تتوسَّط المبنى الفارغ عدا من الظلمة في هذا الوقت من الليل. تفتح حقيبتها، تتناول علب الألوان وتجري نحو الجدران المشرفة على الساحة، حيث تبدأ بخطِّ الشعارات فوقها محاكيةً خطَّ المقاومين وليس عباراتهم فقط، جاعلةً السين تفقد أسنانها والنقطة تفرُّ من النون إلى جهة اليسار في «فلسطين» باللون الأسود، وتسيل الواو والراء باللون الأحمر إلى الأسفل في «ثورة»، وتسبح الألف المقصورة باللون الأخضر بعيدًا نحو الأعلى في «لِأسرى». بأيِّ حال، للرائي ممَّن لا يعرف العربيَّة، تبدو هذه الخطوط محض صدوعٍ ملوَّنةٍ في جدران المبنى. تسرع مجدَّدًا إلى حقيبتها وقبل أن ترمي بعلب الألوان داخلها، تتناول حزم الأوراق المصوَّرة وتهرع إلى منتصف الساحة، ثمَّ ترمي بها باتجاه السماء القاتمة، دافعةً إيَّاها إلى أعلى ما يمكنها. تتناثر الأوراق فوق الساحة في كلِّ جانبٍ فيما هي تعدو نحو حقيبتها، تغلقها، تحملها وتفرّ.

يحلُّ الصباح. العصافير تزقزق. حشرةٌ تطير حاملةً أشعَّة الشمس الباكرة فوق جسمها الهشّ. إنَّها ذبابةٌ يتوقَّف أزيزها في اللحظة التي تحطُّ فيها على زجاج النافذة. تدور فوقه، ربَّما بحثًا عن مدخلٍ إلى أن تتركه وتختفي في زرقة السماء الشاسعة التي تبعث على الدعة.

تخرج الطالبة من البيت متَّجهةً إلى المدرسة، يُثقِل النعاس حركة جسمها. العصافير لا تزال تزقزق في الخارج. على الطريق تمرُّ بها مركبةٌ عسكريَّةٌ مسرعةٌ في الاتِّجاه المعاكس. بعد برهة، تعود العصافير لمتابعة زقزقتها. تصل المدرسة. الساحة تعجُّ بالتلاميذ وبصخبهم الصباحيِّ المعتاد، تطلُّ عليهم جدران مبنى المدرسة وهي تشعُّ بياضًا في بعض المواضع. مع التدقيق جيِّدًا، يمكن لمح آثار ما يشبه حرفي الواو والراء

السائلَيْن نحو الأسفل، ولم يتمكَّن الدهان الأبيض الرطب من محوهما كلِّيَّةً نظير ما فعل مع بقيَّة الأحرف في العبارات التي رشَّتها فوق الجدران قبل حلول الفجر. تشرع بالتجوال في الساحة. يبدو بأنَّ الساحة هي الأخرى قد ابتلعت مئات المناشير التي رُميت في أنحائها واستغرقت كتابتها سرًّا أيَّامًا ولياليَ طويلة. لا وجود لقصاصة ورقٍ ولو صغيرةٍ فوقها. يرنُّ الجرس. يسرع الطلبة بحشودهم المتفرِّقة للاصطفاف وفق نظامٍ لا ينفكُّ المدير والمعلِّمون، وبدرجةٍ أقلَّ المعلِّمات، عن محاولة فرضه. يتوزَّعون في صفوفٍ متوازية، تبدأ مستقيمةً وتنتهي ملتوية، حين يتَّضح بشكلٍ لا لبسَ فيه، الاختفاء الكلِّيُّ للمناشير والشعارات من المكان. لقد مُحِيَ كلُّ أثرٍ لما حدث منذ ساعاتٍ قليلةٍ داخل جدران المدرسة بالكامل. مع بداية حصَّة العبريَّة، يلقي المعلم برأسه على حقيبته ما إن يرفعها عن الأرض ويضعها على الطاولة، مُتَّخذًا إيَّاها كمخدَّة. يستقرُّ نظر الطالبة على البوَّابة الحديديَّة الصفراء، البادية عبر نافذة غرفة الصفّ، يتردَّد في الفضاء لفظ كلماتٍ بالعبريَّة تغلبها لكنةٌ عربيَّةٌ خلال قراءة طالبِ الدرس. تتثاءب. بعد وقتٍ ترفع حقيبتها عن الأرض وتضعها على الطاولة لتلقي برأسها فوقها هي الأخرى، ثمَّ تستسلم إلى نوم يفضُّه رنين الجرس معلنًا نهاية الحصَّة، يتبعه ضجيج سَحْب الطلاب للكراسي وانطلاق أصواتهم الحادَّة العالية.

خلال استراحة الغداء لذلك اليوم الذي يوافق إخفاقها في المساهمة، ولو بقدرٍ بسيطٍ في دفع مسار الثورة، تتَّجه إلى محلِّ الفلافل الواقع قرب البوَّابة وتقف مع حشد الطلبة الراغبين بشراء الفلافل.

يوميًّا، منذ إطلاق سراحه، يُسرع ابن صاحبة المحلِّ مع بدء الاستراحة إلى القفز نحو الجهة الثانية من القاطع الذي يلتصق به

الطلبة، لمساعدة والدته في تعبئة الأرغفة الصغيرة بالفلافل والخضار وفق طلباتهم وتعليماتها الموجزة. لهذا الطالب، مع أنَّه في عامه قبل الأخير من دراسته الثانويَّة، جسمٌ بالغٌ مقارنةً مع بقيَّة الطلاب في صفِّه وفي المدرسة عمومًا. يعود السبب خلف ذلك بالطبع إلى اعتقاله عقب محاولته، بتعبير الآخرين، أن يكون ثائرًا، وقيامه بخطِّ شعاراتٍ سياسيَّةٍ تتعامل معها السلطات على أنَّها معاديةٌ لها. يخطُّها على الجدران المحاذية للشوارع العامَّة، ممَّا يؤدِّي بكلِّ عابرٍ وعابرةٍ إلى قراءتها قبل محوها، على العكس من مصير العبارات التي تخطُّها الطالبة على الجدران الداخليَّة لمبنى المدرسة وربَّما لم يقرأها سوى الناطور قبل أن يمحوها رجال الشرطة والمخابرات. إلَّا أنَّه يُكتَشف لاحقًا ويُلقى القبض عليه. الآن تظهر الأعوام الأربعة التي صدرت في الحكم ضدَّه وقضاها في السجن، جليَّةً في جسمه مع عودته لإكمال دراسته الثانويَّة بعد انقطاعه عنها جرَّاء اعتقاله. يلاحقه فارق الأعوام الكبير هذا من ساحة المدرسة إلى داخل الصفِّ وإلى محلِّ الفلافل. كذلك ثمَّة عصفورٌ يلاحقه.

إنَّه عصفور، يمكننا الاعتقاد، ينتمي إلى فصيلةٍ محلِّيَّة لا تهوى الترحال بعيدًا، إنَّما تُظهِر ارتباطًا وثيقًا بالناس وبالتجمُّعات البشريَّة، كما وتحفظ مناطق سكناهم عن ظهر قلبٍ وأين تجد غذاءها فيها على مدار العام. في الصيف، تظهر في الصباح الباكر قبل أن يصحو غالبيَّة الناس، ثمَّ مباشرةً وقت مغيب الشمس، وهي تغير على ثمر الشجر الناضج لنخره بمناقيرها، خاصَّةً الثمر المعلَّق بالأغصان العالية الذي لا يتمكَّن أحدٌ من بلوغه وجمعه. أمَّا في الخريف، فتكثِّف من تجوالها في الحقول المحصودة، تلقُّط، أو بالأحرى تتنازع فيما بينها على ما يمكنها أن تجده من بقايا حبوبٍ متناثرةٍ بين جذوع النباتات الجافَّة

وتلك التي سقطت داخل الشقوق في التربة عقب حرثها، أو يكون قد تسبَّب بها الجفاف. بحلول الشتاء ثمَّ الربيع في أعقابه، مع انقراض ثمر الشجر وحبوب النباتات، تعود هذه العصافير لملاحقة البشر. غذاؤها في مثل هذا الوقت فتات الخبز الساقط على الأرض أو بقايا كِسَرِه التي يتركها البعض على حافَة سورٍ ما. وحين لا يتوفَّر أيٌّ من غذائها المفضَّل هذا، كونها انتهازيَّة، تباشر بأكل الديدان، وحتَّى النمل الذي يتوفَّر بكثرةٍ طيلة العام، ممّا يؤدِّي ببقائها تشغل الفضاء بلا انقطاعٍ بزقزقتها وبطيرانها، قفزها على مقربةٍ ممَّن تريد، أو ملاحقتها أحدهم.

هو مشهدٌ معهودٌ أن يجتاز الطالب الأسير السابق ساحة المدرسة وحيدًا، خلفه العصفور، بعدما يرنُّ الجرس ويأوي جميع الطلبة إلى غرف صفِّهم. ومع أنَّه دائم التأخُّر عن الحصَّة بسبب معاونته والدته في المحلّ، يغضُّ المعلِّمون والمعلِّمات النظر عن الأمر. ففي حين لم يُقْدم أحدٌ على التعبير عن التضامن معه علنًا أو التقرّب منه لما يترتَّب على ذلك من مضايقاتٍ محتملةٍ وملاحقاتٍ من قبل السلطات، لمْ يكفّ الناس عن دعم والدته عبر تسهيل عمل محلِّها وشراء الفلافل منها، على الرغم من أنَّ البعض يجده مالحًا بعض الشيء. هي كثيرًا ما توصف بالمرأة المكافحة الصامدة أمام كافة أوجه الشقاء، ما يعني أنَّ كلَّ مَن حولها يكنُّ لها الاحترام الشديد دون التهيُّب من صرامة وجهها الذي يبدو وكأنَّه وُلِد فاقدًا القدرة على الابتسام. وجه ابنها، الطالب الأسير السابق، مثلها لا يبتسم، غير أنَّه يشعُّ بتعابير مغايرةٍ أبعد ما تكون عن الحدَّة. من جهة، هناك التوقُ إلى العزلة، تؤكِّده عيناه اللتان تتجنَّبان الالتقاء بأعين الناس قدر المستطاع. لكنَّه من جهةٍ مقابلة، يتمتّع بطيبةٍ شديدةٍ يشي بها غياب الانقباض من وجهه، وتنعكس في ثقته بالآخرين وعدم

التقاعس للحظةٍ عن العناية بهم. تصرّح بهذا جهوزيَّة يديه في تقديم العون لمن يحتاج، علاوةً على عونه لوالدته الذي دائمًا ما يتسبَّب، كما نعلم الآن، بتأخرُّه بضع دقائق عن بداية الحصَّة التالية لاستراحة الغداء. المسافة التي يستلزم عليه قطعها من محلِّ الفلافل قرب بوَّابة المدرسة حتَّى غرفة صفِّه غير قصيرةٍ بالمرَّة. تتابعه الطالبة بأنظارها منذ لحظة ظهوره عبر نافذة صفِّها التي تجلس بمحاذاتها، مارًّا من يمين إطارها إلى يساره، قبل أن يختفي، والعصفور في أعقابه.

العصفور يتبع الطالب إلى كلِّ مكانٍ دون كلل، مُحافظًا بشكلٍ دائمٍ على قدرٍ من البعد بينهما. حين يكون ذاك في محلِّ الفلافل، يبقى العصفور ينتظره في الخارج، يلتقط ما يتساقط من فتات الخبز أو الفلافل في خضمِّ التهام الطلبة لأرغفتهم على عجلة. وحالما يترك الطالب المحلّ، يهرع ليتقدَّمه في قفزاتٍ صغيرةٍ كما لو أنَّه يرشده إلى صفِّه، حتَّى يُحلِّق فارًّا في الهواء ما أن تقلَّ المسافة بينهما، فتتقاطع ظلالهما لبرهةٍ وجيزة. هي لحظاتٌ ويرجع لمواصلة ملاحقته الطالب أو القفز أمامه إلى أن يصل الأخير غرفة صفِّه ويغيب داخلها. عندها ينطلق العصفور إلى الحوم حول باب مدخلها، أو الوقوف على حافة إحدى نوافذها، أو التحليق في الجزء البادي عبر زجاجها.

لا يبدو بأنَّ الطالب يعبأ بملاحقة العصفور له، والتي يمكن لها أن تدوم طيلة حياته، باستثناء الأحيان التي تهبُّ فيها رياحٌ شديدةٌ تحول دون استطاعة أيِّ عصفور، مهما بلغ جبروته، على الطيران كما يشاء. تبطؤ سرعته، تتغيَّر وجهته دون قرارٍ منه، ويخسر مقدرته على الهبوط في نقطةٍ ما وقع اختياره عليها. وحين لا يخطئ موقع هبوطه، قد يخونه الغصن المهتزُّ آن يحيد عنه بفعل الريح الشديدة.

هذا هو حال الصباح الشتائيّ العاصف الذي تضطرُّ فيه صاحبة محلّ الفلافل إلى أن تسرع لإيقاظه، ابنها، على الرغم من أنَّه صباح يوافق إصدار السلطات أوامرَ تقضي بإغلاق جميع المدارس والمحالّ والتزام السكّان بيوتهم لمدَّة أسبوع. تجده صاحيًا. تطلب منه أن يجري إلى المدرسة للتحقُّق من أنَّ دفَّات القاطع الحديديَّة في المحلّ مغلقةٌ جيِّدًا بالقفل من الداخل. هي ليست متأكِّدةً من أنَّها فعلت ذلك. إبَّان استعداده للخروج تشتدُّ الرياح وتتحطَّم بعض أغصان الأشجار، تسقط أسلاك الهوائيّ المربوطة على ساريةٍ مُثبَّتةٍ خارج نافذة غرفة الجلوس، وتقعُ أصص الفخَّار المصفوفة بجانب باب الدار. يلمح غالبيَّتها وهو يجري إلى المدرسة. عليه أن يركض، ترجوه والدته، وأن يرفع ياقة معطفه. يركض. تعيد والدته ما قالت للتوّ فيما هو يبتعد في الشارع راكضًا. تحاول كلمتا «حبيبي» و«اركض» اللحاق به، لكنَّ الريح تعرقل وصولهما مسمعه وتحملهما في اتِّجاهٍ مُغاير. يتبدَّد حرف الحاء، ثمَّ يحجب ضجيج سقوط أصيصٍ آخر حرف الباء. حرفا الراء والكاف يُداسان معها، لتبقى الضاد وحدها حتَّى يبتلعها صوت الرعد في اللحظة القادمة. لكن لا بأس. إنَّه طالبٌ نبيه، يكفي توجيه القليل من الكلام إليه كي يفهم، ويكترث، ويركض، خارقًا أوامر السلطات عاصيًا إيَّاها. يصل المدرسة. يجد الدفَّات الحديديَّة في المحلّ مغلقةً جيِّدًا. يركض عائدًا إلى البيت. يهرع إلى الدالية لتثبيت عروقها بعصيّ يدقُّها داخل التربة. يخلِّص الزرِّيعة من بين أصص الفخَّار المحطَّمة. يلفُّها بخرقٍ ليحمي جذورها والتربة التي تحتضنها. تبدأ تمطر قليلًا. يسرع ليخلِّص شجرة التين خلف البيت من الأغصان المكسورة التي لا تزال عالقةً بها ويربط التي لم تنكسر من بينها بشبك السياج خلفها، ثمَّ يجمع الأغصان المنزوعة

في كومةٍ عند الشجرة. يتوقَّف المطر. يجمع فخَّار الأصص في زاوية. يفعل كلٌّ هذا ملتفتًا بين فترةٍ وأخرى نحو نافذة المطبخ حيث تخرج عبر فتحةٍ صغيرة جُعِلت فيها تعليمات والدته. هذه اللحظة تسأله لماذا لم يجلب أغصان التينة المكسورة ويُكوِّمها في الساحة. يردُّ بأنَّ التربةَ موحلةٌ قليلًا وجلبه لها قد يتسبَّب بتلطيخ الأرضيَّة بالوحل. تواصل صاحبة محلِّ الفلافل التزام موقعها خلف النافذة تتابع بأنظارها ما يفعله ابنها في سبيل حماية النبات والشجر، إلى أن يدخل البيت.

تصحو الطالبة في ساعةٍ لاحقةٍ من الصباح إيَّاه الذي يوافق دعوتها الطلبة في اليوم السابق إلى الاجتماع أمام بوَّابة المدرسة والانطلاق في مسيرةٍ هدفها عصيان أوامر السلطات. تكون هي أوَّل من يصل قبل أن ينضمَّ إليها بعد حينٍ طالبان آخران، ثمّ طالبة، وطالب. يقف الخمسة قرب البوَّابة الحديديَّة الصفراء الموصدة التي باشر الصدأ بالتهام طرفها السفليّ، بانتظار وصول آخرين من بقيَّة مئات الطلبة الدارسين معهم لبدء المسيرة. خلال انتظارهم تعصف بهم رياحٌ قويَّة، تطوِّقهم، تخدشهم، تلسعهم، تصفعهم، تدفع النوافذ المفتوحة في بعض غرف الصفّ، فيتعالى صوت صفقها حادًّا صاعقًا، ثمَّ تطرق الأبواب في الأروقة وترمي بالسواتر الحديديَّة على إسفلت الشارع، تدحرها فوقه، وتُدَحرج وراءها دلوًا حديديًّا. تواصل الريح هجماتها عليهم، تتزايد الضوضاء ويتفاقم الاضطراب فيما يتقدَّم الوقت، دون أن يرتفع عددهم. تمضي أكثر من ثلاث ساعاتٍ حتَّى يتَّضح لهم بشكلٍ لا لبس فيه، بأنَّ عداهم الخمسة، لن يُقدِم أحد، بمن فيهم الطالب الأسير السابق، على مغادرة بيوتهم للانضمام إليهم في الاحتجاج. الجميع يذعن لأوامر السلطات. يواصل الخمسة الوقوف أمام البوَّابة، بعضهم تاركًا أقدامه تداعب الحصى أثناء

تقديرهم الموقف. يسيرون بضع خطواتٍ لا غير. لا يزال لا يلقي أحدٌ بالًا إليهم باستثناء العصافير التي لا تكفُّ عن محاولاتها الهبوط على الأشجار القريبة أو على حافَّة البوَّابة العليا، دون طائل. لا يمكثون طويلًا. مع بداية العصر يعودون أدراجهم إلى منازلهم التي يلزمونها مثل سواهم. العصافير وحدها تواصل تحليقها الجزع خارج البيوت. ثمَّ ما إن تسكن الريح قليلًا حتَّى تنطلق لتحوم بألوان ريشها الكئيبة بانسيابٍ في الفضاء، متنقِّلةً من الأسلاك الكهربائيَّة إلى حافة شرفةٍ أو نافذةٍ فإلى سطح مبنًى.

مع غروب الشمس الذي يبدو متقطِّعًا عبر السحب يومها، تترك العصافير مواضعها تلك، لتتجمَّع فوق الأشجار القريبة من البيوت وتهجع فوق أغصانها. تجعل أشعَّة الضوء الواهنة التي تخترق الشقوق بين الغيوم لون جذوع هذه الأشجار وأغصانها برتقاليًّا. من بين الأغصان ما هو مكسورٌ إثر محاولات تسلُّقها من قبل فتية لم ينتبهوا بأنَّهم لم يعودوا أطفالًا وبأنَّ أحجامهم وأوزانهم قد زادت إلى حدّ لم تعد تصمد معه الأغصان غير الغليظة تحتهم. ينكسر بعضها من حينٍ لآخر، ثمَّ تجفُّ نهاياتها بالتدريج. بمقدور أيدي هؤلاء الفتية الآن فحسب الإمساك بالأغصان المكسورة في مواضع التقائها بالفروع الرئيسيَّة، وربَّما تثبيت أقدامهم فوقها للحظةٍ قصيرةٍ عند تسلُّقهم الأشجار. يقف عصفورٌ مطوَّلًا على أحد هذه الأغصان المكسورة، بينما عصافير أخرى تتوزَّع بين بقيَّة الأفرع الطويلة، تزقزق عاليًا.

في خاتمة اليوم إذن تندثر جميع آثار العصيان المدنيِّ الذي تبتدئه الطالبة قبل الظهيرة برفقة ثلاثة طلَّابٍ وطالبة. لكن، كما يقال، رُبَّ ضارَّةٍ نافعة، ولو أنَّها كذلك من وجهة نظر البعض فقط. فللوهلة الأولى، الفشل في اجتذاب آخرين للانضمام إلى مسيرتهم، يفسح المجال أمام

الراغبين من بينهم إكمال دراستهم الجامعيَّة الخريف المقبل دون أن يلاحقهم شبح الملفّ الأمنيّ. وجود هكذا ملفّ، بلا أدنى شكّ، من شأنه أن يتسبَّب بتأخير دراستهم في حال تعرَّضوا للاعتقال، كما وأن يحول بعد إطلاق سراحهم دون إمكانيَّة دراستهم الكثير من المواضيع المتاح لهم دراستها، وهي محدودة من أصلها، في أيٍّ من الجامعات الإسرائيليَّة. يضطرُّ غالبيَّتهم إلى الالتحاق بمثل هذه الجامعات، في ظلِّ الإغلاق المستمرِّ للجامعات الفلسطينيَّة ومداهمات الجيش لها وتنفيذ الاعتقالات بين صفوف الطلبة. بإيجاز، إنَّ هاجس الملفِّ الأمنيِّ ليس بالهيِّن، ويقف على نحوٍ شبه قاطعٍ وراء عدم استجابة الغالبيَّة الساحقة من الطلبة إلى دعوة العصيان. إنَّما هو تهديدٌ ملموسٌ ومرئيّ، يشهدونه يوميًّا في الجسم الضخم للطالب الأسير السابق الذي يلتحق بصفّ لا يوافق سنين عمره، وكلُّ الغموض يلفُّ مصير مستقبله، فضلًا عن العصفور الذي لا يكفُّ عن مطاردته. مكتبة سُر مَن قرأ

من البديهيّ أنَّ ضرورة اتِّخاذ الحيطة من العصافير أمرٌ لا يُلام عليه أحد. المنطقة بمجملها مراقبةٌ من قبلها. في كلِّ الأحوال، لا يمكن لهذه العصافير تمرير أيِّ معلوماتٍ للسلطات عن الطالبة ورفاقها الأربعة، وما قاموا به خلال اليوم، لأنَّه لا تتوفَّر هناك أيُّ معلومات تستحقُّ التقديم. كما لا يظهر بأنَّ الطالبة تلقي بالًا إليها، ولا إن كان هناك عصفور يتعقَّبها أم لا بعد محاولتها دعوة آخرين إلى عصيان أوامر السلطات.

ما تلقي بالًا إليه ويتغيَّر عقب تلك المحاولة غير الجديرة بالذكر في صفحات التاريخ، هو حقيقة الاختفاء الكلِّيّ لملاقاة عينيها بعيني الطالب الأسير السابق التي لم تكن لتدوم سوى لحظاتٍ قصيرةٍ على أيِّ حال. حين تنصرف إلى الوقوف في الأيَّام المقبلة لفشل العصيان

بانتظار رغيف الفلافل الذي يساعد أمّه في تحضيره، تتجنَّب النظر إليه ويتجنَّب النظر إليها. كما لا تعود تنتبه إلى لحظة ظهوره عبر شبَّاك الصفّ يمشي في الساحة وحيدًا، يتبعه العصفور. هو لا تعود عيناه تبحثان أكثر عن يدها التي هي أوَّل ما يظهر منها عبر نافذة غرفة صفِّها حين يرجع إلى غرفة صفِّه متأخِّرًا، قبل أن يغضَّ بصره حالَما يلمح عينيها. لا يجلس أحدهما أكثر في المقعد الذي تركه الآخر قبل قليل. كلُّ هذا صدفة؟ يمكننا التخمين على الأقلّ بأنَّ الأمر لم يكن مدفوعًا بخيبة أملٍ ما أو حتَّى حذرٍ لا مُبرِّر له، بقدر ما هو مدفوعٌ بتلك الهوَّة التي تظهر على حين غرَّةٍ بين اثنين لعدم توافقٍ بسيط، لا يكون لهما دورٌ فيه. أو هي الظروف في أجواءٍ يزداد فيها الوضع سوءًا يومًا بعد يوم. لتكُن ما تكون الأسباب، هذا هو. ثمَّ يفترقان في نهاية العام الدراسيّ، على الأغلب دون أن يستوقفهما ما حدث بالمرَّة في المستقبل.

المستقبل هذه الكلمة الرهيبة المهيبة التي لا يفقه كلاهما عنها شيئًا.

يسوقها المستقبل بعد بضعة أشهر، كما هو متوقَّعٌ بشكلٍ أو بآخر، إلى الالتحاق بجامعةٍ إسرائيليَّة. إلَّا أنَّ الطالبة تتلقَّى الدرس الأوَّل قبل أن تبلغها، وهي في طريقها إليها. إنَّه درسٌ يُعزى إلى حقل تكتشف فيما بعد بأنَّ تسميته علم الأعراق، ويكتنف عليه استقراء الخصائص الثقافيَّة غير المادِّيَّة للأفراد. يقَدَّم هذا الدرس في منطقة تغلبها قرًى ومدنٌ فلسطينيَّة، تنبسط بيوتها وأحياؤها على جانِبَي الشارع الرئيسيّ.

إنَّها مدنٌ وقرًى تحتضنها كروم الزيتون، تنتشر فوق أسطح بيوتها وشرفاتها حبال الغسيل، بينما تستهلُّها مطاعم لا شيء معقَّدٌ للغاية على قوائمها، الحمُّص والفلافل بالأساس، ومحالُّ تصليح السيَّارات وتغيير

إطاراتها. الكثير من سواد الشحم يلطّخ ملابس العمّال الذين يحيطون بسيّارةٍ ما تقف أمام الأبواب الشاسعة لهذه المحالّ، أو يظهر نصف جسم أحدهم السفليّ أثناء استلقائه تحت مركبةٍ رُفعت عن الأرض، حيث قد ينزاح طرف قميصه المتّسخ وينحسر قدرٌ من لون بشرة بطنه الشاحبة.

يزدحم محيط هذه المحالّ، كما الشوارع المؤدّية لمداخل البلدات، بالسيّارات التي تُبطئ من حركتها ليتمكّن سائقوها من تحية أحدهم الثاني أو أحد المارة، لسؤاله عن حاله، أو وجهته لتوصيله إن أمكن. تنتشر مباشرةً وراء هذه المداخل بيوتٌ متفرّقة تحجب واجهاتها الأشجار وقد أفلتت من قبضة الاكتظاظ المعماريّ الذي يبتلع تفاصيل غالبيّة المساكن في تلك البلدات. يبين الاكتظاظ فيها متفاقمًا بالتدريج باتجاه وسطها، مغيّبًا الخضرة التي تكسو التلال. ربّما تلوح من بعيدٍ بين البيوت نخلة، لكن من الصعب تمييز أيّ خُضْرةٍ أخرى. يمكن فحسب تمييز عدم اكتمال عمليّة البناء لبعض هذه البيوت، إمّا بسبب شحّ الموارد والمال لدى أصحابها، وإمّا بسبب عدم سماح السلطات لهم بإتمام المبنى. تُترك هياكل لا يمكن أهلها. الصدأ لا غير يستوطن قضبانها الحديديّة البائنة في أرضيّة طوابقها وأعمدتها، مخلّفًا آثاره على الأسمنت في هيئة حلقات، تتسع بمرور الزمن.

تجلس في حافلة النقلّ العموميّ التي من المفترض أن توصلها قريبًا من الجامعة، عندما تتوقّف فجأةً في تلك المنطقة في نقطةٍ غير مخصّصةٍ لوقوف الحافلات. يصعد جُنديّان بمثل عمرها، ربّما أكبر بعامٍ أو عامين، يدوران ببصرهما بتأنٍّ بين الركّاب لدى اجتيازهما الحيّز الضيّق بين المقاعد، حين يتّضح بأنّهما يبحثان عن ركّابٍ فلسطينيّين. يَنتقيان ثلاثةً ممّن يبدو لهما بأنّهم كذلك. اثنان تشير ملابسهما القديمة

المتَّسخة بأنَّهما عاملان، والثالثة تُغطّي شعرها بمنديل. يطلب الجنديَّان رؤية هويَّاتهم للتأكُّد من فلسطينيَّتهم، قبل أن يقوداهم إلى الخارج بغير جلبةٍ وبانصياع الثلاثة التامّ، ممّا يقلِّص من احتماليَّة تذمُّر الركَّاب في حال تأخَّروا أكثر. تنطلق الحافلة إثرها بدونهم، مُخلِّفين وراءهم ثلاثة مقاعد فارغةٍ إضافيَّة لا يلتفت بقيَّة الركَّاب إليها. قد يجلس راكبٌ أو راكبةٌ جديدان، يصعدان في إحدى المحطَّات المقبلة، فوق أحدها، هذه المقاعد، دون أن يعلما كيف باتت فارغة. هي تواصل التحديق باتِّجاهها بقلق. مرتديةً ملابس نظيفةً وبشعرٍ مكشوف، تنفذ من عمليَّة الانتقاء، فالتدقيق في أوراقها ومن ثمَّ إنزالها. تُترَك جالسةً في مقعدها.

في العادة يجري إطلاق سراح من يجري إنزالهم بهذه الطريقة بعد ربع ساعةٍ أو ساعتَيْن على حدٍّ أقصى، هم وحظُّهم، عقب تفتيشهم وتفتيش حقائبهم والاتِّصال بمركز المعلومات الخاصّ بالشرطة لفحص إن كان لديهم سجلٌّ أمنيّ. بعدها يتمُّ إيقاف حافلةٍ عابرةٍ أخرى وأمْر سائقها بنقلهم إلى وجهاتهم المنشودة دون الحاجة إلى شراء تذكرةٍ جديدة. لكن من هذه الحافلة، يُنزَل من يجري الاكتشاف بأنَّه فلسطينيٌّ على متنها، وهكذا دواليك حتَّى نهاية ورديَّة الجنديَّيْن، واستبدالها بجنديَّيْن آخرَيْن، يمارسان الإجراء ذاته... إلخ. إنَّه إجراءٌ أمنيٌّ اعتياديّ.

الإجراء لِدخول مبنى الجامعة يَتشابه مع ما ينمُّ عنه ركوب الحافلة في تفصيلٍ واحدٍ بعينه. التفتيش. عليها، كما على جميع الطلبة، المرور بغرفةٍ تُستخدَم كبوَّابة دخولٍ رئيسيَّة، وفتح حقائبهم لعرض مُحتوياتها على الحارس الذي يدفع برأسه باتِّجاه الفتحة وبيديه داخل الحقيبة، يقلِّب ما فيها، ثمَّ يُومِئ برأسه إشارةً إلى الإذن بالدخول. في الأوقات التي لا تزدحم فيها الغرفة بالطلبة، لا يترك الحارس مقعده. عوضًا عن

هذا، يميل الطالب أو الطالبة بحقيبتهما نحوه، قبل أن يومئ برأسه مانحًا إيّاهما الإذن بالدخول، أو قد لا ينظر باتّجاههما البتَّة، ويستمرُّ بقراءة الجريدة أو الحديث مع شخصٍ آخر يقف قربه، تاركًا إيّاهما يدخلان دون فحصهما.

يُفضي مَخرج غرفة التفتيش إلى حديقةٍ كبيرة تُحيط بمبنى الجامعة من كلّ جانب. عشبٌ أخضر مجزوزٌ بعناية، وأزهار، وشجيرات وأشجارٌ من بينها سروٌ ونخيل، تتوزَّع بينها أنابيب الريّ وتنبعث من محيطها زقزقة العصافير. تطوّق الحديقة أسوارٌ حجريَّة تعلوها قضبانٌ حديديَّة، تجعل من فكرة القفز عنها شبه مستحيلة، لكن من يرغب بالمحاولة، له ذلك. خارج أسوار الجامعة، تمتدُّ حديقة نباتاتٍ شبه استوائيَّةٍ كبيرة، تحدُّها مساكن الطلبة، ثمَّ خلفها أحياءٌ فلسطينيَّة.

على بعد خطواتٍ من غرفة المدخل ينتصب المدخل الفعليُّ للجامعة. تتَّجه الطالبة نحو الباب الدوَّار، تدفعه لتدخل، وعلى الفور تهاجمها ضوضاء الطلبة الرائحين والغادين فوق ممرٍّ رحبٍ طويل، منهم من يعرّج يسارًا أو يمينًا إلى مكاتب إدارة الفروع والكلّيَّات على اختلافها، أو إلى قاعات المحاضرات. يؤدّي الممرُّ في نهايته إلى حرم الجامعة الداخليّ الذي تنتشر في أنحائه، عدا عن حشود الطلبة، طاولاتٌ يقف أو يجلس خلفها بضعة طلَّاب، مُمَثِّلين وممثِّلاتٍ عن أطرٍ طلَّابيَّةٍ تابعةٍ لشتَّى الأحزاب السياسيَّة المُجازة من قبل السلطات، مهمَّتهم استقبال الطلبة الجدد وإرشادهم. تتابع مسيرها باحثةً عن غرفة محاضرتها الأولى، في برنامجٍ يبدو طموحًا لكثرة ما تُدرج فيه من مساقاتٍ بهدف الانضمام إليها.

حال دخولها، تصطفي مقعدًا في الصفّ الأوّل في القاعة الضخمة، وهو ما تفعله في سائر المحاضرات، اختيارٌ يُيسّر لها، بلا ريب، السمع جيّدًا. على مبعدة بضعة مقاعد منها قد يجلس طالبٌ آخر. في العادة، يتوزّع غالبيّة الطلبة على المقاعد المنتشرة بين الصفّ الثالث والصفّ قبل الأخير متكتّلين في خليط يموج بالنشاط، تزيده حدّةً الأضواءُ الباردة الموزّعة في سقف القاعة. أولئك الذين في الوسط خاصّة يتحدّثون بصوتٍ حيويٍّ وبصخب. الجميع يتحدّث بالعبريّة. هذه هي المرّة الأولى التي تحتجب عنها اللغة العربيّة بالكامل. من الجليّ كذلك أنّها الأصغر سنًّا مقارنةً ببقيّة الطلبة معها. جميعهم يكبرونها بثلاثة أعوامٍ على الأقل، هي أعوام تجنيدهم الإجباريّ في الجيش على الأرجح.

هنا تستوجب الإشارة إلى أن فارق العمر ليس بالعنصر الاستثنائي، فعقب الإفراج عنه، يبقى الطالب الأسير السابق الأكبر سنًّا بين جميع طلبة المدرسة على مدى عامَيْن أيضًا. بل كان الفارق سيتّسع لو لم يتخرّج مثلها بحلول الصيف. لأنّه، وفق وصف المعلّمين والمعلّمات المتكرّر له، مُواظبٌ منضبط، نبيهٌ ذو سلوكٍ جيّدٍ وخلقٍ حسن، ينجح في إنهاء دراسته الثانويّة على الرَّغم من الهوّة التي تحدثها فيها أعوام أسره الأربعة.

«تخرّج»، تردّد والدته لبضعة أشهرٍ على مسمع السائلين والسائلات. غير أنّه خلال هذه الأشهر، يستبقي المستقبلُ الطالبَ الخرّيجَ مكانه في المدرسة، حين يعود لمساعدة أمّه في محلّ الفلافل على غرار ما فعل سابقًا. الفارق هذه المرّة، أنّ جميع مَنْ عرف في المدرسة الثانويّة قبل اعتقاله قد تخرّج.

يبدأ الخريف ثقيلًا مع بداية السنة المدرسيَّة الجديدة التي كالمعهود تجلب جيلًا جديدًا من الطلبة معها. تنجلي سذاجة هؤلاء الطلاب على وجه التَّحديد في تلكُّئِهم معرفة ما يرغبون بأن يوضع في رغيف الفلافل الذي يطلبونه، فيما يحاول الطلبة القدامى، وقد فرغ صبرهم، دفعهم إلى الوراء. شاهدًا على ما يجري، يجعل الطالب الخرّيج صوته يتجاوز الطلبة القدامى المتدافعين، سائلًا من أُقصوا إلى الخلف حول ما يودُّون، ممهلًا إيَّاهم وقتًا أطول حتَّى يعربوا عن رغباتهم.

حين يتعلَّق الأمر بها، كطالبةٍ في الجامعة، ما من أحدٍ ليمهلها بعض الوقت. محاضرةً عقب الأخرى، يومًا تلو الآخر، يتَّضح بأنَّها تتخلّف عن تدوين الملاحظات خلال المحاضرات. لا تُدوِّن فوق أوراقها سوى كلماتٍ متفرّقةٍ وجملٍ لها بدايةٌ لكن بلا نهاية. فعلٌ ومفعولٌ به، فعل، فعلٌ وفاعل، اسمٌ أو مصطلحٌ وما إليه، تمتد بين جميعها فراغاتٌ كما لو أنّ الكلمات الناقصة أضاعت طريقها مؤقّتًا وستجده قريبًا فوق الورقة. قد تمتدّ هذه الفراغات على مدى أسطر، تتَّسع المساحة الشاغرة بينها باستمرار المحاضرة، لتصرف أيَّ علاقةٍ منطقيَّةٍ بين العبارات واحتمال أن تكون لها قيمةٌ معرفيَّة. تعثُّرها في تدوين الملاحظات، كما صمتها المتواصل، يشيان بأنَّها تفتقد ما يملك الحضور في القاعة من إلمامٍ باللغة العبريَّة، يُخوِّلهم كتابة صفحاتٍ ممَّا يقال، والمساهمة في النقاشات الحيويَّة في المحاضرات بأدنى جهد. إنَّها حتَّى لا تمتلك ما يُخوِّلها المشاركة بموجة الضحك المباغت التي تسود الغرفة عقب مقولةٍ ما. من الواضح أنَّ عدم فهمها لما يقال بالعبريَّة لا يقتصر على مضامين الموادّ الدراسيَّة، إنَّما يمتدّ لغالبيَّة ما يُقال من حولها. بعد ما يقارب أسبوعَيْن أو ثلاثة أسابيع من بدء الفصل، تنتقل للجلوس

بضعة صفوفٍ في الخلف، خطوةٌ تقيها احتمال أن يلاحظ المحاضِر أو المحاضِرة أوراقها شبه الفارغة في حال واصلت الجلوس في الصفّ الأوّل.

بإمكاننا تعزية ما يبين، مرَّةً بعد مرَّة، كصعوبةٍ لغويَّةٍ تجابهها الطالبة فور شروعها الدراسة في الجامعة، إلى فروقاتٍ في نوع العبريَّة التي تتقنها. لقد جرى تعليمها في المدرسة تصريفَ الأفعال وتحليلَ التوراةِ وكتبِ الأنبياء وأشعار كُتِبت في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مع ظهور محاولات إحياء اللغة العبريَّة. غير أنَّه في باحات الجامعة وقاعاتها لا يرد أيٌّ من العبارات التي جاءت في مثل هذه النصوص. كما أنَّ العبريَّة التي تبلغ مسمعها إبَّان المحاضرات، ليست فقط لا تمتُّ بِصِلةٍ للعبريَّة التي درستها لسنواتٍ طويلة، بل ولا للّكنة والسرعة اللتين عهدتهما. في هذه الحالة، حين يكون من الصعب التقاط ما يُلفَظ من كلمات، لا تعد تجدي أيضًا نصيحة معلِّم العبريَّة في المدرسة، في سبيل مساعدتهم اكتشاف معنى كلمةٍ جديدة يستعصي عليهم فهمها. وِفْق نصيحته، يمكن إيجاد معنى تلك الكلمة في كلمةٍ عربيَّةٍ تحاكيها، الأمر الذي يُخوّله تقارب اللغتَيْن، كونهما لغتَيْن ساميَّتَيْن انبثقتا عن مصدرٍ واحد هو الآراميَّة. لكن، وكما نعرف، للقاعدة هناك دائمًا استثناء، وهو ما لها أن تخبره فيما بعد. حاليًّا، تبدو تائهة. كذلك انتقالها للجلوس وسط القاعة لا يساعد، إن لم يجلب مشقَّاتٍ جديدة. الطلبة من حولها في مكانها الجديد لا يسكتون، معيقين إمكانيَّة سماع الشرح في المحاضرة بوضوح. ما إن تخلص من تدوين كلماتٍ نزيرة يظهر بأنَّها قادرةٌ على تمييزها، مع أنَّه بائن جدًّا أنَّها تغفل سرَّ العلاقة بينها، وترفع عينيها عن الورقة لتتابع أقوال المحاضِر أو المحاضِرة، يزوغ

نظرها شاردًا داخل فضاء القاعة الذي يصدح فيه جرف العبارات من كلّ صوب. يتمادى تيهها هذا إلى أن يكاد يشلُّها. تبيت بالكاد تأتي على حركةٍ حيث تجلس في مقعدها، حتَّى يباشر بقيَّة الطلبة بالتململ مع حلول نهاية المحاضرة، وتوضيب أوراقهم التي خطُّوا فوقها الكثير ممَّا قيل في الساعة ونصف الساعة السابقتين. تغادر مقعدها على إثرهم لكن بأوراقها شبه الفاضي التي تقلُّ الكلمات فوقها، ويتّسع عدد الأسطر بينها. يفقد الفعل الفاعل، كما يغدو المفعول به وحيدًا. مؤخَّرًا تظهر برفقة هذه الكلمات علامات تنقيطٍ معيَّنة، كالثلاث نقاط، وعلامة الاستفهام وعلامة التعجُّب. قد تمدُّ الطالبة خطوطًا بين النقاط، تصعد إلى الأعلى لترسم مثلّثًا، فمُعيّنًا، تغلق علامة الاستفهام لتصبح منطادًا أو عينًا تدمع، وتُضخِّم علامة التعجُّب بحيث تتحوَّل إلى أسطوانة، لها كذلك أن تكون مركبة فضاء، تدهن سطحها بالحبر. ثمَّ أكثر فأكثر، تنتشر فوق الأوراق أشكالٌ هندسيَّةٌ أخرى مخطوطةٌ بغير دقَّةٍ كبيرة، غايتها غير واضحة، على حساب الكلمات. هي منذ أيَّامٍ لا تكتب كلمة، لا تنبس بكلمة.

عند النظر إلى الطالب الخرّيج، لا يبدو بأنَّ تمضيته أيَّامًا دون التفوُّه بكلمةٍ بالأمر النادر. تبرِّر ذلك جزئيًّا متطلّبات عمله في محلّ الفلافل التي تقضي بضرورة الاستماع إلى رغبات الطلبة لا الحديث معهم. حين لا يعمل في المحلّ، يتواجد غالبيَّة الوقت في غرفته مغلقًا الباب على نفسه. لم يكن الوضع مختلفًا جدًّا خلال فترة دراسته الثانويَّة، حيث وجده المعلّمون والمعلّمات سَكوتًا أكثر من غيره، دون اعتبار ذلك مشكلة. عامَّة، لا يُتوقَّع من جميع الطلبة المشاركة أو الحديث في الحصص، وإلَّا ستعمُّ الفوضى. هم بضعة طلَّابٍ لا غير الذين يستلمون

دفَّة الكلام. لكن عنده، ما يدشِّن تقتيره الشديد في الحديث فعليًّا هو تجربة اعتقاله. وضعه رهن الحبس الانفراديِّ لمدَّة ثلاثة أسابيع تقريبًا، يمرِّنه على ممارسة الصمت كما لا يمكن لأيِّ تجربةٍ أخرى أن تفعل. ثمَّ إنَّ أحد أشكال الصمود في التحقيق وعدم الاعتراف على الرغم من أساليب التعذيب المتعدِّدة، هو التزام الصمت. في النهاية، ما يوقع بالطالب أثناء فترة إيقافه، مُبطِلًا جهوده الجبَّارة في عدم الانكسار أثناء فترة التحقيق، هو هجره في إحدى اللحظات هذا الصمت وائتمانه لعصفور.

قبل ظهور العصفور، أصنافٌ أخرى من الكائنات تبينُ لتشاركه زنزانة عزله الانفراديّ. من شقٍّ ضيِّقٍ قرب المغسلة، ينبثق النمل في أسراب تدبي بلا توقُّفٍ فوق إسمنت الأرضيَّة والجدران الخشنة. ثمَّ من شقوقٍ لا يمكنه تبيانها، لكن يمكن حدسها، تنطلق الصراصير وأحيانًا الجرذان، وتباشر بالدوران والعدو في حيِّز الزنزانة الضيِّق حوله وفوق جسمه. عندها يسحب البطَّانية نتنة الرائحة ليتغطَّى بها حتَّى قمَّة رأسه. البطَّانية، عدا عن أنَّها تحبس الأنفاس، مليئةٌ بالبقّ الذي ينتهز الفرصة للانقضاض عليه وامتصاص دمائه. غير أنَّ استلقاؤه فوق الأرضيَّة مباشرة يجعله يتفادى البقَّ في البرش. ثمَّ إنَّ برودة الإسمنت التي لا تتوانى عن الانتشار في الجسم حتَّى تصل العظام، بمقدورها أن تُخفِّف قليلًا من شدَّة وقع لسعات البقّ عليه. كما أنَّ البطَّانيَّة التي يتلفَّع بها تريح بصره من الضوء الحادّ دائم الانتشار في الزنزانة. عمليًّا، كلّ ما في الزنزانة، وليس ضيقها الخانق فحسب، يضلع في حبسه ومعاقبته. حتَّى الوقت يحبسه خارجه وهو يمرُّ أبطأ ممَّا يمكن الظنّ. لا يعود بالإمكان معرفة إن هو ليلٌ أم نهارٌ في ظلّ الإنارة الدائمة. لا يعود الجسم يتقن متى عليه

أن ينام وأن يصحو، ولا يمكنه حساب طول المدَّة التي دام فيها نومه، ولا أيَّ وجبةٍ هي التي يتناول مع تشابه ما يُقدَّم من وجبات، ولا متى يُخرج. كذلك لا تعود هناك حاجةٌ إلى وجود سببٍ وجيهٍ كي يُشارف جسمه على التهاوي كلَّما طرأ تغييرٌ ولو بسيطٌ حوله. ينتشر النخز في أطرافه، فظهره، ثمّ وجهه، مُحاكيًا دبيب النّمل السارح فوق الجلد. إن لم يكن يُغطّي رأسه بالبطَّانيَّة في تلك اللحظة، يطبق جفنيه لتغمر العتمة عينيه اللتين فقدتا لمعان اليقظة بعد أوَّل يومٍ على اعتقاله. لا ينفكُّ دبيب النمل، والضوء الأبيض الحادُّ الدائم، والنوم المتقطّع، وجلسات التحقيق، تُنهِك جميعًا عيْنَي الطالب الموقوف. يبقيهما أحيانًا مغلقتين ما يحدو بالسواد أن يستفرد به. قد ينام. وقد يستيقظ من جديدٍ على جلبة السجَّانين وهم يقتحمون الزنزانة لاصطحابه مجدَّدًا إلى التحقيق لإجراء تفتيش، أو لا لشيء. أو قد ينقضُّ الصحو عليه لا لسبب. يكون الضوء الحادُّ والصمت الهائل فقط بالانتظار. ربّما تعود عيناه عندها لمتابعة أسراب النمل التي تواصل دبيبها من الشقّ قرب المغسلة وإليه، أو يتشبَّث بصره بنملةٍ واحدة تنفصل عن السرب، حرّيّتها في الحركة تبدو ليست بالجَلِفة. هناك دائمًا نملةٌ ما تائهة، تجول متردِّدةً في أنحاء الزنزانة، يقودها ضيق المكان في نهاية المطاف نحوه. تتسلَّق قدمه أو ذراعه، تدخل بين ثنايا ملابسه، تختفي. تعود وتظهر وهي تدبي على مقربةٍ منه، تنحدر بين نتوءات الجدران الخشنة أو الأرضيَّة الإسمنتيَّة. تختفي. تظهر. تعاود الاختفاء. ثمَّ ترجع لتدبي فوقه بسكون. أو هي نملةٌ أخرى. هو في الغالب لن يكتشف يومًا بأنَّه بينما لم تنجُ الديناصورات بضوضائها وكامل جبروتها من كوارث الأرض، وانتهى بها الأمر إلى الانقراض، تمكَّن النمل من مجابهتها، هذه الكوارث، والنجاة.

لا يبرح الوقت ربيعًا حين تكون أسراب النمل قد قطعت مئات الأمتار دابيةً في أنحاء الزنزانة، ويعلمونه بانتهاء التحقيق معه الذي يصمد فيه بالتزامه الصمت. يقوم السجّانون بنقله من زنزانة العزل الانفراديّ إلى زنزانةٍ عاديّةٍ حتّى الانتهاء من إتمام جميع الإجراءات في سبيل إطلاق سراحه، وفق ما يفصحون. الزنزانة العاديّة أوسع، فيها أسرّةٌ حديديّةٌ ومرحاض، قذارة مقعده شديدة، إلّا أنَّ الرائحة المنبعثة منه أقلُّ نتانةً من تلك التي تنبعث من الحفرة المخصَّصة لقضاء الحاجة في زنزانة العزل الانفراديّ. يُعشِّش كذلك في إحدى الزوايا عصفور تضع زقزقته حدًّا للصمت الرهيب الذي أخذ يحيق بالطالب الموقوف على مدى الأيّام الطويلة الماضية. وشيئًا فشيئًا يأنس رفقة العصفور، بحيث لا يعد يُعْرِض عن الكلام أكثر، إلى أن يقتحم السجّانون الزنزانة ذات عصر ويسحبونه إلى التحقيق مجدَّدًا.

الطالبة تفكُّ صمتها في ظروفٍ مغايرةٍ تمامًا. بعد مضيّ أسابيع معدودةٍ على انضمامها للجامعة، يسودها عدم الفهم وعدم التفاعل مع ما يقال في غالبيّة المحاضرات ومع الحاضرين فيها، تبادر إلى فعل شيءٍ ما إزاء الأمر. في نهاية إحدى المحاضرات، تدنو من مجموعة طلبة تتلكّأ في مغادرة القاعة، إبّان انشغالها بنقاشٍ بصدد نقطةٍ ما يبدو بأنّها ذُكِرت أثناء الدرس. تلمح الطالبة المجموعة ذاتها في محاضراتٍ لمساقاتٍ إجباريّةٍ أخرى. حالما تبيت قريبةً منها، تسأل الطلبة بصوتٍ خفيضٍ متوجّسٍ إن كان بإمكانها استعارة دفاتر ملاحظات أحدهم وتصويرها لأنَّ سرعتها في التدوين بطيئة. يشير أقربهم إليها نحو طالبٍ بعينه يقف مع المجموعة، قائلًا بصوتٍ واثقٍ إنَّ تدوينه لِما يردُ في المحاضرات هو الأفضل. تتّجه عندها لسؤال ذلك الطالب إن كان بمقدورها تصوير دفتر

ملاحظاته، بالإضافة إلى ملخَّصاته للمحاضرات الأخرى التي تلحظه يتردَّد إليها. يستهلُّ طلبها سلسلةً من الأسئلة والأجوبة المقتضبة بشأن ما تدرس وما يدرسون. باقتراب الحديث إلى نهايته يسألها أحدهم عن طبيعة اللكنة في عبريَّتها. تجيب بأنَّها لكنةٌ عربيَّة. يسود الصمت للحظةٍ قصيرة، يقطعه ذلك الطالب قائلًا إنَّه بالتأكيد، لا توجد مشكلة.

تتفرَّق المجموعة. يتركون القاعة طالبًا تلو الآخر، مودِّعين بعضهم بعضًا بعباراتٍ يتخلَّلها الضحك، متجاهلينها ربَّما بغير قصد. تكون هي الأخيرة التي تغادر، في يدها دفتر تلخيص أحدهم، يُمنح إليها بغير حماس. عاديّ، لا توجد مشكلة.

تتَّجه إلى إحدى النقاط المنتشرة في أنحاء الجامعة والمخصَّصة لتصوير الأوراق والمستندات. على الرغم من توفُّر الكثير من الآلات لهذا الغرض، قلَّما تتمّ عمليَّة التصوير دون اضطرار الواحد أو الواحدة إلى الوقوف لمدة ربع ساعةٍ على الأقلّ بانتظار أن تتوفَّر واحدة. خلال فترة الامتحانات قد تمتدّ هذه المدَّة لأكثر من ساعةٍ ونصف الساعة. قدرٌ من الوقت الذي تستغرقه العمليَّة ويعتمد عليه طول الانتظار، يعود لأسبابٍ لا تتعلق دائمًا بعدد الأوراق أو سرعة الآلة. إنَّه ينجم بشكلٍ رئيسيٍّ عن الارتباك الذي تترتَّب عليه المهمَّة بالنسبة للطلبة، بالتحديد للجدد من بينهم ممَّن يقومون بها للمرَّة الأولى. ترفع الطالبة غطاء آلة التصوير شبيهًا لما شاهدت بقيَّة الطلاب يفعلون إبَّان وقوفها في الصف. فوق سطحها الزجاجيّ تتوزَّع أرقامٌ وخطوطٌ تبقى غامضة، كما هو الحال مع غالبيَّة الأزرار في المقدّمة. يُترجم هذا الغموض في عدد الأوراق التي تهدرها حتّى تفرغ من تصوير دفتر الملاحظات المستعار. مع أنَّه الضجيج ذاته يصدر في كلِّ مرة تضغط زرّ أمر التصوير، مرَّةً تخرج الورقة

كبيرة ومرَّةً أخرى يظهر ما تصوَّر على الورقة المناسبة لكن بخطٍّ صغيرٍ جدًّا. مرَّةً يظهر نصف الصفحة المصوَّرة فقط وفي النصف الثاني تظهر نهاية كفِّها ونصف ذراعها، ومرَّةً تصدر صورتَيْن للصفحة ذاتها، وهكذا إلى أن تنجح الطالبة بتصوير كلّ ما تحتاج إليه.

في بداية إحدى المحاضرات القادمة تعيد الدفتر إلى صاحبه ما إن تلمحه وسط القاعة. تقدِّمه إليه، شاكرةً إيَّاه بدماثة. يستلم الطالب الدفتر رادًّا عليها على عجلةٍ بالعفو، قبل أن يدور بجسمه ليباشر الحديث مع مجموعةٍ صغيرةٍ من الطلبة قريبةٍ منه. لا تطلب منه تصوير بقيَّة دفاتر ملاحظاته في مواضيعِ أخرى تباعًا لما أبدت من رغبةٍ المرَّة الماضية.

تنقضي فترةٌ ليست بالطويلة عندما لا يعد خفيًّا بأنّ التجاهل يشرع بمحاصرة الطالبة من كلِّ صوبٍ أثناء جلوسها وسط القاعة بين حشد الطلاب. يزحف نحوها، يتسلَّق الكرسيّ، فالطاولة حتَّى يغزو جسمها، مرسلًا فيه رعشات الاضطراب، ممَّا يبعث بها وأخيرًا إلى الجلوس في الصفِّ الأخير في قاعات الدراسة، حيث لا يجلس أحدٌ سواها.

ثمَّ بحلول الاستراحات بين المحاضرات، تنطلق من مكانها بغير توانٍ باتِّجاه أقرب مصعد وتطلبه. يستجيب المصعد إلى طلبها هذا في أغلب المرَّات قبل انضمام أحدٍ إليها. إلَّا أنَّه حتَّى يفعل، تطوّقها أصوات أحاديث المئات من الطلبة المتواجدين في فضاء الحرم الرحب المغلق أو المارِّين والمارَّات عبره. هرجٌ عالٍ تتدافع فيه الكلمات بالعبريَّة، أحيانًا بلكناتٍ مختلفة، لِمامًا ما ترافقها كلماتٌ بالعربيَّة. هي لحظاتٌ فقط وستخفت كلُّ هذه الجلبة ويختفي انعكاس وجهها المشوَّه من على دفَّتَيْ باب المصعد الموصد حالما تنفتحان وتخطو داخله. تضغط فوق الرقم

ناقص اثنين أو ناقص ثلاثة، ليعقبه ضغطٌ خفيفٌ رقيقٌ فوق القلب، ينتهي بتوقُّف المصعد. تنفتح دفَّتا بابه من جديد، كي تخرج الطالبةُ إلى عالم الجامعة السفليّ. أرضٌ رماديَّةٌ صلبةٌ قوامها الإسمنت، تنتشر في أنحائها عشرات السيَّارات الواقفة، يُذكي فضاءها فضلات رائحة دخان المحرِّكات المطفأة. تخلص إلى اكتشاف هذا المكان الوديع المعزول عقب الضغط خطأً على أحد الأرقام الواردة في لوحة المفاتيح داخل المصعد.

لم تكن لتبتعد كثيرًا بين السيَّارات الواقفة. تعبر صفَّين أو ثلاثة صفوف، تدور عند أحدها إلى جهة اليسار، مبتعدةً عن الجدار إلى جهة اليمين. تجلس على الأرضيَّة الصلبة ساندةً ظهرها على عجلة إحدى السيَّارات، تبدو أقلّ اتّساخًا من غيرها.

الموقف ساكنٌ عمومًا، قلَّما يطرأ حدثٌ يعكِّر صفو أجوائه، خلا هديرِ موقوتٍ يندفع لدقائق معدودةٍ من الفتحات المخصَّصة للتهوية. يعقب انطلاق الهدير كلّ مرَّة تسارعٌ في حركة طيران ذرَّات الغبار في الهواء التي يشرِّحها الضوء الأبيض الشاحب المنبعث من الأنوار المنتشرة في السقف. تقاوم ذرَّات الغبار تلك برِفق قوانين الجاذبيَّة في تحليقها المتعرِّج من اليمين إلى اليسار ثمَّ صعودًا، فالهبوط قليلًا والصعود ثانية. في أوقاتٍ أخرى، قد ينبثق ضجيجٌ خافتٌ قصير، مصدره تقلُّص الحديد أو تمدُّده في مُحرِّك سيَّارةٍ ما. هي، متَّكِئةً على إطار السيارة، تبدأ بتمضية الوقت ساهمةً حتَّى تصير خمس دقائق قبل انتهاء الاستراحة وحلول موعد المحاضرة التالية. من المفترض أن تستمرَّ دراستها الجامعيَّة لأربعة أعوام.

عودةً إليه، عند إعادته إلى غرفة التحقيق، يعاود الضابط المحقِّق سرد كيف عمد برفقة اثنين آخرين إلى خطِّ شعاراتٍ مُعاديةٍ للدولة

العام المنصرم، في ليلة الخامس عشر من كانون الأوّل من العام 1987، قبل أن يلوذوا بالفرار، كما خبَّره العصفور. الاعتراف مرفقٌ بتسجيلٍ صوتيّ. يشغِّل المحقِّق التسجيل الذي يحيل صوت الطالب الموقوف إلى طفوليٍّ أكثر ممَّا هو عليه في الواقع. لكنّ هذه التحوُّلات في الصوت متوقَّعةٌ تمامًا. فعدا عن صدوره عبر تسجيلٍ آليّ، ارتطامه بالجدران الصلبة للزنزانة وارتداده في أنحائها، يفاقم من حدَّته. كما أنَّ الصدى يلفُّه بسبب عدم امتصاصه. هناك انعدامٌ شبه تامٍّ للأثاث الناعم داخل الزنزانة، علاوة على غياب وجود آخرين سوى عصفور.

بعد أن يوقعه العصفور في الفخّ، يبدو للطالب الموقوف أنَّ لا خيار أمامه إلَّا الاعتراف بالتهم الموجَّهة إليه. يسوق الاعتراف إلى إدانته والحكم عليه بالسجن لمدَّة أربعة أعوام. إنَّه حكمٌ تهدف السلطات بشكلٍ رئيسيٍّ عبر فرضه إلى كبح جماح محاولات الثوران ضدَّها، ووأد أيِّ احتمالاتٍ للإتيان على أفعالٍ مُشابهة في المستقبل. بتعبير آخر، هو حكمٌ يُنتَظَر منه أن يكون درسًا لجميع مَن في المنطقة، أو على الأقلّ الغالبيَّة، وليس له فقط.

بالرغم من مرور أكثر من عامين على إطلاق سراحه، لا يزال كثيرًا ما ينأى بنفسه عن المشاركة بشتَّى ما يدور حوله. لا يبادر بالحديث مع أحدٍ لا في المدرسة ولا خارجها، باستثناء ما تُمليه عليه معاونته والدته في محلّ الفلافل.

الطالبة بشكلٍ أو بآخر تصير لا تختلف عنه. تواصل أيَّامها بالمضيّ عاجزةً عن المشاركة بشتَّى ما يدور حولها في الجامعة. تجلس في الصفّ الأخير في قاعات الدراسة إن لم تتواجد في موقف السيَّارات، لا تكتب كلمة، لا تنبس بكلمة، ذلك باستثناء حالةٍ واحدة.

ببدء محاضرات الرياضيَّات، حالما تدخل القاعة، تتَّجه للجلوس ليس في المقاعد الخلفيَّة وحيدة، إنَّما في تلك التي في الوسط، بانتظار أن تتشكَّل الأرقام في مُعادلاتٍ ومسائل فوق اللوح الأخضر الداكن. من المعلوم أنَّ الرياضيَّات لا تستوجب أيَّ لغةٍ لفهمها سواها. بناءً عليه، لا يمكن لأيِّ عدم تمكُّنٍ لغويٍّ أو لأيِّ لكنةٍ مهما كان ثقلها أن يعيقا هذا. تنطلق سبَّابة الطالبة قاصَّةً الهواء حالما ينتهي المحاضر من خطِّ مسألةٍ رياضيَّةٍ ما وقبل أن يدير ظهره نحو الطلبة لينطق بها، كي تقدِّم الإجابة. كلماتٌ قليلةٌ بالعبريَّة تباشر بالفرار من فمها. بانتهاء المحاضرة، تتجه مسرعةً كالمعتاد نحو مصعدٍ قريبٍ من القاعة، وتطلبه كي يحملها إلى موقف السيَّارات.

في هذه الغضون، لا يكفّ الخريف عن المضي مُتثاقلًا، فيما يتزايد ما يقع على عاتق الطالب الخرِّيج من مسؤوليَّاتٍ في المحلّ، حتَّى يصبح تدريجيًّا يرافق والدته منذ فتحه وحتَّى إغلاقه. أوّل المهامّ المطلوبة منه، هي غسل الخضار وتقطيعها. في الصباح الباكر تجمع والدته ما ينبت من بينها حسب الموسم في حاكورة البيت الصغيرة. بالأساس، البصل والبندورة، البقدونس والبطاطا، يحملها إلى المحلّ مع باقي ما يشتري أسبوعيًا من خضارٍ من السوق، كالخيار والخس. يضعها معًا في وعاءٍ كبير، يرشّها بالخلّ، ثمَّ يغمرها بالماء البارد. يتركها منقوعةً لعدَّة دقائق قبل لَحّها. إن التصق بها الكثير من التراب أو الرمل، تترك الخضار المغسولة الماء وراءها في الوعاء بنيًّا. بعدها يقطّعها لتحضير السلطات وتجهيزًا لقلي البطاطا. كما عليه تغيير زيت القلي كلَّ بضعة أيام. يقوم بذلك حين يلزم الأمر أوَّل ما يصل المحلَّ. أمام شتَّى هذه المهامّ، تبقى مهمَّة عجن الفلافل من اختصاص والدته، شبه سرِّيَّة.

مع أنَّ المكوِّنات معروفةٌ وحتّى المقادير، يدخل في عمليَّة تحضيرها العجينة عنصرٌ خفيّ، يشهد ضوء الفجر وحده عليه حين تفعل. كونها لا تعتمد البتَّة على معدَّات لقياسها، تتطلَّب معرفة كمّيَّة المقادير اللازمة التي عليها وضعها في الخلطة نظرةً حادَّةً ومتنبِّهة، تجعلها تبدو صارمة. النظرة الصارمة هذه التي تلاقي بها والدته ضوء الفجر، لا تتبدَّل حتَّى في الأوقات التي يقفان فيها وسط المحلّ لا يفعلان شيئًا. بعد فراغهما من تحضير جميع السلَطات وقلي البطاطا، ينصرفان إلى انتظار انطلاق رنين جرس الاستراحة الكبيرة. بصره لا ينفكُّ عن العودة بين فينةٍ وأخرى للتحديق للحظةٍ عابرةٍ في تلك النظرة التي تستوطن عينيها، وتبدو بأنَّها تزداد صرامةً منذ تخرُّجِه. ثمَّ تشتدُّ حدَّتها خلال استراحة الغداء، عندما تقف في منتصف المحلّ تكوِّر الفلافل في حبَّاتٍ ترميها في الزيت الحارّ، وحين تتتبَّع وجوه الطلبة لتقدِّم لهم أرغفة الفلافل. إنَّها نظرةٌ تبعث لا محالة على اليأس.

في الجامعة ليست النظرات الصارمة بالضبط، هي التي تبعث على اليأس، إنَّما من جديدٍ اللغة. تؤدِّي إجابات الطالبة بالعبريَّة إثر نهوضها فوق لسانها في محاضرات الرياضيَّات، غير ملتفتةٍ إلى هيمنة الصمت الذي يحاصرها في العادة، إلى سؤال أحد الطلبة ذات ظهيرةٍ في نهاية الحصَّة، وهي في طريق خروجها من القاعة، عن مصدر اللكنة في عبريَّتها. تجيب بأنَّها العربيَّة. تُعقِّب طالبةٌ حاضرةٌ ثانية، تجمع شعرها في ذيل فرس، بعبارةٍ عن العرب تَرِد فيها كلمة لم تُصادِفها من قبل. الكلمة العبريَّة تذكِّر بكلمةٍ مُعيَّنة بالعربيَّة. هناك حرفٌ واحدٌ فقط يختلف بين الكلمتين. بل إنَّ رَنينَه في الكلمة العبريَّة يشابه الذي في الكلمة العربيَّة، بحيث لا بدّ أنّ الأولى تعني الثانية، تقديرٌ يَتماشى مع المبدإ الذي

يُنبّه إليه معلّم العبريّة. نبلاء. تبتسم لصاحبة التعليق، بأنَّ العرب نبلاء، بامتنان. يتفرَّق الطلبة من الحاضرين والحاضرات، مُبتعدين عن باب القاعة. تبقى طالبةٌ أخرى فقط، تلحق بها، وهي في طريقها إلى المصعد. دائمًا ما تجلس هذه الطالبة على مقربةٍ منها، يفصل بينهما بضعة كراسٍ لا غير، على استعدادٍ للإجابة على المعادلات الرياضيَّة بعد قليلٍ من التردُّد. تتركها هي أحيانًا لتقدِّم الإجابة على بعض المعادلات، إمَّا بدافع الإحساس بالعدل، وإمَّا بالملل، ليس من السهل الحدس. تسألها هذه الطالبة الأخرى بعبريَّةٍ تحمل لكنة، حاليًّا لا يُعرف مصدرها، كيف لها أن تبتسم على ما قيل لها للتوّ، بأنَّ العرب نذلاء. حقًّا؟

المعضلة أنَّ الوقت يَبيت متأخِّرًا وقد فرَّ نحو الماضي، حائلًا دون إمكانيَّة العودة إليه فإلى ابتسامتها الممتنَّة تلك لمحوها. عوضًا عن هذا، يمنحها الوقت الحاضر فرصة تأمُّلِ البعد بين النبالة والنذالة الذي تتربَّص فيه البلاهة، لتسخر منها على ما فقدت عبريَّتُها من بلاغة. لكن عاجلًا أم آجلًا، تؤجّج هذه الحادثة التي تأتي تتويجًا لأسابيع من العزلة، من حدَّة اضطراب الطالبة، لدرجةٍ يبيت معها يفتك بها. تقصر أنفاسها في كلِّ مرَّةٍ تلج أيًّا من قاعات الدراسة، تتسارع دقَّات قلبها وتنتشر موجات الحرارة في جسمها، مرسلةً بطبقةٍ خفيفةٍ من العرق إلى أنفها وظهرها. يظهر الإنهاك على وجهها واضحًا، فيما هي تتردَّد في مسيرها نحو الصفِّ الأخير، ناقلةً بصرها بقلقٍ بين وجوه الطلبة. لا يفكُّ هذا القلق عن نظراتها حتَّى انتهاء المحاضرة.

ما برح الخريف دافئًا. يستغِّله بعض الطلبة لقضاء ما يسنح لهم من وقتٍ خلال الاستراحات بين المحاضرات في أنحاء حديقة الجامعة. منهم من يجلس فوق العشب الأخضر النضر يقرأ، يتناول

الغداء، أو يقيل عليه، منفردًا أو في جماعاتٍ صغيرة. تتعلّق أنظار الطالبة بهذا المشهد الاعتياديّ بالنسبة لمن تهيئُ لهم الظروف المشاركة به، وهي في طريقها وحيدةً إلى المصعد كي ينقلها إلى موقف السيّارات أو منه إلى قاعات المحاضرات. في عصر يومٍ كهذا، قرب أحد الأبواب الزجاجيّة ذات الإطار الحديديّ البنّيّ، المشرّعة نحو الحديقة، تلمحها. تظهر الحرباءُ بعد غيابٍ طويل. على الفور تتوقّف الطالبة في مكانها، مسحةٌ من الجزع تغلب نظراتها، متابعةً الحرباء وهي تهتزُّ وتتأرجح في حركتها البطيئة، تتقدّم خطوتين إلى الأمام، ترجع إبّانها خطوةً إلى الخلف، قبل أن ينطلق لسانها بسرعة السهم النشّاب وهي ترمقها، ثمّ تشرع بالاختفاء مُتحوّلةً من الأخضر إلى البنّيّ.

بَيْد أنَّ الحرباء لا تختفي فعلًا، إنّما تعاود الظهور في محيط الطالبة، زاحفةً باتّجاهها، ساحبةً وراءها ظلالها المهتزّة، كي تمثل أمامها في كلّ مرّة تضّطر فيها الإجابة مجددًّا على سؤالٍ عابرٍ عن مصدر اللكنة التي تَسكُن عبريَّتها. أميركيَّة. يأتي الردُّ على لسان الحرباء، مدحرِجةً الراء. يبدو بأنَّ الراء التي لا تتوقّف عن التدحرج على مرّ السنين تجد فريسة جديدة لها وأخيرًا بمعونة الحرباء. إنَّها الآن تطوّق الطالبة بإحكام كلّما تحدَّثت العبريَّة. فيما بعد، يدفع لفظ الراء هذا بطلبةٍ آخرين حين يتساءلون عن مصدر لكنة الطالبة متى يبادرون بالحديث إليها، لأن يوافقوا الحرباء مرَّةً تلو المرَّة بأنَّها أميركيَّة. بل مِنهم مَن يأتي على سؤال الطالبة بعفويَّةٍ خالصةٍ حين تجيب على استفسار يطرحه أحدهم عليها بالعبريَّة، والراء المتدحرجة لا تكفُّ عن التردّد من حولها، إن كانت من أصولٍ أميركيَّة. صحيح. ترمي الحرباء بردِّها هذا الذي يخفق صداه على مسامع الحاضرين والحاضرات جليًّا. قد تتمادى الحرباء أكثر في

مكتبة
t.me/soratnnqraa

المستقبل، حين تردف ردَّها برواية تفاصيل نشأة الطالبة في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، ثمَّ قدومها مع والديها إلى البلاد قبل بضع سنواتٍ للعيش في مُستعمرةٍ صغيرة، يربُّون فيها الماعز الأبيض. في هذه الأثناء، ترقب الطالبةُ مُطرقةً الحرباءَ وما تُحيك عنها من سِيَرٍ بهَوانٍ لا يفنى. عندها تعاود الأخيرة رمقها بعينيها اللتين يُعيد بريقهما التذكير بإمكانيَّة انزياح الكلمات بين شقوق اللغات على شاكلة النبلاء والنذلاء.

وهكذا، بسيرها بانقيادٍ تامٍّ خلف تمويهات الحرباء، يشرع حديث الطالبة في رحاب الجامعة باستبعاد اللغة العربيَّة كلِّيًّا، مُجبِرًا إيَّاها على الانسحاب نحو الصمت، فالاختفاء. لقد أفقدتها الحوارات المتواصلة أيَّ دورٍ لها. على كلّ، ليس من أملٍ هناك في أن يلحظ أحدهم اختفاءها هذا، ومن بعد، صدّ الضياع الذي يتربَّص بها، ثمَّ وَهَنَها التدريجيّ، عندما لا تعود تصدر عن الطالبة أيُّ كلماتٍ بالعربيَّة. إنَّها الآن تتبدَّد في أرجاء فمها قبل أن تفتحه.

لكنَّها لا تستسلم. قبيل الالتحاق بأيٍّ من مُحاضراتها، تعاود العربيَّة محاولة النهوض على لسان الطالبة لتروي غير ذلك. ومع أنَّها تفشل، فشلها المتتالي ليس تامًّا إلى حدٍّ ما. تتمكَّن مع الوقت من التحتيم على الطالبة القدوم متأخِّرةً بضع دقائق عن موعد بدء المحاضرات ومغادرتها قبل انتهائها بدقائق. على الأقلّ، يحول هذا التأخير دون إمكانيَّة مواصلة الحديث مع مُتلقِّين ومُتلقِّياتٍ ما اختلقت الحرباء أمامهم من سيرٍ ذاتيَّة، كما ولإمكانيَّة تبلور محادثةٍ تلقائيَّةٍ جديدةٍ معهم أو مع طلبةٍ آخرين، تضطرُّ فيها الحرباء إلى الظهور ثانيةً وقيادة دفَّة الكلام.

بمرور الأيام يطول تأخير الطالبة عن التحاقها بمحاضرتها وتبدّر مغادرتها لها، حتّى لا تعود هناك حاجة لأن تلتحق بأيٍّ منها، ذلك سوى محاضرات الرياضيّات. عوضًا عن التوجُّه لقاعات الدراسة، تمضي جلّ وقتها في غرفة سكنها الجامعيّ، أو في الجامعة، في الطابق الثاني أو الثالث تحت الأرض في موقف السيّارات. إن لم تكن ساهمة، تُترجم موادَّ القراءة المطلوبة للمساقات من العبريَّة إلى العربيَّة، حاشرةً ما تخطُّ من كلماتٍ في الفراغ الأبيض الصغير المتبقّي بين الأسطر المطبوعة. عمليَّة الترجمة هذه تجبر العربيَّة لأن تضمر كتابةً أيضًا. يكاد كبر ما تكتب من كلمات يضاهي حجم النمل. كمٌّ هائلٌ من أسراب النمل تدبي فوق الصفحات، غاديةً آيبةً، يعارك بعضها بعضًا. لاحقًا، يبيت خطُّ الطالبة بالعربيَّة صغيرًا جدًّا وبشعًا عندما تكتب بالعربيَّة عمومًا وليس فقط حين تترجم إليها من العبريَّة قراءاتها المطلوبة.

خلال فترة سجنه، حين يصير الأسرى في القسم على درايةٍ بأنَّ خطَّه جميلٌ واضح، تُحال إلى الطالب الأسير مهمَّة كتابة الرسائل. كتابتها هي الأخرى تتطلَّب خطًّا صغيرًا جدًّا تبلغ فيه الكلمة حجم النملة. كونها معدَّةً للتهريب إلى خارج السجن، يخطُّها على أوراق لفّ السجائر الرقيقة متى توفَّرت، أو غيرها من قُصَاصات الورق، فيما يتلوها عليه الأسير المعنيّ. عقب الفراغ من كتابتها، يجري ثني القصاصة في طيَّاتٍ دقيقةٍ جدًّا، ثمَّ تغليفها بالنايلون وحرق جانبيها لتصبح أشبه بحبَّة الدواء يبتلعها الأسير المنتظر الإفراج عنه في القريب العاجل. يكتب الطالب الأسير من خمس رسائل إلى ثمانٍ دفعةً واحدةً في مثل هذه الحالات. إنَّها، عمليًا، الفرصة الوحيدة المتاحة لكلمات الأسرى المكتوبة أن تخرج دون أن تخضع لرقابة إدارة السجون التي تتعامل

مع هذه الرسائل المهرَّبة، على الرغم من أنَّ جلَّها موجَّهٌ إلى زوجات الأسرى أو أمَّهاتهم، باعتبارها محاولةً بالغة الخطورة لزعزعة أمن الدولة.

سبل التواصل اللغويِّ المسموح بها للأسرى في السجون الإسرائيلية تقتصر على ما يمكن إخضاعه لرقابة إداراتها، متاحةٌ إمَّا في هيئة مُحادثاتٍ تجري على جانبي الشبَّاك الفاصل بين الأسير وزائره، بالأصح زائرته كما هو الحال في أغلب الأوقات، وإمَّا فيما يقدَّم إلى الأسرى عبر الأثير بواسطة مكبِّرات الصوت في الأقسام. هي مقتطفاتٌ من الراديو التابع لسلطات البثِّ الحكوميَّة، غالبيَّتها مختاراتٌ من الأخبار الرسميَّة، وفي أحيانٍ قليلةٍ أخرى مُنوَّعاتٌ غنائيَّة، قد تتخلَّلها عبارات إهداءٍ موجزة، نادرًا ما تكون موجَّهةً لأحدٍ في الأسر. هيئة الإذاعة لا تسمح بإدراج أيِّ نوعٍ من هذه الإهداءات للمعتقلين السياسيِّين. لكن حين ينجح أحد الأحبَّة في الخارج بتضليل العاملين في هيئة الإذاعة وإهداء أغنيةٍ ما بشكلٍ لغويٍّ مُرمَّزٍ إلى أحد الأسرى، ينصت جميع من في السجن إلى كلماتها بتَنَبُّهٍ شديد، كما لو أنَّها موجَّهةٌ لكلِّ واحدٍ من بينهم على حدة. وبعيدًا عن مضمون ما يدرك مسامعهم، يوفِّر لهم المذياع على نحوٍ ما إمكانيَّة الوصول إلى مكان هم محرومون من التواجد فيه لأعوامٍ عديدةٍ وربَّما لعقود. عبره، بمقدرتهم الإنصات إلى جانبٍ من الأصوات المسموعة في الخارج، وهو أمرٌ ليس لأيٍّ من حواسِّهم الأخرى أن تتمتَّع به. لا يمكنهم لمس أيٍّ من ذويهم أثناء الزيارات التي تجري على جانبي الشبك العازل. لا يمكنهم النظر إلى أبعد ممَّا تُتيحه الفتحات الضيِّقة في الأقسام من حيِّز السماء المحاصر، أو جزئها البائن عبر الشبك الذي يُغطِّي ساحة السجن الصغيرة. لا يمكنهم أن يشمُّوا أو يذوقوا غير ما يقدَّم لهم من طعام هو أبعد ما يكون عن أيِّ مذاقٍ أو

رائحة ربوا عليها ويتوقون إليها. بلا منازع، الكثير من قشر الفاصولياء البيضاء في الماء في مظهر حساء يأسر حاسَّة الذوق لدَيْهم.

ملاحظةٌ جانبيَّة، أو قد تكون برأي البعض نقطةً مهمَّة يمكن للسرد أن يحتملها. لا تتضمَّن أيٌّ من الرسائل التي يكتبها الطالب الأسير طيلة سنين اعتقاله ويقوم الأسرى المحرَّرون بإيصالها واحدةً حيث هو المُرْسِل. والدته لا تعرف القراءة والكتابة، كما أنَّ شقيقتيه كانتا وقتها صغيرتين على قراءة هكذا رسائل. لهذا السبب كذلك تقع على عاتقه إبَّان عمله في المحلِّ مهمَّة كتابة قائمة الحاجيَّات التي يجدر اقتناؤها وتتلوها عليه والدته عند نهاية كلِّ أسبوع، كي يتوجَّه لإحضارها قبل بداية الأسبوع التالي. خلال كتابته هذه القوائم، يبقى خطُّه جميلًا واضحًا كعهده.

الآن لن يفقه أحدٌ الدافع خلف ملاحقة حساءِ الفاصولياء البيضاء الطالبةَ أيضًا. الكثير من الفاصولياء البيضاء، مع عصير البندورة المركَّز هذه المرَّة، في مظهر حساءٍ فاقدٍ للقدرة على الانتشار بشكلٍ متساوٍ في أنحاء الصحن لثقله، هو كلُّ ما تنصرف بتناوله من طعامٍ في الجامعة. تسير إلى مقصف الكليَّة يوميًّا وقت العصر بعد أن تكون قد انقضت فترة الغداء التي ليس لاكتظاظها إلَّا أن يفضح مرأى جلوسها وحدها إلى طرف طاولةٍ ما لو تناولت وجبتها خلالها. حال انتهائها من تناول حسائها، تتَّجه إلى سكنها الجامعيّ، أو إلى موقف السيَّارات في الطابق الثاني أو الثالث تحت الأرض إن لم تخلص من محاضراتها لذلك اليوم التي، كما ورد سابقًا، لم تعد تحضر غالبيَّتها. بغضِّ النظر، تواجدت في غرفة سكنها الجامعيِّ أو مبنى الجامعة، التحقت بمحاضراتها أم لا، لا يكفُّ وحش الاضطراب عن التهامها، أحيانًا بشراهةٍ أكبر، أحيانًا بشراهةٍ أقلّ،

حسب الوضع الذي يزداد سوءًا يومًا بعد يوم. ليست تشهد على هذا كثافة التظاهرات السياسيَّة في حرم الجامعة فحسب، إنَّما ارتفاع عدد الدوريَّات العسكريَّة المسرعة صوب الأحياء الفلسطينيَّة المتاخمة. في الحين ذاته، لا تكفّ الحرباء عن تعقُّبها، متكوِّرةً إمَّا تحت السرير في غرفة السكن، وإمَّا وراء عجل إحدى السيَّارات الواقفة في الموقف، وإمَّا خلف عمودٍ ينتصب في أروقة الحرم الجامعيّ شبه الخاوية وقد التحق الطلّاب بمحاضراتهم في الوقت المناسب. الحرباء دائمًا حاضرة، مهدِّدةً إيَّاها بالتدخُّل في أيِّ لحظةٍ لإدارة الحديث.

المرَّات الوحيدة التي تتخلَّى فيها الحرباء عن الطالبة، هي عندما تلتحق الأخيرة بمحاضرات الرياضيَّات التي لا تزال تواظب على حضورها. تدخل القاعة، وتتَّجه للجلوس في أحد المقاعد في الصفوف في الوسط، حاملةً الحكم عليها بالنبالة أو النذالة، كلٌّ ووجهة نظره أو درجة فصاحته بالعبريَّة. ثمَّ تبقى صامتة. لا تعود تشارك بالحصص أكثر. وذات مرَّةٍ تصلها في إحداها على حين غرَّةٍ قصاصة ورقٍ مطويَّةٌ في طيَّاتٍ صغيرةٍ عديدة.

يلجأ الطلبة إلى اعتماد مثل هذه القصاصات كوسيلة اتِّصالٍ بينهم أثناء المحاضرات. إنَّها تُمكِّنهم من تبادل العبارات بحرِّيَّةٍ بعيدًا عن مسامع بقيَّة الطلبة والمحاضر أو المحاضرة في القاعة. فوق مساحتها الضيِّقة الناجمة عن تمزيقها من صفحةٍ كبيرة، تمتدُّ أسئلةٌ وجيزة، ملاحظاتٌ قصيرةٌ أو حتَّى نِكات، تباشر بحواراتٍ صامتة تجري بالتوازي مع الحوارات المسموعة في رحب القاعة، وربَّما تتقاطع في بعض اللحظات معها، مُغذِّيةً الواحدة الأخرى بالكلمات والتعابير. أو قد لا تكون لها أيُّ علاقةٍ بما يقال، وهمُّها الاتِّفاق على خططٍ ومشاريع

في الحياة، منها ما يأتي بعد المحاضرة مباشرة. تُرسل هذه القصاصات للطلبة المميَّزين والمحبوبين، أو ممَّن لديهم عدَّة صداقات، بالطبع. لا ريب في أنَّ الطالبة لحظها في السابق تتنقَّل من يدٍ إلى طاولة فيدٍ ثمَّ طاولةٍ إلى أن تصل مكانها المنشود الذي لم يكن قطّ حتَّى قبل ثوانٍ حيثُ تجلس. هذه المرَّة الأولى التي يحدث فيها أن تصلها قصاصةٌ من هذا النوع. داخل القصاصة طُرِح بالعبريَّة السؤال عمَّا إذا كانت ترغب بتناولهما الغداء معًا. مع من؟

تجول بأنظارها في أنحاء القاعة. هناك عددٌ من الرؤوس المستلقية على الطاولات، أصحابها نيَامٌ أو يرتاحون فوقها، البقيَّة مرفوعةٌ أو نصف مرفوعةٍ باتِّجاه المحاضر، بعضها ملتصقٌ بأخرى تحوم حولها كلماتٌ هامسة. ليس بعيدًا عن مكان جلوسها، تتوقَّف عند عينين موجَّهتين إليها مباشرة. إنَّهما عينا الطالبة الأخرى التي نبَّهتها في وقتٍ سابقٍ إلى الرأي القائل بأنَّ العرب نذلاء، وكانتا تتشاركان محاولة الإجابة على المسائل المخطوطة على اللوح قبل أن تتوقَّف عن القيام بذلك. هي إذن. تتريَّث الطالبة قبل أن تهزَّ رأسها بالإيجاب.

يندفع الطلبة من مقاعدهم بحلول نهاية المحاضرة، منهم من يتَّجه نحو المحاضر، من يتلكَّأ قرب مقاعد طلبةٍ آخرين، ومن يتَّجه إلى باب القاعة مُباشرة، فيما آخرون يُطلُّون عبره قبل ولوجه نحو الداخل استعدادًا لبدء المحاضرة التالية. تترك الطالبة مقعدها بعد أن يقلَّ الازدحام حول باب المخرج. خارج القاعة، تجد الطالبة الأخرى بانتظارها. تمشيان معًا، تتقدَّمها الأخيرة بخطوةٍ أو أكثر، تاركةً رأسها يميلُ قليلًا نحو اليمين لتتدلَّى بعضُ خصلات شعرها في الهواء عند حديثها بحماسةٍ عمَّا ورد في المحاضرة، فيما تستمع هي إليها مُطرقة. ما هو أكيدٌ أنَّ لا حاجة

للحرباء بالظهور لاستلام دفّة الكلام، على الأقلّ ليس حاليًا. فجأةً تسألها الطالبة الأخرى خلال مسيرهما نحو المقصف عن شعورها بصدد ما قالته إحدى الطالبات بأنَّ العرب نذلاء. بعد صمتٍ وجيزٍ تتمتم بأنَّها لا تفهم. تُعقِّب الطالبة الأخرى بأنَّ هذا التعليق برأيها يضاهي فعلَ تنكيل.

تنكيل. هذه الكلمة التي كثيرًا ما يَقرؤها المرءُ في الصحف، أو يسمعها في الأخبار تعقيبًا على حدثٍ عنيفٍ موجَّهٍ ضدَّ فردٍ أو مجموعة، أيْ آخرين، الآن تظهر لوصف حادثةٍ تتعلّق بإحدى شخصيَّات الرواية، تحدث في مستوًى لغويٍّ خالص. هل يجوز ذلك؟ الطالبة لا تعلّق. يُرافقهما الصمت لبضع دقائق حتَّى تصرفه الطالبة الأخرى بسؤالها عن سبب انضمامها للدراسة في جامعةٍ إسرائيليَّةٍ بدل إحدى الجامعات الفلسطينيَّة. ما مغزى كل هذه الأسئلة؟

تصلان المقصف. تتَّجه الطالبة الأخرى إلى قسم الفلافل وهي كالمعتاد إلى قسم الحساء. من الوارد أنَّها تواظب على أكل الحساء ليس رغبةً به بقدر ما هو نتاج توجُّسها من أنَّه لن يمكنها طلب وجبة طعامٍ بالعبريَّة دون أن يترتَّب على الأمر استفسارٌ عن مصدر لكنتها أو استحقارٌ مبطَّن حين يتَّضح هذا المصدر دون الحاجة إلى الاستفسار. من يعرف؟ وقد يرتجف صوتها فوق كلِّ ذلك. في حالة الحساء الأمر بسيط. تقف أمام القاطع الخشبيّ، يظهر أمامها صحنٌ مليءٌ بالحساء، تحمله، تدفع وتغادر. الطالبة الأخرى لا تزال تطلب وتتحدَّث وتنثر ابتساماتها وهي واقفةٌ في الصفِّ أمام قسم الفلافل. تبقى الطالبة على بعد خطواتٍ من نهاية الصفّ إلى أن تنتهي عمليَّة تجهيز رغيف الفلافل وتسليمه. تشير عندها نحو الطاولة التي تجلس إلى طرفها في العادة، في الركن المظلم البعيد في مؤخِّرة المقصف، وهو بالضبط ما تلاحظه الطالبة الأخرى،

مقترحةً أن تجلسا قرب النافذة المطلَّة على الحديقة، حيث سبقتهما الشمس إلى إحدى الطاولات.

في مرحلةٍ ما من جلوسهما معًا تعيد سؤالها على الطالبة عن سبب التحاقها بهذه الجامعة، وليس إحدى الجامعات الفلسطينيَّة. الامتعاض يبين على وجهها، قبل أن تردُّ بسؤالها عن سبب التحاقها هي بهذه الجامعة. تجيب الطالبة الأخرى بأنَّه لم يتوفَّر أمامها خيارٌ آخر؛ إنَّها الجامعة الوحيدة التي قدَّمت لها منحةً دراسيَّة. بعد برهةٍ من الوجوم، تجيب بأنَّها كانت ترغب بالدراسة في جامعةٍ فلسطينيَّة. غير أنَّ ما يحدث فيها من اقتحاماتٍ من قبل الجيش، واعتقالاتٍ بين صفوف الطلبة، ومظاهرات واحتجاجاتٍ وأشكالٍ أخرى من المقاومة، جعل والداها يعارضان على نحوٍ قاطعٍ انضمامها للدراسة في أيٍّ من الجامعات الفلسطينيَّة، معلنَيْن إن كان الخيار بين تمضيتها بضع سنين في السجن أو في البيت، فالبيت أفضل على الأكيد. يكفيهما شقيقها. تسألها الطالبة الأخرى عندها إلى أيّها ودَّت الانضمام، لو أمكنها. هذه الأسئلة التي لا تنتهي. تجيب باقتضابٍ حاكيةً اسم الجامعة. تردِّد الطالبة الأخرى خلفها الاسم، إلَّا أنَّ لفظها له يجعله مُغايرًا. تعيده مجدَّدًا على مسمعها ببطء. تكرِّره الطالبة الأخرى بلفظٍ لا يزال يجعله يبدو اسمًا مُغايرًا. تحاولان أكثر، أربع مرَّاتٍ أو خمسًا، دون جدوى. لا يزال لفظ الطالبة الأخرى له يجعله ملتبسًا على السمع. تتوقَّفان عن المحاولة. تتركَّز المشكلة في اختلاف لفظ حرف الراء بالعربيَّة عنه بالعبريَّة، ومدّ الطالبة الأخرى لمقاطع من الاسم في غير مواضعها. فجأةً تقترح الطالبة الأخيرة بأن تذهبا معًا لزيارة تلك الجامعة. إن أمكن. ما رأيها؟ تحدِّج بالفاصولياء البيضاء شبه الغارقة في عصير البندورة لبضع لحظاتٍ قبل أن تجيب.

ثمَّ في ظهيرةٍ من أواخر الخريف نفسه، يظهر المستقبل مجدَّدًا على نحوٍ مباغت. حينما ينشغل الاثنان بتنظيف المكان والعصفور يزقزق في الخارج، تفاتح صاحبة محلّ الفلافل ابنها بشأن خططه المستقبليّة. من الممكن أن يلتزم الصمت، على الأقل هنيهة، ردًّا على سؤالها. وفعلًا لا يجيب. بعد انتظارٍ قصير، تعلن والدته بأنَّ مستقبله سيداس تحت أقدام الآخرين، الراكضين خلف مصالحهم. هكذا وبدون أيّ مقدّمة. ممَّا يدفع به إلى الصراخ في وجهها على غير عادته. إنَّ همَّها أن يدرس في الجامعة، فيما هذه مسألةٌ يعلم هو بأنَّها تعلمُ هي الإجابة عليها جيّدًا، وهو ما يؤكّده عدم انتظارها سماع ردّه بشأن خططه في المستقبل الذي يُفترَض بأنَّه سيُداس.

في الحقيقة هو مخطئ. نشهد بأنَّها انتظرت قليلًا. كما هنا للتوفيق بين وجهتي النظر من موقعٍ مُحايد، يجدر تخصيص حيّزٍ لكلا الرأيَيْن. حسب رأيها، وإن ربَّما لم يكن بكلماتها الحرفيّة، ما فعله سعيًا نحو حرّيَّة الآخرين ومستقبل مصيرهم، أدَّى إلى فقدانه حرّيَّته ومستقبله. برأيه، هي كالآخرين ممَّن حولها، وهذه مشكلتها ومشكلتهم، ضحيَّة الهوس المتصاعد بمسألة النجاح الشخصيّ الذي لا يكتمل إلَّا عبر الدراسة الجامعيَّة، بينما الأمر في حالته محسوم. الجامعات الفلسطينيَّة مغلقةٌ أكثر ممَّا هي مفتوحة. والجامعات الإسرائيليَّة، عدا عن المجالات التي تأتي في دليلها ويُدْرَج إلى جانبها نجمةٌ ثمَّ حرفا «أ» و«تس» بالعبريَّة، لتشير نجمةٌ أخرى في نهاية الدليل بأنَّ هذه مجالاتٌ مُخصَّصةٌ لمن تجنَّدوا في صفوف الجيش، هناك بقيَّة المجالات التي لن يسعه الالتحاق بها لكونه أسيرًا أمنيًّا سابقًا. تبقى أمامه فرصة دراسة مجالاتٍ ثانويَّةٍ غير علميَّة، كعلم الاجتماع والجغرافيا والتاريخ وعلم الآثار وما إليها التي

تخوّله جميعًا بعد انتهائه من دراستها، العودة مباشرةً إلى محلّ الفلافل للعمل فيه، ليس أكثر. مُؤسَّساتٌ حكوميَّةٌ أو تلك الخاضعة للسلطات فقط يمكنها توفير وظائف لحملة الشهادات في مثل هذه التخصُّصات. وخِتامًا، ملفُّه الأمنيُّ يحول دون إمكانيَّة سفره إلى خارج البلاد لإكمال دراسته. ثمَّ لو تمكَّن من الخروج بقدرة قادرٍ أو قادرة، وعاد طبيبًا أو محاميًا، فلن يمكنه ممارسة أيٍّ من هاتين المهنتين بسبب هذا الملفّ. الأمور بيِّنة. هي تعرف كلَّ هذا تمام المعرفة وتأتي فوقها لتتنبَّأ بمستقبله. لماذا هذا التجريح؟

ذلك بالتقريب ما يزمجر به النمر نحو العينين الصارمتين. يستدرك الطالب الخرِّيج نفسه ويهدأ، لكن بعد فوات الأوان. صوته الآخذ بالعلو نحو والدته وصل درجة الصراخ منذ دقائق، هو الطالب الخلوق ذو السلوك الحسن. تركن والدته إلى الصمت. في أعقاب هذا النقاش الحادّ لا يمكننا كذلك معرفة إن كان ما يتعلَّق عند طرف عينها اليسرى في هذه اللحظة قطرة عَرقٍ جرَّاء انشغالها بمسح أنحاء المحلّ الذي اشتعلت في وسطه النار تحت مقلى الفلافل حتَّى قبل قليل، أو دمعة. الزيت في المقلى لا يزال حارًّا. ريثما يبرد، يواصل كلاهما صمته. ينتهيان من تنظيف المحلّ، ويغلقانه.

كلُّ ما في الأمر أنَّه من الواضح أنَّ والدته مُقلَّةٌ في الكلام، وزمجرته نحوها هذا العصر ستجعل من احتمال عودتها للسؤال عن مخطَّطاته، أو أيِّ موضوعٍ آخر جديّ، أمرًا مُستبعدًا لبعض الزمن. مع أنّه يمكن الجزم بأنَّ عدم عودتها لمفاتحته قريبًا بخصوص مستقبله، ليس ناجمًا عن زعلٍ أو خوفٍ من زمجرته، بقدر ما هو تعبيرٌ عن تفهُّمها لما يختمر داخله، كما لا يمكن لأيِّ كائنٍ آخر أن يفهم نمرًا يخور.

من الآن فصاعدًا، تبقى هناك إمكانيَّة أن يخبرها هو من تلقاء نفسه بين حينٍ وآخر، عن وجهته ذلك الصباح، أو صباح اليوم التالي، بينما هي لن تردّ. تلتزم سكوتًا تجلُّه فقط سمكةٌ في سباحتها وحيدةٌ ذهابًا وإيابًا. إنّها سمكة، في الغالب، من النوع الذي لا يسعى أحدٌ لاصطياده. عيناها سوداوان ضيّقتان وجلدها بلون الظلال، ممّا يجعل من مظهرها، ووجودها برمَّته بالنسبة إلى الآخرين عنصرًا غير مثيرٍ للدهشة غالبيَّة الوقت، حتَّى وإن خرجت من المياه لتقلي الفلافل قبل عودتها إليها لمواصلة سباحتها الصامتة، ترقب بعينٍ واحدةٍ عالمَ البحر الممتدّ إلى جهة، وبالعين الثانية عالم البرّ الممتدّ إلى الجهة المقابلة.

في عالم البرّ هذا، هي أيَّامٌ قليلة تمضي بعد تناولهما الغداء معًا، حتَّى تقف الطالبة برفقة الطالبة الأخرى على مُدرَّج نُصِب في حرم تلك الجامعة التي من الصعب للأخيرة لفظ اسمها. قبل انطلاقهما، تظهر الحرباء بغتة وتباشر الإدلاء بنصائحها، هذه المرَّة مشيرةً بأنَّه أثناء زيارتهما، يجدر على الطالبة الأخرى التحدُّث بالإنجليزيَّة لا العبريَّة. العبريَّة، توضِّح الحرباء، تُسْمَع في أنحاء الجامعة في خضمّ اقتحامات الجيش، لا غير.

في طريقهما إلى هناك، ترافقهما علاماتُ دنوّ الخريف من أواخره. طبقات الغبار المتراكم فوق نوافذ البيوت والمحالّ المطلَّة على الشوارع تؤكّد بأنَّ السماء لم تمطر منذ أشهرٍ عديدة. يبين الغبار بكثافةٍ على نحوٍ خاصٍّ فوق بعض السيَّارات الواقفة، نائمًا بأنَّها لم تتحرَّك من مكانها منذ آخر مرَّة هطل فيها المطر. على إحدى تلك السيَّارات خُطَّت عبارة «رجاءً اغسلني»، إلَّا أنَّه من الواضح أنَّ أحدًا لم يستجب لهذا النداء. مع ازدياد الوضع سوءًا يومًا بعد يوم، وانتشار الجيش على الطرقات،

لم يعد السفر بالسيَّارة يَسيرًا. لا ينفذ من بطش الغبار هذا نبات القبَّار أيضًا الذي يحاول الاحتفاظ بخضرة أوراقه الباهتة طوال العام، على الرغم من نموّه في أقلّ الأماكن خصوبة. مثال ذلك قبَّارةٌ ناميةٌ في نقطة التقاء أسفلت الرصيف مع أسفل صندوقٍ حديديٍّ مُخصَّصٍ لحماية مولِّدٍ كهربائيٍّ ما، وُضِع قبل بضعة أمتارٍ من إحدى الإشارات الضوئيَّة على الشارع الرئيسيّ. إلى الجهة اليمنى من الشارع، بعد تلك الإشارة الضوئيَّة، ينمو عددٌ قليلٌ من أشجار الصنوبر الجبليّ. صامدةٌ في وجه الجفاف وأمام غلاظته، خضرة هذه الأشجار لا تزال غامقةً على نحوٍ ما. قبالتها تظهر إلى يسار الشارع شجرة لوزٍ وحيدة، وَهَن خضار أوراقها القليلة الباقية وقد حلَّ أوج الخريف.

الجامعة التي تصلان لزيارتها محاطةٌ هي كذلك بأشجار الصنوبر الجبليّ واللوز، تنتشر بينها وتحتها الأعشاب الجافَّة، كما وهنالك شجرة ليمونٍ إلى يمين الحرم الخارجيّ، تحيقها أرضٌ بنِّيَّةٌ محروثة بعناية. ثمَّ تبدأ العتمة بالامتداد ولا يعود بالإمكان تبيان تفاصيل المكان.

يمضي بعض الوقت حتَّى تقف الطالبتان على المدرَّج المنصوب وسط الحرم الخارجيّ شبه المضاء، يحيط بهما جمهورٌ كبيرٌ من الطلبة وغيرهم، يشاهدون عرض رقصٍ وغناءٍ شعبيّ. مِن الحضور مَن يرقص أو يتمايل على وقع الألحان ممَّا يتسبَّب باهتزازاتٍ في المدرَّج. لا تنضمُّ هي للرقص، إنَّما تراقب بنظراتٍ حياديَّةٍ الحشد، بمَنْ فيهم الطالبة الأخرى، شعرُها من جديدٍ يتطاير يمينًا ويسارًا، وهي ترقص مع البقيَّة على وقع ألحانٍ وكلماتٍ بالعربيَّة لا تفقه منها كلمةً واحدة. نظراتها الحياديَّة لا تشي بما تضمر من أحاسيس حيال شعور مَن حولها بالسعادة. مع تواصل الحفل، تنصرف عيناها بالتدريج إلى التنقُّل بين

أحذية الحاضرين والحاضرات، صارفةً أنظارها عن نقيض ما عهدت من عزلةٍ في جامعتها، بالتحديد السكون الذي يغدقه عليها التواجد في موقف السيَّارات وفي غرفة سكنها. بعد انتهاء الحفل لا تغادران مباشرة. تنشغل الطالبة الأخرى بالحديث مع بعض الطلبة بالإنجليزيَّة التي لا تتركها للحظةٍ اللكنة ذاتها التي تلاحق عبريَّتها. ما زال الجميع مبتهجًا. تعكف على الانتظار عند إحدى السيَّارات المركونة قرب المدرج ترقبهم إلى أن ينتهوا من الحديث والضحك الذي يتهادى إليها. شروحاتٌ مبسَّطة تتعالى منها كلماتٌ دون غيرها. دبكة. موَّال. عتابا. زغاريد. روسيا. غورباتشوف. قهقهاتٌ عاليةٌ تتخلَّل كلّ شرح، بينما يظلُّ غير بائنٍ لِسِواهم ما المضحك في كلٍّ هذا.

يعود الصمت، ليرافقهما في طريق عودتهما إلى سكنهما الجامعيّ، حتَّى يتبدَّد بعنفٍ عقب وصول سيَّارة النقل العموميّ التي تستقلَّانها برفقة ركَّابٍ آخرين إلى الحاجز. بعد انتظارٍ معهود، تقفز الطالبة الأخرى إلى الخارج بغتة وتباشر بالصراخ نحو الجنود بالعبريَّة. تكون هذه المرَّة الأولى منذ انطلاقهما في رحلتهما التي تعود فيها إلى اعتماد اللغة العبريَّة في حديثها، بالأصح صراخها. تصرخ نحو الجنود واصفةً إيَّاهم بالحثالة وبأنَّهم لا يعلمون شيئًا عن الحياة التي يحاصرونها، ويحاولون خنقها حتَّى الموت. يطلب السائق في هذه الأثناء من الطالبة أن تترجَّل من السيَّارة هي أيضًا، شارحًا بأنَّه غير راغبٍ بأيِّ مشاكل مع الجيش. تومئ برأسها وتنزل. يمدُّ السائق يده من النافذة، ويمنحها أجرة الطريق لكلتَيْهما لتتمكَّنا من إتمام رحلتهما. تقطع الشارع باتِّجاه الرصيف المقابل لنقطة التفتيش، وتباشر المشي ببطء يوافق إيقاع الطالبة الأخرى على الجهة الثانية في ابتعادها التدريجيّ عن الجنود،

حيث تتوقُف بين فينةٍ وأخرى وتستدير نحوهم مواصلةٍ صراخها الأشبه بصراخِ حيوانٍ جريح تسيل الكلمات من فمه بدل أن تقال. في لحظاتٍ أخرى ينحني الجزء الأعلى من جسمها كما لو أنَّها تتقيَّأ هذه الكلمات ما يؤدِّي بشعرها إلى أن يتدلَّى أمام وجهها مغطِّيًا إيَّاه والدموع التي تبلِّله جزئيًّا. ينصرف الجنود الذين حال انتهاؤهم من فحص بطاقة هويَّتها واكتشاف أنَّها إسرائيليَّة إلى السخرية منها. يتضاحكون فيما بينهم على ما يشهدون ويسمعون في ليلة، كان يمكن لها أن تكون أقلَّ إثارة، حسبما يعلن أحدهم ببهجة.

تبتعدان أخيرًا عن الحاجز. تقطع الطالبة الأخرى الشارع لتلتقي بها، ثمَّ تنصرف إلى تكرار ما قالته للجنود على مسمعها، لكن هذه المرَّة بصيغة ضمير الغائب جمع المذكَّر، لا ضمير المخاطب جمع المذكَّر. تواصل هي صمتها. ثمَّ تنضمُّ الأخرى إليها في صمتها بعد برهة. تكملان رحلتهما إلى نقطتهما المنشودة مشيًا على الأقدام، إذ لم تعد هناك سيَّارات نقلٍ عموميٍّ تعمل في ذلك الوقت المتأخِّر من الليل. تمشيان لما يقارب الساعة ونصف الساعة في صلب العتمة، لا تتحدَّثان خلالها عمَّا حدث، ولا عن أيِّ شيءٍ آخر. ثمَّ لا تلتقيان لوقتٍ طويل. في مطلع الأسبوع التالي، يجري الإعلان عن بدء المحاضرين والمحاضِرات في كلِّ الجامعات الإسرائيليَّة بإضرابٍ شامل، تُلغى جرَّاءه جميع المحاضرات.

بالأحرى، لا يقدر أن يكون خبر هذا الاضراب إلَّا بمثابة انفراجةٍ بالنسبة إلى الطالبة. مع بدئه، لا تعود مجبرةً على الطواف بين الطلبة سائلةً عن إمكانيَّة تصوير دفتر ملاحظات أحدهم، ولا تعود بحاجةٍ للإجابة عن أسئلةٍ بشأن مصدر لكنتها. لا تعود بحاجةٍ للإذعان لما

تختلق الحرباء من سِيَر حيوات ليست حياتها على مسامع أحدهم، ولا تعود بحاجةٍ للاختباء من هكذا سِيَر، كما لا تعود الحرباء تتعقَّبُها خلسة تُهدِّدها بنصائحها من أصله. لا تعود فزعةً من احتمال الابتسام على تعليق يتَّضح لاحقًا بأنَّه إهانة، ولا يعود الاضطراب يُطوِّقها عند الجلوس في وسط القاعة خلال محاضرات الرياضيَّات. لا تعود بحاجة لتناول حساء الفاصولياء البيضاء وقت العصر، إنَّما مع حلول الظهيرة حين تحمل صحنها وتسير نحو طاولة تقع في وسط المقصف الرئيسيِّ الذي تبقى أبوابه مفتوحةً مع أنَّ لا زبائن هناك يرتادونه. ولا تعود مضطرَّةً للجوء إلى موقف السيَّارات. تصبح الجامعة إبَّان الإضراب شبه خالية.

يدوم الإضراب لما يقارب الشهرَيْن ونصف الشهر قبل أن تتحقَّق جميع مطالب المحاضرين والمحاضرات. هُنا تجدر الإشارة إلى أنَّ الطالبة لا تحيط بالكثير من التفاصيل عن هذه المطالب، وهو أمرٌ غير مستغربٍ في ظلِّ عزلتها المحتدمة. أو هو ميلٌ يتطوَّر لديها، يتسبَّب بعدم سعيها لمعرفة تفاصيل ما يحدث حولها، ميلٌ يشتدُّ أحيانًا لدرجة يمكن معها تسميته برهاب التفاصيل، يقود إليه تقتيرها في الكلام، وغياب إمكانية التواصل مع آخرين.

ومع أنَّ هذه النزعة تتبادر عند الطالبة في أعقاب تجربتها بنقصٍ في مقدرتها اللغويَّة، إلَّا أنَّه ميلٌ مألوفٌ لدى العديد. عدم القدرة على استيعاب كلِّ ما يجري من حولنا والإحجام عن الإنصات، قد يكون بهدف الاحتماء، إن ورد هكذا خيار. هو ميلٌ يتسبَّب في وقتٍ سابق، تمثيلًا لا حصرًا، بعدم دراية الكثير، بمن فيهم الطالبة، بتفاصيل مطالب الأسرى الذين يعلنون عن إضرابٍ شاملٍ عن الطعام، يمتدُّ على مدى تسعة عشر يومًا، ويسبق إضراب المحاضرين والمحاضرات في الجامعات

الإسرائيليَّة بعام ونصف العام تقريبًا. مع هذا، يعتبر هذا الإضراب من أهمّ الإضرابات التي قادتها الحركة الأسيرة منذ عام 1948.

في هذا الإضراب الذي يحدث خلال فترة سجنه، لا يسمح الأسرى المضرِبون للطالب الأسير بالانضمام إليهم بسبب صغر سنِّه. لكن عقب فكِّه، بعد استجابة إدارة السجون لجملةٍ من مطالبهم، يوكِل إليه رفاقه في الزنزانة، إضافةً إلى كتابة الرسائل، مهمَّة تدريسهم اللغة العبريَّة.

لقد تعلَّم الطالب الأسير العبريَّة وقواعدها ونحوها لسنواتٍ عديدةٍ في المدرسة، قبل أن يقود اعتقاله إلى سماعها يوميًّا في محادثات السجَّانين والضبَّاط وحتَّى الطبَّاخين الذين هم عادةً من السجناء الجنائيِّين دائمي الصراخ. بهذا، إضافةً إلى ما تعلَّم من خلال الكُتُب، تسوقه تجربة اعتقاله إلى مراس اللغة فعليًّا. كذلك في ظلِّ القدرة الهائلة لمن هم في سنٍّ يافعةٍ على أقلمة لكنتهم، يمكِّنه مراسها هذا بشكلٍ كبيرٍ من نطق مخارج الحروف كما ينطقها المسؤولون في السجن الذين تغيبُ عن عبريَّة غالبيَّتهم أيُّ لكنة يحملها إصرار لغةٍ أخرى على البقاء معهم. يصبح الطالب الأسير عند الحديث بها قادرًا على تحوير لفظه لثلاثة أحرفٍ بعينها، هي الـ«ح» التي تتحوّل إلى «خ»، والـ«ع» إلى «أ» والـ«ر» إلى «غ». مع ذلك تصرُّ الـ«غ» على الالتصاق بسقف حلقه لبعض الوقت، في حين يلفظها المحقِّقون والضبَّاط في المناصب العليا، على وجه الخصوص، كما لو أنَّها كتلةٌ متكوِّرة ترنُّ داخل ذاتها، قريبًا جدًّا من مقدِّمة الحلق دون لمسه. غ غ غ غ غ غ غ غ يغرِّد العصفور مرارًا وتكرارًا ووراءه الطالب الأسير بصوتٍ هامس، حيث لا يعود يبين إن كان قد أتقن لفظه الجديد لحرف الراء أم ليس بعد.

يَستدعي الطالبُ الأسير قدراته هذه، مضيفًا إيَّاها إلى ما لقَّنوه من أسس اللغة على مدار ثماني سنواتٍ مدرسيَّة، أثناء تعليمه العبريَّة للراغبين من الأسرى طيلة الثلاثة الأشهر الباقية حتَّى موعد الإفراج عنه. بنظام حرفين كلَّ يومٍ في الفترات المتاحة، يتمكَّن أسرى، تباينت أعمارُهم وخلفيَّاتُهم وطبيعةُ انخراطهم في العمل السياسيّ وسنواتُ اعتقالهم من تعلُّمِ جميع الأحرف قراءةً وكتابةً في أقلّ من شهر. يعتمدون خلال تعلُّمها كلماتٍ بسيطة تحاكي كلماتٍ مشابهةً بالعربيَّة. ثمَّ ينطلقون إلى وضع هذه الكلمات في جُمَلٍ مفيدة، قبل أن ينتقلوا إلى كلماتٍ وجملٍ أشدّ تعقيدًا. كذلك يجري تخصيص فترة ما بعد العشاء وحتَّى حلول موعد النوم للحديث بالعبريَّة فقط. بعد قرابة الثلاثة أشهرٍ من العمل اليوميّ المثابر، تأخذ كلماتٌ وصلت مسامعهم سابقًا من أروقة السجن باعتبارها طلاسم يستحيلُ استدلال أيِّ معنى لها، أو بدت أمام أنظارهم رموزًا مُشفَّرة، بالتحوُّل إلى عبارات يمكنهم فهمها والردُّ على بعضٍ منها. منذ البداية، لا يفوت الطالب الأسير تنبيههم إلى اختلاف لفظ الأحرف الثلاثة آنفة الذكر ما بين مُتحدِّثي العبريَّة ومُتحدِّثي العربيَّة.

تأتي هذه الحاجة لدراسة العبريَّة عقب نجاح الأسرى بتحقيق مطلبٍ رئيسيٍّ من مجموعة المطالب المنادى بها في إضرابهم عن الطعام، ألا وهو الحصول على تعليمٍ جامعيٍّ خلال سنين أسرهم. توافق السلطات على السماح للراغبين من حملة الشهادات الثانويَّة في السجون المختلفة بالالتحاق بجامعةٍ إسرائيليَّةٍ واحدةٍ محدَّدة، هي لا غيرها التي تدرس فيها الطالبة.

بكلماتٍ أخرى، قبل أن ينطلق إضرابُ محاضري الجامعات الإسرائيليَّة ومحاضِراتها، وبعد أن ينجحوا بتحقيق مطالبهم، يكون برفقتها

زملاء في الدراسة لا يتمكّنون من التواجد في قاعات المحاضرات أيضًا، لا لأنّهم يقبعون في أحد الطوابق السفليّة لمبنى الجامعة أو غرفة سكنهم مثلها، بل داخل غرف السجن. هي على كلٍّ كما لم تعرف الكثير عن إضراب الأسرى هذا وما سيتمخّض عنه من تحقيقٍ لمطالبهم، فلن تعلم بوجود هؤلاء الطلبة معها في الجامعة.

تحقيق مطالب المحاضرين والمحاضرات بدوره يقود إلى إعلان تعليق الإضراب عن التدريس، وعودة الطلاب إلى مقاعدهم الدراسيَّة، وبالتالي إلى حتميَّة لقاء الطالبة بالطالبة الأخرى في محاضرة الرياضيَّات من جديد. تستقبلها الأخيرة بابتسامةٍ كبيرة تكاد تطوّقها من كلّ جانب. تلتقيان ثانيةً بعد انتهاء المحاضرة. أثناء تناولهما الغداء معًا، تدعوها الطالبة الأخرى إلى مرافقتها لزيارة عائلتها في نهاية الأسبوع. تقبل الدَّعوة بغير حماس.

للتذكير، لا يقتصر غياب الحماس عند الطالبة على هذه الدعوة، إنَّما هو يصاحبها أينما تذهب وفي كلّ ما تفعل، على النقيض من الطالبة الأخرى التي لا يتوانى الاتّقاد عندها عن الظهور حتَّى في خصلات شعرها. يمكن الاعتقاد بدرجةٍ كبيرةٍ بأنَّ ما يقف خلف عدم حماسة الطالبة هو الخدر الذي أضحى يسوق أيَّامها بأدنى جهد، ما إن يخفّف الاضطراب قبضته عليها. مع أنَّ إحساس الخدر هذا يتناقض كلّيَّةً مع روح الوقت الحاضر.

الحيويَّة المعهودة من بداية الربيع ترتدُّ لتسوق كلَّ ما يحيا. عن الأرض تنفجر مرَّةً أخرى خصوبة الخضار النضر الذي ينبعث في كلّ جهةٍ ومن كلّ شقّ، بما فيها الشقوق شبه المرئيَّة في الأسوار والمباني، أو وسط شارعٍ فرعيٍّ مُعبَّد لم يعد يرتاده أحد. نمو النباتات في هذه

الشقوق يؤكّد خصلةً قلّما تُرفَق بوصف الطبيعة، وهي الإصرار. لا يمكن لأيّ سطح، مهما بلغت صلابته، أن يحول دون جهوزيّة بعض النباتات من النمو فوقه، مثيل نبتة القبّار المذكورة سالفًا، وحتّى الطحالب. من هذه النباتات ما ينمو كذلك مُواصلًا العيش في أماكن متروكة، من بينها قرى وأحياء اقتُلِع منها سكّانها أو هُجّروا، لتُطرد معهم شتّى سبل الحياة التي انصرفوا يسوقونها. نامية أحيانًا في غير مواضعها المعهودة، قد تظهر بضعة منها عبر نوافذ تلك المباني المهجورة، أو عند فتحات أبوابها، كما أمكن لسكّانها السابقين أن يفعلوا في إحدى الصباحات، مُسرعين إلى الأطلال من هذا الشبّاك أو ذاك لتبيُّن مصدر ضجيجٍ مباغت، أو منتظرين عند الباب إلى أن يغيب من ودّعوا للتوّ عن أنظارهم. كما وتجتذب هذه النباتات الحشراتِ على اختلافها، نملًا ونحلًا، عناكبَ وفراشات. مجتمعةً تزيد النباتات والحشرات من صخب الوجود في مثل هذه البقع التي يتوهّم العديد أنّها خاليةٌ من الحياة.

قبل بلوغ الربيع منتصفه، تحلُّ عطلةٌ مدرسيّةٌ قصيرة، مدّتها أسبوعان، تؤدّي بمحلّ الفلافل إلى إغلاق أبوابه. يحاول الطالب الخرّيج عوضًا عن البقاء في البيت طيلة تلك الفترة أن يجد عملًا يدرُّ دخلًا إضافيًّا يساند به والدته في محاولتها الادّخار من أجل دراسة شقيقتيه الجامعيّة في المستقبل. لقد ذهب كلُّ ما تمكّنت من توفيره بقصد تعليم ابنها وابنتيها في الجامعة وجنته من أرباح محلّ الفلافل على مدى سنين، لتسديد مصاريف المحامي الذي وكّلته للدفاع عنه عقب اعتقاله. وقد حاول بعضُ مَن حولها ثنيها عن فعل هذا، مشيرين بأنّه لا قوانين هناك ولا قوّةً في الكون يمكنها أن تصمد أمام تُهَم تعتبرها الدولة أمنيّة، لكن دون فائدة.

سائلًا مَن حوله، يتمكَّن الطالب الخرّيج من إيجاد عملٍ في ورشة بناءٍ لعدَّة أيَّام في الدهان. يخلط الألوان، يحضر السطول ويغيِّرها، يدهن الوجه الأوَّل، كلّ ما يُطْلَب منه. بقيَّة أيَّام العطلة يقوم تباعًا لتعليمات والدته بتقليم الأشجار حول البيت، شجرة التين وكرمة العنب وشجرة الرمَّان اليافعة، وقلع الأعشاب الضارَّة من حولها. خاصَّةً المدَّيدة والصفيَّر اللتان تنتشران بكثرةٍ في هذا الوقت من العام. كذلك عليه زبل الأرض. هو في الواقع متأخِّرٌ جدًّا في عمل كلّ هذا.

قبالة تأخيره، تثابر والدته سنويًّا مع اقتراب الشتاء من أواخره على زراعة مختلف الأصناف من الخضار، البصل والبقدونس والبطاطا، وأحيانًا الجزر والخس، الفلفل والباذنجان والبندورة التي تنطلق للعناية بها حتَّى الصيف. كي تنمو بعافية، تسقيها أحيانًا كل صباح. ثمَّ تبدأ بجني بعضها بحلول منتصف الربيع، مستخدمةً قسطًا كبيرًا من غلَّتها في محل الفلافل، بعد أن تبقي في البيت ما يكفي للاستخدام المنزليّ فقط.

ومع أنَّ توانيه عن الاعتناء بالأرض والأشجار منذ إطلاق سراحه قد لا يكون في محلِّه، إلَّا أنَّه مفهوم. الأسر يجعله لا يفقه جيِّدًا احتياجات الأشجار والنباتات في الربيع وتوقيتها الدقيق. إنَّ أربعة أعوامٍ حُجِبت خلالها عنه دورة حياة الطبيعة بالكامل، ليست بالتجربة اليسيرة. في الزنازين والممرَّات والساحات المخصَّصة للمشي في السجن لا وجود ولو لنبتةٍ صغيرة. هذا لا ينفي أنّه هنا وهناك قد يقرأ أحدنا عن محاولة أسيرٍ أو أسيرةٍ زراعة نبتةٍ بطريقةٍ ما. بإمكانهما أن يجدا مثلًا في الحساء حبَّة بقوليَّات، في هذه الحالة قد تكون حبَّة فاصولياء غير مطهيَّة. يُخبِّئانها في فمهما، ثمَّ ما أنْ يصلا زنزانتهما، حتَّى يتعاونا مع جميع من فيها على توفير أفضل ما يمكن من شروط تلزم عمليَّة نموِّها. هي شروطٌ أساسيَّةٌ

بسيطة لا تختلف عمَّا تعلَّم الكثير منَّا في المدرسة، إلَّا أنَّها في السجن تستلزم أشكالًا من التفنُّن والإبداع للحصول عليها. أوَّلًا الوعاء، ويمكن بناؤه من علبة سجائر بعد التخلُّص من سطحها العلويِّ بحذرٍ كي يبقى بناء العلبة سليمًا. وبدل القطن، قد تضاف مناديل وقصَاصات ورقٍ مشبعةٌ بالماء، توضع في أسفل العلبة لاحتضان البذرة. بعدها يصير لازمًا نقل العلبة يوميًّا لأوقاتٍ قصيرةٍ إلى أكثر الأماكن إنارةً في الزنزانة كي تنال قدرًا من الضوء، قبل إعادتها إلى مخبئها تحسُّبًا لعمليَّات التفتيش المباغتة ومن ثمَّ مصادرتها. بدورها، حبَّة الفاصولياء المفترضة هذه قد تنمو، أو قد لا تنمو.

حالما يبلغ الأسبوع المقبل نهايته، تتَّجه الطالبة لزيارة عائلة الطالبة الأخرى. لدى وصولهما، يستقبلهما لفظ والدَيْ الأخيرة للعبريَّة التي لا يُجيدانها، حاملًا أضعافًا من ثقل اللكنة المكتسبة بتأثير لغتهما الأصليَّة مقارنةً بابنتهما. ثقله شديدٌ لدرجةٍ قد يصعب معها تمييز أيِّ لغة ينصرفان إلى التحدُّث بها في لحظةٍ بعينها إبَّان تنقُّلهما المتواصل بين الاثنتين. الثانية هي الروسيَّة، تشرح الطالبة الأخرى. إلَّا أنَّ شقيقها الأصغر، بكلمات العائلة، يجسِّد الأعجوبة في مسألة لفظه للعبريَّة التي خلت من أيِّ لكنةٍ أثناء تناوبه على الحديث باللغتَيْن وتحوُّله بينهما بخفَّة. إنَّه موضوعٌ يدور الحديث عنه لوقتٍ ليس بالقليل، عن قدرة الأطفال على تعلُّم اللغات بسرعةٍ هائلة، فيما يبتسم هذا الشقيق بحلاوةٍ خلال قفزه بين اللغات وفوق الأرائك في غرفة الجلوس، كما لو أنَّه يطارد كائنًا يراه هو وحده.

تنسحب الأمُّ بعدها إلى المطبخ، ويخرج الأب إلى الحديقة ليجلس على مقعد يفصحُ تصميمه بأنَّه مريح. يقرأ تاركًا ضوء شمس

العصر الرقيق المعهود من فصل الربيع، يعيد رسم ظلاله فوق حجارة الحصى الصغيرة التي تشتدُّ رماديَّتها داخل حدود الظلِّ المتبدِّل مع أدنى حركةٍ يأتي عليها الأب. خلفه، على مدى الحديقة الصغيرة، يتمدَّد عشبٌ أخضر ينتمي إلى صنف يعتبره الفلَّاحون ضارًّا للغاية، بحيث حالما يظهر في حقولهم، يسعون إلى اجتثاثه منها. كذلك هناك شجيراتٌ دائمة الخضرة لم تكن مقصوصةً بعناية، أفرعها تنمو بتفاوتٍ في اتِّجاهاتٍ مختلفة. بين حينٍ وآخر يُغير على أحدها عصفورٌ ما فينحني الفرع نحو الأغصان السفليَّة التي تعينه على حمل ثقل هكذا كائنٍ صغير. أمَّا العصفور فمآله أن يطير مُجدَّدًا، مجيزًا للفرع أن يشبَّ عائدًا إلى وضعيّته السابقة. بين الأغصان، وسط خضرة الأوراق الداكنة، تظهر أزهارٌ ناريَّة تتكوَّن من بتلاتٍ عديدةٍ صغيرةٍ جدًّا، تتراوح ألوانها بين البرتقاليِّ الفاتح والبرتقاليِّ الغامق الأشبه بالصدأ. هناك في أقصى شمال الحديقة، تنتصب شجرة نخيلٍ من النوع الذي لا يُدرُّ تمرًا، سُعفها شبه دائريَّةٍ وقصيرةٌ نسبيًّا، على عكس سعف النخيل الذي يمنح تمرًا. معظم النباتات المزروعة في الحديقة تشابه بقدرٍ كبيرٍ تلك المزروعة في حدائق الجامعة، وتختلف عن أنواع النباتات التي أحاطت بالطالبة حتَّى عهدٍ قريبٍ وتألفها. إنَّها في الغالب لا تعرف أسماءها بالعربيَّة، وبالتأكيد ليس بالعبريَّة. ثم لو يدقِّق المرء نظره، يمكنه أن يلمح على أحد أفرع شجرة النخيل، إلى جهة اليمين، كتلةً صغيرةً مكوَّرة الشكل، تظهر بأنَّها أشدُّ اخضرارًا من خضرة السعف بدرجةٍ خفيفة. الحرباء؟

بعد وقتٍ تتسلَّل إلى غرفة الجلوس رائحة الطهي القادمة من المطبخ، يسبقها صوت ارتطام الأواني واحتراق الزيت. تسأل الطالبة إن كان بإمكانهما مساعدة الأمّ. تتَّجهان إلى المطبخ. الأمُّ لا تحتاج

المساعدة. تمنحهما فقط قطعتين ممَّا أتمَّت طهيه. إنَّه لذيذ، تُعقِّب الطالبة. مكوِّناته الجبن والطحين والبيض والخميرة السريعة وبعض البصل الأخضر والشبت والملح والفلفل حسب الرغبة، يجري خلطها معًا جيِّدًا حتَّى تصبح في هيئة عجينة، تُقسَّم في قطعٍ صغيرة يجب ضغطها لتصير دائريَّة، ومن ثمَّ قلْيها مع قليلٍ من الزيت لبضع دقائق على كلا الجانبين. تترجم الطالبة الأخرى جميع هذه التعليمات نقلًا عن أمِّها من الروسيَّة إلى العبريَّة. تعودان إلى غرفة الجلوس. تستلقيان فوق الأرائك إلى أن تجهز وجبة الغداء. يتعثَّر الحديث بينهما حين ينصرف الشقيق الأصغر إلى التذمُّر بأنَّه جائع وبأنَّ الوقت يمرُّ ببطءٍ شديد. تؤكِّد له شقيقته بأنَّه سينقضي على وجه السرعة لو خرج للعب في الحديقة. يخرج. تعود الدعة إلى غرفة الجلوس. ترقبانه يتنقَّل في أنحاء الحديقة في أوسع خطوات يتمكَّن منها. في بعض المرَّات يفقد توازنه ويقع. على مقربة منه يواصل الأب قراءته الصحيفة في مقعده، يحتضنه الضوء. فجأةً تقول الطالبة الأخرى بأنَّها تودُّ مشاركتها سرًّا يخصُّ العائلة. يسود عندها هدوءٌ متوتِّرٌ في البيت، حتَّى في المقلى. تردف قولها بأنَّ والدها ليس يهوديًّا. يتعلَّق نظر الطالبة بالأب لحظةً قصيرةً دون أن تعلِّق. بعد برهةٍ لا يَنبس فيها أحدٌ بكلمة، ترفع الطالبة الأخرى كتفَيْها وتبتسم برِقَّة توحي بتفهُّمٍ لخيبةٍ ما قد يخال لها بأنَّ نظرة الطالبة تحملها. مع أنَّ تلك النظرة، القصيرة للغاية، قد لا تعني شيئًا، وتحدث ببساطة كون الأب موضوع الحديث آنها. أو قد تعني بأنَّ الأمر ليس بذي أهمِّيَّة وأنَّ لا ضرورة هناك لإيلاء اهتمامٍ إلى تفصيلٍ مثل هذا لدرجة اعتباره سرًّا لا يجدر الإفصاح عنه. غير أنَّ لا شيْءَ من هذا يقال. لا يتبدَّد الوجوم في فضاء غرفة الجلوس إلى أن يأتي الطَّعام الذي حضَّرته الأمّ. يجمعهم

كلّهم حول المائدة، قبل أن ينطلقوا إلى أكله بشهيَّة، لا يزال لذيذ المذاق.

بعد الغداء، ينشب شجارٌ عائليٌّ كبيرٌ باللغة الروسيَّة لا تفهم الطالبة منه شيئًا. الشقيق الأصغرالذي لا يشارك في الشجار، ينصرف إلى القفز على الأرائك ببطءٍ وبتردُّدٍ أشدَّ من ذي قبل. تتابع هي قفزه بأنظارها ساكنة. ثمّ تغادران، هي والطالبة الأخرى، تاركتَيْن خلفهما أجواءً محتدمة.

في طريق عودتهما إلى سكنهما الجامعيّ، تعرِّجان بشاطئ البحر الذي لا يبعد كثيرًا عن مسكن العائلة. تمشيان فوق الرمل، تتسلَّقان الصخور التي تشقُّ طريقها داخل البحر، ثمَّ تجلسان على إحداها. تلتقطان الصور بآلة تصوير جلبتها الطالبة معها بمناسبة الزيارة. لا تتحدَّثان حول ما جرى من شجارٍ عائليٍّ الذي تلازم آثاره الطالبة الأخرى في هيئة انتفاخ وبعض الاحمرار في عينيها.

أمامهما البحر مائجٌ صاخبٌ في هذا اليوم الربيعيّ. ترمي الريح المشتدَّة بالأمواج عاليًا فتلبث في الهواء لحظةً بطيئةً قبل الانصباب على الأمواج المنسحبة، بينما تغير أمواجٌ أخرى قادمةٌ من جهةٍ معاكسة، غامرة التي في المقدِّمة بالكامل. تتضارب الأمواج معًا وتتدافع، مُطْلِقةً الرذاذ نحو بعض الصخور، مكتسحةً القريبة منها، ثمَّ تدعها. بريق بلل الصخور يقلُّ ويحتدُّ في فتراتٍ مُتباينةٍ تباعًا لحركة الغيوم التي تحجب الشمس وتكشف عنها، كما ويتوهَّج لون سطح المياه إبَّانها باضطراب. حائر الألوان هذا البحر الهائج لا يمكنه مهادنة أحدٍ أو إمداده بالطمأنينة.

بعد تلك الزيارة، دون أن يطرأ حدثٌ معيَّن أو يكون مبّررٌ خلف هذا، لا تعود الطالبة تلتحق بمحاضرات الرياضيَّات أيضًا. تبيت محكومةً بدرجةٍ كبيرةٍ بما يبقيها بعيدًا عن قاعات الدراسة كلِّيًّا. تغيُّبها هذا عن جميع المحاضرات يمنحها وقتًا لا تفعل فيه شيئًا سوى النوم أو الشرود فيما لا يمكن لأحدٍ معرفته بالضبط. تمضي أيَّامها على هذا المنوال رتيبة، ماكثةً داخل غرفة سكنها الجامعيّ، تكاد لا تبرحها. ثمَّ عندما تتمكَّن في المرَّات القليلة من دفع نفسها خارج الغرفة باتِّجاه الجامعة، تسوقها قدماها نحو موقف السيَّارات، لا غير. داخل الموقف يتلقَّفها الإسمنت، ويستبدُّ بها الشرود، تصلها زقزقةٌ متقطِّعةٌ لعصافير تعشِّش في فتحات التهوية.

يمرُّ أكثر من شهرٍ قبل أن تطأ قدماها حرم الجامعة. تتّجه ذات عصر إلى مقصف الكليَّة أولًا، تتناول حساء الفاصولياء، ثمَّ تعرج على مختبر التصوير في الجامعة، حيث أودعت الشريط السالب المصوَّر عقب زيارتها عائلة الطالبة الأخرى. تستلم مغلَّف الصوروقد تمّ تحميضها وطباعتها. تفتحه حال استلامه وتشرع بتقليب الصور. تتوقَّف عند صورة الطالبة الأخرى التي تغزو وجهها ابتسامةٌ عريضة، رأسها مائلٌ قليلًا نحو اليمين فيما هي تجلس فوق الصخور، إلى يسارها بائنٌ طرف البحر المائج. تعود إلى غرفة سكنها الجامعيّ وتباشر بالتدقيق في الصور على مهل. عند فراغها، ترجعها إلى المغلَّف، باستثناء صورة الطالبة الأخرى جالسةً فوق الصخور. تضعها في دفتر تدوين الملاحظات الخاصّ بمحاضرات الرياضيَّات، ثمَّ تستلقي فوق سريرها وتجعل تتقلَّب فيه لبضع ساعات، كما طيلة اليوم التالي. في اليوم الذي يليه، تترك غرفة سكنها وتتَّجه إلى مبنى الجامعة، إلى القاعة التي تُعقد فيها محاضرات الرياضيَّات. تجلس فوق مقعدها المعتاد في وسطها.

الطالبة الأخرى لا تنضمُّ إلى المحاضرة ذلك اليوم، ولا في الأيَّام القادمة. عدم ظهورها هذا، تُجبر الطالبة التي تعاود الالتحاق بمحاضرات الرياضيَّات، وهي بمعدَّل مرَّتين أسبوعيًّا، على الإجابة على جميع الأسئلة وحلّ المعادلات بمفردها، وهو ما يتكرَّر إلى أن يوشك الفصل الدراسيُّ على الانتهاء. في هذه الغضون كذلك لا تصادفها في أنحاء مبنى الجامعة أو في أروقتها.

قبل حلول نهاية الفصل، تقصد أخيرًا غرفة سكن الطالبة الأخرى وتقرع بابها. تقوم بذلك يوميًّا على مدار أسبوع في أوقاتٍ متفاوتة دون جدوى. الطالبة الأخرى ليست متواجدةً هناك، أو هي لا تردّ. حين تحلُّ عطلة نهاية الأسبوع، تتَّجه صباح أوَّل يومٍ منها إلى أحد الهواتف العموميَّة المنصوبة في قبو سكنٍ جامعيٍّ قريب. تقف لأكثر من عشرين دقيقةً بانتظار أحدهم أن ينهي محادثته المملَّة على الهاتف الوحيد المتوفِّر. تمسك بالسمَّاعة. تضغط على لوحة الأرقام الدبقة المتَّسخة رقمَ هاتف بيت أهل الطالبة الأخرى الذي سجَّلته في دفترها الصغير في خضمِّ زيارتها حينه تأكيدًا على حميميَّةٍ ما نمت بين الجميع، ذلك قبل نشوب الشجار العائليّ. في الحال يصل مسمعها طنينٌ متسارعٌ عصبيّ. تعيد سمَّاعة الهاتف إلى موضعها. تبقى في القبو لبعض الوقت. تعاود الاتصال مرَّةً تلو الأخرى، حتَّى يحالفها الحظُّ في مرَّة لا يكون فيها الخطُّ مشغولًا. يردُّ الشقيق الأصغر بعبريَّته التي تخلو من أيِّ لكنةٍ بصوتٍ طفوليٍّ حادّ، يساهم برفع حدَّته قدومه عبر سمَّاعة الهاتف. تسأله إن أمكنها الحديث مع شقيقته. بعد لحظاتٍ من الصمت يردُّ بارتباك بأنَّها ليست هناك. تسأله عن مكان وجودها، يردُّ بأنَّه لا يعرف، ثمَّ يضيف عبارةً أخرى.

لا تعود إلى غرفة سكنها الجامعيّ. تترك القبو وتسير باتّجاه الجامعة. تتّجه إلى موقف السيّارات. الشرود يحفُّ طريقها. يكون الموقف شبه فارغٍ كعادته في عطلة نهاية الأسبوع. تضطرُّ بسببها إلى أن تتّكئ عند جلوسها على أحد جدران الموقف القريبة من المصعد بدل إطار سيّارة، مسلمةً ظهرها لخشونة الإسمنت. بين آنٍ وآخر يتردَّد هدير التهوية الموقوت، ناثرًا معه صدى العبارة الأخيرة التي قالها الأخ بالعبريَّة في الفضاء المضاء بنورٍ أبيض خافت. يستمرُّ صدى العبارة بغزو أنحاء الموقف على مدار الساعات المقبلة.

في الخارج تنصرف العتمة إلى التعاظم تدريجيًّا. تترك الطالبة الموقف إلى صلب العتمة التي تتشبَّث بها في مسيرها بمفردها نحو غرفة سكنها الجامعيّ. حالما تدخلها، يبدأ هسيسٌ بالصدور عن كلِّ ما في الغرفة من مُحتويات، حتَّى الملابس المعلَّقة على الباب. تبرح ضوضاء هذا الهسيس خفيفة، لكنَّها لا تدعها تنام. في الصباح التالي تعاود الاتِّصال بعائلة الطالبة الأخرى. بعد محاولاتٍ عدَّة تنجح بالوصول إليهم. لا تعرف ماذا تقول. مع أنَّه لا جدوى ترجى لهم من ذلك، تترك عنوان سكنها الجامعيّ معهم، في حال علموا بما هو جديدٌ عن مصير ابنتهم التي اختفت.

حاليًّا، جلُّ ما نعلم هو أن السنة الجامعيَّة في سبيلها إلى الانقضاء، ووشوك عطلة الجامعة على البدء، مستشرفةً الصيف. لزوجة حرارة الجوّ المتزايدة تأخذ بالزحف إلى النهارات، ويصبح المرء ينزّ عرقًا ما أن يخلص من الاستحمام. أوراق الأشجار ذابلة، الأعشاب الضارَّة متيبسَّةٌ مصفرَّة، والعصافير فاتحةً مناقيرها تلهث متفاديةً الطيران. رويدًا رويدًا، يمتد الحرّ الشديد إلى الليالي، بحيث يصيب الأرق الصِّغار قبل

الكِبار. لكن قبل أن يشتدَّ الحرّ أكثر ليصبح لهيبًا، تبدأ العطلة الصيفيَّة للمدارس أيضًا.

في مطلعها، تُفضي العطلة بمحلّ الفلافل إلى إغلاق أبوابه تزامنًا مع إغلاق المدارس كما هو معهود. على الرغم من أجواء الحرّ الشديدة، في وقتٍ لا تزال فيه العصافير تتلكّأ خلاله عن التحليق لشدَّة هذا الحرّ، يباشر الطالب الخرّيج البحث ثانيةً عن عمل يساند به والدته ماديًّا بدل البقاء بطّالًا على مدار شهرين. مع نُدرة ورش البناء في الصيف، يتمكّن معتمدًا على مساعدة والدته من الانضمام إلى موكب أبناء الجيران للخدمة كعامل نظافةٍ على أحد الشواطئ. المهامُّ الرئيسيَّة التي يتطلَّبها العمل تتراوح بين جمع النفايات من الشاطئ وتنظيف الحمَّامات ومقاعد الاستجمام وتوضيبها يوميًّا. يتقاسم عمَّال النظافة هذه المهامَّ وفق برنامج ورديات يُحدَّد أسبوعيًّا بنظامٍ واضحٍ لا تعقيدات فيه. متَّجهًا إلى هناك برفقة مجموعة أبناء الجيران تلك، يُسِرُّ أحدهم بصوت يغلبه الفتور بأنَّه من المستحسن كذلك الامتناع قدر الإمكان عن التحدُّث بالعربيَّة على الشاطئ. لا يعقِّب. ثمَّ يبين حال مباشرته العمل بأنَّ العمَّال، لدى مناداتهم الواحد الآخر، يحرّفون أسماءهم قليلًا بحيث لا تبدو عربيَّةً أكثر. مواجِهًا هذا، يُجنِّبه استمراره في عزلته وصمته المعهودَيْن خلال عمله على الشاطئ أيَّ موقف، يؤدّي بزملائه إلى مناداته أو أن يضطرَّ إلى تبادل الحديث بالعربيَّة مع أحدهم. بكلّ الأحوال، لا يخفى على المستجمِّين والمستجمَّات معرفة هويَّة عمَّال النظافة الفعليَّة، سواءٌ أأحجموا عن الحديث بالعربيَّة وغيَّروا أسماءهم، أم لم يفعلوا.

يسارع عمله على الشاطئ إلى استبدال ضجيج الطلبة المدوّي المعهود في السابق بأصوات المستجمِّين والمستجمَّات البعيدة الهانئة

وصخب الموج في ساعات الصباح والمغرب. يعكّر فحسب هذا الصفو صوتُ الخشخشة الدائم للكيس البلاستيكيّ الكبير الذي يجرُّه خلفه بيده اليسرى، راميًا داخله ما تلتقطه يمناه من نفاياتٍ ملقاةٍ فوق الرمل. في تنقُّله بينها تبدو هذه النفايات كما لو أنّها إشارات مرور تدلُّه على المسار الذي عليه اتّباعه، وعليه يختفي عن الأنظار. هو لا يصعب عليه البتَّة رصد غياب التقاء نظرات المستجمّين والمستجمّات بنظراته. في أعقاب هذا، بعيدًا عن قدر الكرامة وعزَّة النفس الذي تنفحه فيه تجربة اعتقاله وأسس تربية والدته له على مدى سنين عمره، يتحوَّل كعامل نظافةٍ إلى غير مرئيٍّ من قبل روَّاد الشاطئ. إنّما يمكن الاشتباه بأنّه من منظورهم ما إن يلتقط، هو وبقيَّة عمَّال النظافة على حدٍّ سواء، قطعة نفاياتٍ من على الشاطئ، حتَّى يختفوا معها. نقيض ذلك هي والدته التي لا تسأم النظر إليه، وتلاحظ بعد أسبوعين من بدء عمله على الشاطئ، التحوُّل الحادَّ في لون بشرته. اسمرارها جرَّاء تعرّضه المتواصل لأشعَّة الشمس، يمحو على نحوٍ تامٍّ كلَّ أثرٍ للون الأبيض الشاحب الذي باشر باكتسابه إبَّان سنين اعتقاله الأربع، ثمَّ أبقى عليه لوقتٍ طويلٍ تواجده الدائم في الظلال، إن كان في غرفة الصفّ، في غرفته، أو في محلّ الفلافل، أو حتَّى في ورشة الدهان. يدفعها الأمر لأن تنطلق للبحث عن قبَّعةٍ له. تجد واحدةً مُقدَّمةً كهديَّةٍ من شركةٍ لبيع اللوز، رُسِم عليها كذلك زهرة لوز. تمنحه إيَّاها، طالبةً منه أن يَعِدَها بألَّا يخلعها عن رأسه.

معتمرًا تلك القبَّعة، يعود عامل النظافة إلى عمله بعد يوم إجازته بصحبة أبناء الجيران الذين يلصقون به لقب لوز على الفور. لكن في الأحيان النادرة التي ينادون عليه بصحبة قهقهاتهم، قد يصل الاسم مسامع الآخرين على أنّه أوز. لاحقًا، لا يعد يتصدَّى لهذه الزلَّة فالتسمية،

بحيث يبادر مَن حوله بتسميته أوز أو اعتقاد البعض بأنَّ هذا اسمه الحقيقيّ. إنَّما لا يبيت من المستهجن أن تحتّم ظروف عمله تدريجيًّا على أن يضع حدًّا وأخيرًا لعدم تغيير اسمه باسمٍ آخر، وفق ما نصحه أبناء الجيران منذ البداية. وهكذا، مع بلوغ حرارة الصيف أوجها، يصبح اسمًا لا يمتُّ بصلةٍ للغة العربيَّة، يلاحقه باعتياديَّة فيما هو متواجدٌ على الشاطئ، ينظّف الحمَّامات أو يجمع النفايات.

من مختلف ما يتجمَّع على الشاطئ، يمكن تمييز قناني المشروبات وأعقاب السجائر، ثمَّ أغلفة البوظة والطعام، قشور الفواكه والبذور، وبعض الأحذية والملابس، بما فيها حفَّاظات الأطفال، تستلقي أحيانًا بينها قناديل البحر وقد قذف بها الموج إلى البرّ شبه ميِّتة.

تهيئةً لملاقاتها حتفها، يستدعي ضوءُ الشمس يوميًّا قناديلَ البحر خلال ساعات الغسق إلى سطح المياه البرتقاليّ لتقع في فخاخ حركة الأمواج. يدفع الموج بها على مهلٍ إلى اليابسة، راميًا بها فوق الرمل، حيث تشرع بالاحتضار، ليس بعيدًا عن القاذورات التي يخلِّفها روَّاد الشاطئ بعد يومٍ جميل، جلُّه الاسترخاء والتسمُّر تحت أشعَّة الشمس. ترتفعُ وتيرة العمل ارتفاعًا ملحوظًا خلال هذه الفترة بالتحديد، حين يقتضي على جميع العمَّال تنظيف الشاطئ قبل حلول العتمة. يتجمّعون للقيام بذلك معًا حالما يتمطَّى قرص الشمس الغاربة فوق البحر، دانيًا من خطِّ التقاء الماء بالسماء، جاهزًا ليغطس داخل الأمواج في مشهد ينصرف المستجمُّون والمستجمَّات إلى استهلاكه يوميًّا. معظم هؤلاء يتابعونه، وإن بدون تركيزٍ كبير، حتَّى آخر رمقٍ فيه من على مقاعدهم في مقهى الشاطئ أو متربِّعين على الرمل، بينما يشرع عمَّال النظافة بجمع المقاعد بعد مسحها ولمِّ جميع النفايات. إلى جانب ما يقوم به من مهامّ،

مع أنَّ أحدًا لم يُشرِ إليه بعمل هذا، يلتقطُ عامل النظافة قناديل البحر بعصا جمع النفايات، منها ما لا يزال حيًّا ومنها ما أمسى جثثًا في سبيلها إلى الانكماش، ويرمي بها نحو الموج. هناك بين طيّاته تباشر القناديل التحرُّك برِقَّة كيسٍ بلاستيكيٍّ شفَّافٍ ممزَّق، يدفعه البحر المائج أينما يشاء. في الواقع، لا تختلف كثيرًا حركة قناديل البحر وهي ميتةٌ عمَّا هي عليها وهي حيَّة.

بعد حلول الظلام، يتناول شيئًا من المقهى ليأكله، ثمَّ يتَّجه إلى غرفة السكن التي يتشاركها مع بقيَّة العمَّال، هذا سوى الأمسيات التي يحلُّ فيها دوره في تنظيف الحمَّامات. إضافة إلى المناظر، تصاحب مهمَّةَ التنظيف هذه روائحُ نفَّاذة، لا سيَّما في حمَّام الرجال. إلَّا أنَّ ذاكرة الأنف قصيرة ولا بدَّ أن ينساها عمَّا قريب. كما ولا بدَّ أنَّه خبِرَ ما هو أشدُّ قرفًا منها على مستوى الرائحة والمنظر من الفتحة في الأرض، المعدَّة كمرحاضٍ في زنزانة العزل الانفراديّ. بعد كلِّ مرَّةٍ ينظِّف فيها الحمَّامات، بدلًا من العودة إلى غرفة السكن، يتَّجه إلى عتمة البحر الدامسة. يقوده إلى هناك صوت الأمواج والرغوة المتشكِّلة فوقها وهي تستهلُّ ملامسة المياه لخطِّ اليابسة، ولا يتمكَّن الظلام من تعتيم بياضها بالكامل. يجلس فوق الرمل متابعًا بعينيه كتل الرغوة المتبدِّلة التي تمتطي الأمواج مُتقدِّمةً باتِّجاهه قبل أن تنسحب من جديد وتتلاشى بغير عجلة، فيما تجلي ملوحة البحر رائحة الحمَّامات النتنة من أنفه. يجلس عامل النظافة وحيدًا هناك غالبيَّة الوقت.

تزامنًا مع تلك الليالي، قبلها أو بعدها بقليل، يمسي الأمر سيَّان حين لا يبدو بأنَّ هناك علاقةً بالوقت سوى انتظار انقضائه، تعتكف الطالبة داخل غرفة سكنها الجامعيّ، مستلقيةً في فراشها، حيث لا

سبيل متاحة لمقاومة الشرود. الوقت صيفًا، يمرُّ بطيئًا، حارًّا. تبقى طيلة فترة عطلة الجامعة، تجالد الحرّ الدّبق في غرفتها، لا تلتقي بأحد ولا يلتقي بها أحد. لا أحد يقرع بابها.

فقط مع دنوّ الصيف من نهايته، تخفّف لزوجة الحرارة من حصارها للطالبة. في حين يبقى غامضًا ممّا يدفعها فعلًا إلى مغادرة سريرها، تستهلُّ الأمر بمراجعة ما تكدَّس لدَيْها من مراجع وأوراقٍ جامعيَّةٍ قليلة. تراجعها ورقةً ورقة. أحيانًا، تتأمل ما دوَّنت فوقها من عبارات متفرّقةٍ بالعبريَّة على مدار السنة الدراسيَّة المنصرمة. تختار من بين هذه الأوراق ما تضعه في كومةٍ مرتّبةٍ على الطاولة. بقيّتها، غالبيّتها أوراقٌ مرسومٌ عليها أشكالٌ مختلفةٌ أو مخطوطٌ فوقها كلماتٌ نزيرة، ترميها على الأرض. يدفع هبوط الأوراق المتكرّر بكتل الغبار والشعر الملتحم معًا من تحت السرير، ناثرًا إيَّاها في أنحاء الغرفة. بعد إكمال مراجعتها، تجمع ما رمت على الأرض من أوراق، ومعها كتل الغبار والشعر، وتحملها لترمي بها في الحاوية المشتركة في طابق سكنها. تعود للغرفة وتضع الأوراق المرتَّبة في كومةٍ صغيرةٍ داخل ملفّ ترفعه إلى أحد الرفوف، وتفتح نافذة الغرفة. يدخل عندها هواءٌ طريٌّ الغرفة، تخالطه أصوات صافرات الدوريَّات العسكريَّة، قادمةً من أحد الأحياء الفلسطينيَّة القريبة. ما برح الوضع يزداد سوءًا يومًا بعد يوم.

تتبع الطالبةُ عمليَّةَ التوضيب تلك بعد أيَّام بالتوجُّه إلى إدارة سكن الطلبة الجامعيّ والتقدُّم بطلبٍ للانتقال من مكان سكنها الحاليّ إلى سكنٍ آخر في أسرع وقتٍ ممكن. ثمَّ تتقدَّم بطلبٍ إلى دائرة التسجيل في الجامعة لتبديل مسار دراستها. المجال الذي تطلب التسجيل فيه، يؤكّد أنَّها لن تلتقي خلال دراسته مع أيٍّ ممَّن درسوا معها العام الفائت،

كما لا دورَ فيه لمحاضرات الرياضيَّات. من الواضح أنَّها اتخذت قرارات تفضي إلى بعض التحوُّلات في حياتها. إلَّا أنَّه بالطبع ليس من الممكن البدء بحياةٍ جديدةٍ مباشرة. على الأقلّ تحصل بعد أسبوع على موافقةٍ بخصوص طلبها الأوَّل بنقل سكنها، ثمَّ بعد ما يقارب الشهر يوافَق رسميًّا على طلبها بتحويل مسارها الجامعيّ بدءًا من الفصل الدراسيّ المقبل قريبًا جدًّا.

يحلُّ هذا الفصل الدراسيّ بالتزامن مع انخفاضٍ ملحوظٍ في درجات الحرارة، مبشِّرةً بعودة الخريف. تستأنف الطالبة الالتحاق بمحاضرات الجامعة في تخصُّصها الجديد، ما يقودها إلى التواجد بين طلَّابٍ وطالبات لم تلتقِ بهم من قبل. إنَّها الآن في بداية سنتها الأولى مرَّةً أخرى، لكن في علم الاجتماع؛ مجالٌ يتَّضح بعد فترةٍ قصيرةٍ بأنَّه لا يتطلَّب من أحدٍ جهدًا يفوق القدرة على تكرار ما يقول المحاضر أو المحاضرة. لكونها لا تزال غير قادرةٍ على تدوين ما يقال في المحاضرات، تبدأ بمطاردة بعض الطلبة. كلُّ ما تحتاجه منهم هو تصوير دفاتر ملاحظاتهم كي تحفظها عن غيبٍ بإلهامٍ من ببَّغاء حبيسة قفص وُضِع على شرفةٍ ضيِّقة في الطابق الأرضيّ من عمارة سكنها الجامعيّ الجديد.

بين آنٍ وآخر تطلق تلك الببَّغاء صرخةً واحدةً مباغتة لا يفهم سامعها دوافعها البتَّة، إن هي تشي مثلًا بالاحتجاج على أمرٍ ما، أم هي تنبيه. ما لم يكن بالإمكان دحضه هو أنَّ عينيها، بلمعانهما خلف قضبان القفص، تحتضنان على الدوام نظرة ملؤها تنبُّهٌ فزِع. تحدِّق فيهما الطالبة مرَّةً تلو المرَّة في طريقها من سكنها الجامعيّ وإليه. سلام سلام، تنبُّهٌ فزِع تنبُّهٌ فزِع. لم يكن لأيِّ حدثٍ أو حديثٍ أن يغيِّر هذا التنبُّهَ الفزِع في عيني الببَّغاء داخل حبسها. لكن عاديّ عاديّ، يمكن للبعض الزعم.

إنَّها واحدةٌ من ملايين الببَّغاوات التي يجري عزلها في أقفاص لأسبابٍ لا ضلع لها فيها. كما من أشدِّ العواقب التي يتسبَّب بها عزلها هي غياب المحفِّزات من حيواتها، وعليه تتدهور قدراتها الذهنيَّة ووضعها النفسيّ. بل من المحتمل أن يسوق حبسها إلى ظاهرة دفعها، هذه الببَّغاوات السّجينة، بمناقيرها القويَّة المنحنية إلى ريشها ونَتْفِه. إنَّه ريشٌ رماديٌّ في حالة الببغاء هنا. ولحسن حظِّها يتمُّ وضعها في قفصٍ على شرفة، بمعزلٍ عن ضيقها، تقع في الطابق الأرضيِّ من أحد مباني السكن الجامعيّ. الموقعُ بالأساس يخوِّلها التواجد إبَّان حبسها في محيطٍ أكاديميّ يوفِّر لها في نهاية المطاف فرصة مراقبة طلبةٍ من المفترض أنَّ كفاءاتهم وقدراتهم الذهنيَّة عالية. إنَّ هكذا محيط قد يحثُّها على اكتساب مهاراتٍ وقدراتٍ لغويَّة لم تكن لتتمكَّن منها لو أنَّها حُبِست مع دجاجاتٍ مثلًا. فالببَّغاوات، إجمالًا، تُبدي ميلًا كبيرًا لمحاكاة تصرُّفات من هم حولها.

مع اقتراب الشتاء الذي يضع لحرارة الطقس حدًّا لا تتجاوزه، تنصرف الطالبة مساءً عقب مساءٍ على مدار بضعة أيَّامٍ إلى وضع دوائر حول إعلاناتٍ لوظائف شاغرة تخلو من شرط الخدمة العسكريَّة للتقدُّم إليها. من المفهوم أنَّه بعد هجرها لعادة اللوذ إلى موقف السيَّارات، يصير لزامًا عليها الانخراط في وظيفةٍ ما تبرِّر تفاديها المتصاعد مجدَّدًا التواجد في قاعات المحاضرات. ثمَّ في ليلة ما تفرَغُ من تدوين قائمةٍ لا بأس بها من الوظائف التي ربَّما لديها فرصٌ للحصول عليها. يمكنها استكمال سعيها والاتِّصال بالمعلنين عن هذه الوظائف بدءًا من صباح اليوم التالي.

لدى عامل النظافة، يبيت الوقت ليلًا أيضًا، إلَّا أنَّه لا يزال صيفًا. مرَّةً أخرى، يجلس وحده أمام البحر، حين يحمل الموج إليه بغتةً تعليقًا

بالعبريَّة بصدد أهمِّيَّة ارتداء قبَّعة شمسٍ في الظلام الدامس. يجمد على وقع التعليق غير المتوَّقع للوهلة الأولى، قبل أن يليه بعد لحظةٍ تعليقٌ ثان يأتي في صيغة سؤالٍ مُختزل. لِم لا؟

ينبثق السؤال هذه المرَّة من داخل العتمة إلى يمينه. يلتفت صوبها. في قلبها تظهر عتمةٌ أشدُّ حلكةً من الليل نفسه، تحيط بها من كلِّ صوبٍ أنوار المقهى البعيدة، راسمةً هيئة شخص. يردُّ بأنَّ الفضل يعود لنصيحة قدَّمتها له والدته التي طلبت منه ألَّا يخلع قبَّعته أبدًا عن رأسه. يرتجف الظلُّ المعتم في ضحكةٍ قصيرة يلتهمها ضجيج الأمواج. يقترب الظلُّ من عامل النظافة أكثر، مُتحوِّلًا إلى مُستجمَّةٍ لا تزال تبتسم، لا يزال غير قادرٍ على تمييز تفاصيل وجهها بالكامل. تبدأ محادثةً بسيطةً عن نسيم الليل العليل بعد حرِّ النهار، وخلوِّ الشاطئ من الناس. لكنَّ صوت الموج المرتفع يمنع من سماع أحدهما الآخر جيِّدًا. تتقدَّم المستجمَّةُ أكثر. في يدها اليمنى سلسلة مفاتيح يصدر عنها رنينٌ قصيرٌ حالما تتناول سيجارةً من داخل علبة السجائر التي تحملها في راحتها. تسأله إن كانت لديه ولَّاعة. يشرع بالبحث في جيوبه، فيما يجيب متمتمًا بأنَّه لا يدخّن. يسود الإرباك حتَّى ينتصب من مكانه قائلًا إنَّ بإمكانه الذهاب لإيجاد ولَّاعة، ويغادر متَّجهًا نحو المقهى. يلاحقه نداؤها أنَّ لا حاجة لذلك حقًّا. لكنَّ النداء، كعهد نداءاتٍ سابقة، يتلكَّأ قبل أن يتلقَّفه الموج، ويدفعه إلى جوف البحر.

لدى عودته بعد فترةٍ وجيزة، يجدُ المستجمَّة جالسةً فوق الرمل في مواجهة رغوة الموج. يمدُّ بعلبة الكبريت إليها. تشكره. تحاول إشعال عود ثقاب لتولِّع سيجارتها التي تتدلَّى من فمها، إلَّا أنَّ نسيم البحر يهبُّ ويطفئها، ثمَّ مرَّةً ثانية، وثالثة. ينحني عامل النظافة مادًّا يديه

باتّجاهها محتضنًا الشعلة التي تنطلق من عود الثقاب، متنقّلًا معها نحو نهاية السيجارة، حيث تضيء عنق المستجمَّة بلونٍ برتقاليّ يحاكي لون الرمل في ساعات الغسق. نظر المستجمَّة يتعلّق بباطن يديه خلال احتضانهما الشعلة التي تكشف عن كفَّين سمراوين خشنتين ترتجفان قليلًا. ارتجافهما ليس غريبًا عن الارتجاف الرقيق لسطح البحر وحتَّى لأنوار المقهى والنجوم والكواكب. ثمَّ ينطفئ كلُّ شيء. تشكره مجدَّدًا ثمَّ تدعوه للجلوس. يجلس إلى يسارها. جسمها الآن يحجب نسيم البحر الليليَّ عنه، بينما يحاصرهما صوت الموج من كلّ صوب. يستسلمان إليه صامتَيْن. بعد سحبها بضعة أنفاس من السيجارة تسأله عن اسمه. يبلع ريقه ومعه حرف الـ«ل» مطلقًا صوب الليل كلمة أوز. لا يسألها عن اسمها، مع ذلك تنطق به، إلّا أنَّ الموج يثب كي يتلقَّفه بسرعة ويُطعمه لقناديل البحر الهائمة في عتمة المياه، حائلًا دون وصوله مسامع عامل النظافة. أو ما بات اسم بطلنا؟

يستمرُّ الحوار. تسأله عمَّا يفعله هنا على الشاطئ في مثل هذه الساعة المتأخّرة. يردُّ بأنَّه يجلس عليه. يفلت من فمها تأفُّفٌ قصير. تعيد صياغة سؤالها بأسلوبٍ مغاير، مستفسرةً هذه المرَّة عمَّا يفعل في الحياة على وجه العموم. بعد لحظاتٍ من التردُّد يجيب بأنَّه يدير مكتب خدماتٍ لترتيب مراسم الدفن والجنازات لقناديل البحر. تضحك المستجمَّة عقب سماع ردّ لن يثير ضحك الجميع. قد يدفع بقناديل البحر، بما فيها الميتة المنتشرة حولهما، إلى الإيماء مبتسمة لو كانت لها رؤوسٌ لتومئ بها أو شفاهٌ لتبتسم. لكن أيُّ ابتسامةٍ تتمكَّن منها قناديل البحر في هذه اللحظة لن تكون بريئة، إنَّما تنطوي على سخريةٍ لاذعة، إن لم تكن لاسعةً كقرصاتها. بأيٍّ من الأحوال، على العكس من اليأس الذي

ينبعث عن الوقوف على هامش الحياة، الوقوف على هامش الحقيقة قد يبعث على الضحك. إنَّه هامش يعتق عامل النظافة لهذه الليلة على الأقلّ من ثقل الواقع، ويسوقه إلى الحديث عن أمورٍ لا علاقة لها بحياته الخاصَّة بتاتًا. بعدما يتعاظم الارتياح بينهما، يقف من مكانه من جديد ويتَّجه إلى القسم الخلفيّ من المقهى. هناك ينادي على أحد العمَّال عبر باب المطبخ المخصَّص لإدخال البضاعة وإخراج النفايات. عقب محادثةٍ هامسةٍ مقتضبة، يختفي عامل المطبخ، ثمَّ يعود بعد دقائق حاملًا قنِّينتَيْ جعَّة، يمنحهما لعامل النظافة، ثمَّ يضرب بكفِّه على ظهر الأخير قائلًا إنَّه وأخيرًا سيتفتَّح اللوز.

حاملًا القنِّينتين الباردتين، ينسحب عائدًا إلى حضن الظلام، متَّخذًا له كوجهةٍ الجسم الأشدَّ عتمة وما زال جالسًا في مواجهة رغوة الموج البيضاء. حالما يصل، يضع القنِّينتين فوق الرمل الذي تُسارِع حبيباته بالالتصاق بقطرات الندى الصغيرة المتكوِّنة فوق الزجاج، ثمَّ يجلس إلى الجهة الثانية. لحظاتٌ وينطلق صوت البلع المكبوت خلال شربهما الجعَّة التي يتذوَّق فمُه مرارةَ طعمها لأوَّل مرَّة.

يمضي الليل مواصلًا عتمته، مراوغًا قدرة أيٍّ منهما على حساب ساعاته، مع أنَّه بالإمكان حسابها عبر تحوُّل الحذَر بين الاثنين إلى تجاذب، أو شيءٍ من هذا القبيل. تقترب يداهما اللتان تكونان تعبثان بالرمل في لحظةٍ ما، وتتلامسان. ثمَّ يتقارب جسماهما، ويتعانقان بتؤدة، يتبادلان القبل وربَّما أكثر من ذلك لاحقًا. لكن للتنويه، لم يكن السببُ خلف هذا الذي يحدث استهتارًا ما أو دافع المغامرة، بل رهافة حسٍّ بائنةً مع أنها غامضةٌ ربَّما لم يعهدها أيٌّ منهما، أو يكونان قد نسيا بأنَّهما شعرا بها من قبل. عامل النظافة بالتحديد يصل تلك الليلة مكانًا لم

يقربه سابقًا، يسير إليه بمحض إرادته، جلُّه الكذب على المستجمَّة. كذبٌ واضحٌ بأنَّه ليس ببساطةٍ حصيلةَ استهزائه من نفسه أو من العالم مِن حوله، إنَّما مُسبِّباته أخرى، لا يمكن لأحدٍ عدم الاعتراف بها. فمع أنَّ لا علاقة مباشرةً بين الحدثين، هي مسبِّباتٌ مشابهةٌ لتلك التي تؤدِّي بالطالبة إلى إجراء ما يقارب أربعين اتِّصالًا هاتفيًا، تجيب خلالها على السؤال عن مصدر لكنتها، قبل أن تجد عملًا.

طبيبٌ نفسيٌّ لا يأبه باللكنة التي تلاحق عبريَّتها، كما وترافق عبريَّته هو الآخر لكنة. يقول إنَّه يبحث عن شخصٍ بمقدوره الصمود أمام التحدِّيات التي قد يترتَّب عليها العمل. تردُّ مؤكِّدةً استعدادها التامّ. يحدِّدان موعدًا. عليها التوجُّه للقائه في مكتبه ذلك العصر.

المكتب الذي تصل لزيارته، يقع في حيٍّ في المدينة يسكنه ميسورو الحال من الإسرائيليِّين، في بيوتٍ غالبيَّتها قديمةٌ تعود لفلسطينيِّين كانوا يومًا من ميسوري الحال، لكن ليس بالتأكيد بعد تهجيرهم في عام 1948. المكتب ذاته لم يكن في أحد هذه البيوت، إنَّما في مبنًى حديثٍ بسيط يعود لستينيَّات القرن الفائت. الطبيبُ النفسيُّ ضخمٌ بعض الشيء ومرح. بعدما يخبرها عن طبيعة العمل، يتَّضح سبب عدم الحاجة إلى الاستفسار عن لكنتها بالعبريَّة. تجيب بأنَّه يمكنها المحاولة. يسألها عن الأجرة التي تتقاضاها مقابل عملها في العادة. تنبس شفتاها بمبلغٍ سخيٍّ جدًّا. يقف عندها، ويمدُّ يده الضخمة نحوها، وتقف هي وتمدُّ يدها الصغيرة نحو يده التي تحتويها من كلِّ جانب، معلنَيْن بتصافحهما الاتِّفاق. تسأله وهي واقفة، يدها لا تزال في يده، عن اليوم الذي عليها المباشرة فيه بالعمل وعن العنوان. يردُّ الطبيب، مسرِّحًا يدَها من قبضة يده، بأنَّه يمكنها اختيار اليوم الذي يناسبها.

تختار يوم الجمعة، اليوم الأوَّل من عطلة نهاية الأسبوع في الجامعة، الساعة الثامنة صباحًا. تدفع يدها في حقيبتها، وتخرج قصاصةً ورقيَّة تعود لفاتورةٍ قديمة. تسجِّل فوقها بخطٍّ صغيرٍ جدًّا العنوان الذي يتلوه الطبيب النفسيُّ عليها. العنوان يشير إلى حيٍّ بعيدٍ عن مكان سكنها. لكن وفق علمه، هناك حافلةٌ تنطلق من منطقة الجامعة إلى العنوان المحدَّد بالضبط، المحطَّة الأخيرة أو ما قبل الأخيرة.

تصل سكنها الجامعيَّ بعد حلول العتمة، فالنهارات هي أقصر ما تكون هذه الأيَّام من بداية الشتاء. الساعة ليست متأخِّرة. البَبَّغاء لم تنم بعد. سلام سلام، المحطَّة الأخيرة أو ما قبل الأخيرة المحطَّة الأخيرة أو ما قبل الأخيرة.

عودةً إلى عامل النظافة حيث لنتذكَّر، لا يزال الوقت صيفًا، لكنَّه لم يعد ليلًا باقترابه من الفجر نحو نهايته يدخِّن عامل النظافة لأوَّل مرَّةٍ في حياته. يسحب نفَسَيْن ثمَّ يكتفي، دافعًا السيجارة داخل الرمل، تاركًا إيَّاها تنتصب بجانب بقيَّة أعقاب السجائر التي دخَّنتها المستجمَّة تلك الليلة. هي غافيةٌ بجانبه، شبه مغطَّاةٍ بقميصه الخفيف، حمايةً من الناموس أو من برد الفجر، ربَّما من كليهما. بينما هو جالس يتعلَّق نظره برتابة حركة الموج قبالته، يتهادى إلى مسمعه صوت زقزقة العصافير وقد اختبأت بين سعف النخيل غير البعيدة، ليختلط بجلبة الموج الصباحيِّ الناعمة. ينقل بصره نحو وجهها، قبل أن يعود لمراقبة سطح البحر الذي يأخذ لونه بالتبدُّل خلسةً من رماديٍّ باردٍ إلى برتقاليٍّ مع اقتراب شروق الشمس. بقي وقتٌ قليلٌ حتَّى تبدأ ورديَّته. في العادة يمسحون مقاعد الاستجمام أوَّلًا مزيلين عنها ما تجمَّع فوقها خلال الليل من رمال ولاحقًا ندى الفجر، ثمَّ يوزِّعونها على الشاطئ، بعد لمِّ ما تكوَّم عليه في

غضون الساعات الأخيرة من نفايات تركها بعض الساهرين والساهرات أو أرجعها الموج إلى اليابسة. يواصل جلوسه بجانب المستجمَّة النائمة إلى أن توقظها الشمس الصاعدة. ترفع رأسها على حين غرَّة كما لو أنَّ فقمةً درَّبتها على الصحو، بالكاد قادرةً على فتح عينيها. يقرِّب رأسه باتِّجاهها مظلِّلًا وجهها بحيث تتمكَّن من فتحهما. تبتسم معلنةً بأنَّه وسيمها، فيجيب بأنَّها ضوؤُه البرِّيّ. يبعث التعليق بمسحةٍ خفيفةٍ من الدَّهشة إلى عينَيْها. ترفع ظهرها لتجلس، ملتصقةً بذراعه الأيمن. تقول إنَّ المنظر جميل، وهي مقولةٌ قابلةٌ للتصديق إلى درجةٍ كبيرة. ثمَّ يلوذان بالصمت، بصرهما يلاحق حركة الموج. تترك ذراعه برفق. فجأة يقول إنَّ اسمه الحقيقيَّ ليس أوز، ثمَّ يلفظ اسمه. اسمٌ عربيّ، لا لَبْس في الأمر. يضيف بأنَّه عامل نظافةٍ على الشاطئ. يلتفت إليها. بصرها لا يزال مُعلَّقًا بالموج. بعد لحظات تقف فينزلق قميصه من جسمها فوق الرمل. تغادر. يراقب ظهرها الذي يحاول صوت الموج اللحاق به، في حين يرتخي جسمه كما لو أنَّه في سبيله إلى الزوال. يستلقي على ظهره فوق الرمل. من حوله تنتشر ثانيةً بضعة قناديل بحرٍ شفَّافة، هي الأخرى برخاوة جسمه. إنَّها فعلًا لا تأبه كيف يسحبها الموج، دافعًا إيَّاها من موضعها إلى موضعٍ أبعد بقليلٍ على الرمل، مقرِّبًا إيَّاها أكثر من حتفها. في هذه الأثناء، يبدأ الغموض بالتبدُّد من أنحاء الشاطئ ليحلَّ محلَّه الفراغ، ثمَّ الذل.

لاحقًا في الصباح، يستدعيه المسؤول ويعلمه بأنَّه مطرود. لقد أخبره العصفور بما حدث هذه الليلة، عن خداعه للمستجمَّة بإخفائه لهويَّته وكذبه فيما يخصُّ اسمه وحقيقة ما يفعل على الشاطئ. هو لم يخطر بباله للحظة، كما يبدو، ما يمكن أن يعني هذا بالنسبة إليها. يختتم

المسؤول قوله إنَّ ما أتى عليه في قمَّة النذالة، وأنَّ المستجمَّة تصرَّفت بطريقةٍ حضاريَّة، فقد أمكنها إبلاغ الشرطة.

بالأحرى، لو حدث ما حدث الليلة الفائتة، لنقل بعد عقدين من الزمن، ليس من المستبعد أن يجد عامل النظافة نفسه في الحبس المنزليّ لمدَّة سنتَيْن والسجن الفعليّ لمدَّة عامٍ ونصف عامٍ بتهمة «الاغتصاب عن طريق الخديعة»، لكن من الممكن بعد الاستئناف تقليصها إلى تسعة أشهر. ثمَّ على هذه الوتيرة، نظرًا للمسار الذي تتَّخذه الأمور مع ازدياد الوضع سوءًا يومًا بعد يوم، يمكن للعقوبة بعدها بعقدَيْن إضافيَّيْن أن تصبح أشدّ، في حال أُخِذت بعين الاعتبار الخلفيَّة القوميَّة كدافعٍ وراء فعل «الاغتصاب». يجري تسريحه من عمله ذلك الصباح.

لا يزال النهار في بدايته. عاطلًا عن العمل، يبقى أمامه يومٌ كاملٌ عليه إضاعته قبل عودته إلى البيت، لتجنيبه إثارة سلسلةٍ طويلةٍ من الأسئلة من قِبل والدته في حال رجع مبكِّرًا على غير المتوقَّع. يغادر ماشيًا على الأقدام في الحرّ الشديد الذي تثقله رطوبة البحر. يصل محطَّة الحافلات المركزيَّة، حيث يقضي الساعات المقبلة متسكِّعًا في أنحائها. خلال هذه الساعات، يتعرَّض للتوقيف وفحص أوراقه من قبل قوَّات حرس الحدود، كما تترتَّب عليه الإجابة على بعض الأسئلة عن ماضيه الأمنيّ. يحدث الإجراء ذاته ثانيةً عقب تبدُّل الدوريَّة العسكريَّة بأخرى بعد الظهر. في المرَّتين كلتيهما، حالما يعيد له الجنود أوراقه، ينصرفون إلى تجنُّب النظر إليه، حائلين دون التقاء نظراتهم بنظراته القلقة إبَّان طوافه في أرجاء المحطَّة.

للمحطَّة مدخلان. واحدٌ مخصَّصٌ لدخول الحافلات، يستهلُّه ما يسمَّى بالحاجز؛ قضيبٌ حديديٌّ قابلٌ للتحريك، ينهضُ الحارس من مقعده، يرفعه قليلًا ثمَّ يدور به فاتحًا إيَّاه في حركة تحاكي شكل القوس كي تلج الحافلةُ القادمة ساحة المحطَّة. بعدها يعيد الحارس القضيب إلى موضعه السابق، ثمَّ يعود إلى مقعده. المدخل الثاني مخصَّصٌ للمشاة ومظلَّلٌ بسقف تركبه عمارةٌ عاليةٌ مكوَّنةٌ من عشرة طوابق في أدنى تقدير. رماديَّة المكان الناجمة عن كون المحطَّة مشيَّدةً من الإسمنت ومظلَّلة، قاتمةً جدًّا. إلى جهة اليسار من الممرّ تصطفُّ محالُّ لبيع مختلف الأشياء، منها محلَّات بيع السكاكر والمكسَّرات، وموادّ البناء، والملابس الداخليَّة، والكتب، والتذاكر، والفلافل، والسجائر. يتأمَّل علب السجائر المرتَّبة في صفوفٍ مُنفصلةٍ وفق الاسم، صاعدةً نحو الأعلى. ما إن يسحب البائع إحدى العلب التي في القاع ويقدِّمها للزبون، ينزلق ما في الصفِّ من علبٍ إلى الأسفل لسدِّ الفراغ الذي يخلِّفه اختفاء العلبة.

في مكانٍ وزمنٍ آخرين، لم تكن الحافلة صباح يوم الجمعة مكتظَّة. يخيِّم صمتٌ نَعِس على ركَّابها الذين يصعدون ويجلسون بجانب بعضهم البعض، ثمَّ ينزلون. تُنقِّل الطالبة عينيها بلا دعةٍ بين وجوههم والمقعد بقربها الذي يبقى شاغرًا. لا يجلس أحدٌ بجانبها طوال الرحلة. في الطريق، يصعد جنديَّان إلى الحافلة أيضًا ويفحصان إن كان هناك فلسطينيُّون بين الركَّاب. ينزلان بصحبة شابَّيْن يبدو واضحًا من مظهرهما وطريقة لبسهما بأنَّهما عاملان. الجنديَّان لا يلتفتان إليها. هي، كبقية الركاب، تلتزم الحياد حيال ما يحدث. إن لم تفعل، قد يتسبَّب تدخُّلها بتأخيرها عن الموعد المحدَّد لبدئها العمل. وفعلًا، تنجح في

الوصول إلى المبنى المشار إليه في العنوان الذي أملاه عليها الطبيب النفسيّ في الساعة الثامنة إلّا خمس دقائق. تقف أمام مدخله الرئيسيّ بانتظار حلول الساعة الثامنة، الموعد المتّفق عليه.

بعد دقائق تظهر سيّارةٌ رماديّةٌ فارهةٌ حديثة الطراز، تركن في الموقف شبه الفارغ، في رقعةٍ مُخصَّصةٍ للسيّارات قرب الرصيف بمحاذاتها. تنزل سيّدةٌ في نهاية الخمسينيّات من عمرها، تحمل ابتسامةً فيها قدرٌ كبيرٌ من الطيبة. غير أنّه بدلًا من أن تتقدّم نحوها، تدور السيّدة باتّجاه صندوق السيّارة الخلفيّ وتخرج منه كيسًا بلاستيكيًّا أبيض شفّافًا مليئًا بموادَّ وأدوات تنظيف. لا بدَّ أنّها المشغّلة، وهو ما يتأكّد حين تقترب من الطالبة وتسألها إن كانت هي عاملة النظافة التي أرسل بها الطبيب النفسيّ. يبين في سؤالها لكنة تطغى على عبريّتها، تماثل جدًّا لكنة الرجل الذي يُقْدم على مصادقة شقيقها ويجيء من الولايات المتّحدة الأميركيّة. للمشغّلة، إضافةً إلى ابتسامتها الطيّبة، نظراتٌ يشعُّ منها بريقٌ دافئ. تتّجه الاثنتان إلى داخل العمارة. تصعدان الدرج حتّى الطابق السادس والأخير. تقصد المشغّلة باب شقّةٍ بعينه. قبل أن تفتحه، تدور إلى الخلف وتقول برقّةٍ شديدةٍ لعاملة النظافة إنّه يمكنها إلقاء نظرةٍ عبر فتحة الباب أوّلًا، ثمّ لها أن تُقرّر إن كانت توافق على تنظيف الشقّة أم تُفضّل عدم القيام بذلك. تردف قولها كذلك بأنّ لديها قطّة، متسائلةً إن كانت عاملة النظافة تعاني أيَّ حساسيّةٍ من القطط أو يضيرها وجودُ قطّةٍ في الشقة. تجيب بالنفي. تعود المشغّلة لتشرح بأنّها قطّةٌ تهاب الناس وتفضّل العزلة. تفتح باب الشقّة حتّى نصفه فقط، ثمّ تلتفت نحو عاملة النظافة وتدعوها لإلقاء نظرةٍ على الداخل. حين تدفع هذه برأسها عبر الباب نصف المفتوح يتّضح لها لِم هو مفتوحٌ جزئيًّا. أكوامٌ عارمةٌ

من النفايات، تحول دون إمكانيَّة فتحه أكثر. المشغِّلة، على حدِّ وصف الطبيب النفسيّ، امرأةٌ تعاني من اضطراباتٍ نفسيَّةٍ شديدة يقف هو على علاجها منذ فترة. إحدى عواقب هذه الاضطرابات عدم قدرتها على تنظيف شقَّتها منذ أكثر من عامين، كما أنَّها لم تتخلَّص من القمامة خلال كلِّ هذه الفترة، أو بالأصح، انصرفت إلى إلقاء القمامة داخل الشقَّة. إلَّا أنَّها مؤخَّرًا وافقت على أن يقوم أحدهم بتنظيفها، وأحدهم هو شخصيَّة رئيسيَّة في هذه الرواية. فجأةً تعلو خشخشةٌ من بين مرتفعات القمامة قبل أن يبزغ ظلُّ كائنٍ صغير يركض بسرعةٍ فائقة بين الأكوام، ثمَّ يسود صمتٌ مطبِق. بحركةٍ شبه مسرحيَّة ربَّما لم تقصدها البتَّة، تدفع عاملة النظافة الباب بقوَّة وتدخل. بعد برهةٍ من تأمُّل المنظر، تقول إنَّها تحتاج إلى عشرِ ساعات عمل، طالبةً من المشغِّلة العودة قرابة الساعة السادسة مساء. تدلف إلى الداخل محمَّلة بأدوات التنظيف وموادِّه التي تتسلَّمها، ولن تلجأ لاستخدامها إلَّا بعد وقتٍ طويل. مهمَّتها ستقتصر لبضعِ ساعاتٍ على جمع النفايات في أكياسٍ بلاستيكيَّةٍ سوداء ضخمة، تجدها داخل الكيس الأبيض الشفَّاف مع بقيَّة أغراض التنظيف.

تتكوَّن غالبيَّة النفايات المتجمِّعة في الأكياس، وتلك التي لا تزال تنتشر في أرجاء الشقَّة؛ من أغلفة أطعمةٍ ووجباتٍ جاهزة، البيتزا أكثر من غيرها، وقناني مشروباتٍ خفيفةٍ ومياه، ثمَّ مئات الصحف، إضافةً إلى صناديق مختلفة الأحجام وعلب الطعام المحفوظ المخصَّص للقطط التي تكون فارغةً شبه نظيفة وقد لعقتها القطَّة كما يظهر حتَّى آخر لقمة فيها. هناك نفاياتٌ أخرى؛ ملابس، بعض الأطعمة المتعفِّنة ومناديل مطبخ، وأحيانًا نقودٌ ورقيَّةٌ وقطعٌ نقديَّة. في بداية الأمر تحاول عاملة النظافة استخلاص ما يمكن استخدامه من بين النفايات والاحتفاظ

به، إلَّا أنَّه بعد مضيّ ساعتَيْن وهي لا تزال على بعد مترَيْن أو ثلاثةٍ من باب الشقَّة، تشرع بجمع كلّ ما هو ملقًى على الأرض وتضعه في أكياس القمامة. مع حلول ما بعد الظهيرة، تفرغ من لمّ جميع النفايات في غرفة الجلوس التي تظهَرُ في وسطها أريكةٌ وسجَّادة، إلى جانب ما يقارب عشرة أكياسٍ بلاستيكيَّةٍ سوداء ممتلئةٍ حتَّى حلقها، تصطفُّ عند باب المدخل. يمكن الآن لعاملة النظافة المشي لا القفز في أنحاء الغرفة ونحو بقيَّة الغرف، وهي غرفة نومٍ وحمَّامٌ ومطبخ. الشقَّة صغيرة. ترجع إلى الأكياس الواقفة قرب باب المدخل وتباشر بحملها كيسًا كيسًا، ناقلةً إيَّاها جميعًا خارج الشقَّة. تحملها مجدَّدًا كيسًا كيسًا، ناقلةً إيَّاها حتَّى نهاية الجزء الأوَّل من الدرج، فالجزء الثاني، فالثالث، فالرابع، فالخامس، فالسادس، فالسابع، فالثامن، فالتاسع، فالعاشر، فالحادي عشر، حتَّى تصل نهاية الجزء الأخير في الطابق الأرضيّ. ثمَّ تحملها كيسًا كيسًا، لترمي بجميعها في حاوية النفايات الضخمة الواقعة إلى يسار المبنى وتحتلُّ قسمًا من موقف السيَّارات. لا تكون قد رمت أكثر من أربعة أكياسٍ حين تظهر المشغِّلة ثانية تحمل في يدها كيسًا بلاستيكيًّا أبيضَ شفَّافًا آخر، وإن بحجمٍ أصغر هذه المرَّة. تُحيّي عاملة النظافة بابتسامتها الطيّبة وتقول إنَّها أحضرت لها شيئًا لتتناوله للغداء. تشكرها عاملة النظافة باقتضاب. من الجليّ أنَّه لا وقت لدَيْها لإضاعته. تغادر المشغِّلة. تضع الكيس فوق شجيرةٍ مقصوصةٍ في شكل مكعَّبٍ قرب مدخل العمارة، وتعود لمواصلة رمي الأكياس المنبقِّية في الحاوية. حالما تنتهي، تصعد الدرجات حاملةً الكيس الصغير معها، عائدةً إلى الشقَّة. تدخلها، تخرج لفَّة الطعام من الكيس، ثمَّ تضع الكيس شبه الفارغ إلَّا من منديلَيْن ورقيَّيْن على الأرض، وتجلس على الأريكة. تفكُّ

الورقة الملفوفة لتجد داخلها ما يبدو بأنَّه رغيف خبزٍ محشوٌّ بكلّ ما يطيب للمرء. تلتهم الرغيف في البداية بوحشيَّة تكاد أن تخنقها حتَّى تتدارك نفسها وتنصرف إلى أكله ببطءٍ نسبيًّا، خاصَّةً لمن يبدو في مثل جوعها، بعد ساعاتٍ من العمل المتواصل.

لا تَفرغُ عاملة النظافة من تنظيف الشقَّة في الموعد الذي جرى الاتِّفاق عليه في الصباح. تقرع المشغِّلة جرس الباب في تمام الساعة السادسة وتدخل، في حينٍ تسرع هي خارجةً من الحمَّام إلى غرفة الجلوس، في يدها سكِّين، وتطلب منها العودة بعد ساعتين إن أمكن من فضلها. إنَّها تحتاج إلى وقتٍ أطول حتَّى تفرغ من تنظيف كلّ شيء.

صراعها لمَّا يُحسَم بعد مع بعض الآثار داخل مقعد الحمَّام التي تبدو إسمنتيَّةً في نظرةٍ أولى. إنَّها آثارٌ متيبِّسةٌ لشيء لا يمكن معرفة كنهه، وفشلت محاولتها من قبل بتنظيفه بالفرشاة. تدفعها الآثار إلى اعتماد سكِّين تأتي به من المطبخ وتطعنها حتَّى تتفتَّت. هذا يسهِّل من عمليَّة تليفها، لكن دون التمكُّن من إزالتها كلِّيًّا. لا يزال ممكنًا للعين المتمرِّسة رؤية بقايا آثارٍ خفيفة، أو قد تكون تلك الآثار متخيَّلةً لا غير. بعدما تنتهي من تنظيف كامل الحمَّام، وهو آخر ما تنظِّف في الشقَّة، تضع جميع المماسح واللِّيف والكفوف والسكِّين ونفاياتٍ قليلةٍ أخيرةٍ في كيسٍ بلاستيكيٍّ أسود ضخم لا يمتلئ إلَّا حتَّى نصفه. تحمله إلى حاوية النفايات في الخارج وترميه. قبل صعودها الدرج، تتوقَّف عند الشجيرة التي قرب المدخل. تقصُّ بعض أغصانها الخضراء، جامعةً إيَّاها في ضمَّةٍ صغيرة. تتَّجه إلى الشقَّة، تدخل المطبخ، تضع الضمَّة داخل كأس تملؤه بالماء حتَّى نصفه وتحطّه وسط الطاولة، إلى جانب ما وجدت من نقودٍ خلال عمليَّة التنظيف. تسحب المقعد الذي بمحاذاة

الطاولة وتجلس فوقه، حتَّى حلول موعد عودة المشغِّلة. كان هناك ربع ساعةٍ إلى ذلك الحين، تمضيها عاملة النظافة ساهمة.

يبقى أمر القطَّة التي تكون معها في الشقَّة دون أن تظهر البتَّة مُحيِّرًا. ربَّما تكون عاملة النظافة رمتها بالخطإ عقب اختبائها داخل أحد الصناديق مع بقيَّة النفايات، وهي الآن محبوسةٌ داخله في كيسٍ بلاستيكيٍّ أسود محكم الإغلاق يقبع تحت الكثير من الأكياس الكبيرة الأخرى في الحاوية.

خمس دقائق قبل الثامنة مساء يُقرع الجرس. يتردَّد صوته عاليًا حادًّا في أنحاء الشقَّة شبه الفارغة، يتخلَّله صوت فتح الباب. تترك مقعدها في المطبخ الصغير وتتَّجه صوب المدخل، حيث تجد المشغِّلة تدور في غرفة الجلوس ببطء، وجهها يحمل ابتسامة ترافقها نظراتٌ هائمة. عاملة النظافة تبدو متعبة. تتَّسع ابتسامة المشغِّلة أكثر حين تدخل المطبخ ويقع بصرها على ضمَّة الأغصان الخضراء في الكأس على الطاولة. وفجأة، تظهر القطَّة أيضًا، ما يحدو بالمشغِّلة التخلِّي عن حالتي الإعجاب والدهشة اللتين تتملَّكانها حتَّى تلك اللحظة وتهرع إلى القطَّة. يبدو بأنَّ القطة نجت من حملة التنظيف. تعانقها المشغِّلة بسعادةٍ كبيرةٍ بائنة. بعد وقتٍ من العناق والتدليك، تضعها على الطاولة، لكنَّ القطَّةَ تقفز عنها وتختفي في لمح البصر. تعقِّب المشغِّلة بأنَّها، كما أخبرتها من قبل، قطَّةٌ تهاب الناس جدًّا. أجل، القطط إجمالًا لا تستحسن الحضور المفاجئ لأحدٍ في حيِّزها والضجيج الذي يتسبَّب به هذا الحضور، باثَّا الذعر فيها. وبالتَّأكيد، جلبة عاملة النظافة الممتدَّة في الشقَّة على مدى ساعات، لم تكن لتُحتمل.

تقول المشغّلة إنَّ الوقت بات متأخّرًا، وقد توقّفت الآن المواصلات العامّة عن العمل بسبب حلول ليلة السبت، لذا ستوصلها بنفسها إلى مكان سكنها. تتّجهان إلى السيّارة التي عدا أنّها حديثةٌ جدًّا، هي على عكس الشقّة، نظيفةٌ جدًّا. ومقاعدها مريحةٌ للغاية. عند توقّفها أمام بوّابة السكن الجامعيّ، تمدُّ المشغّلةُ نحو عاملة النظافة ورقةً نقديَّةً ذات قيمةٍ عالية. تقول الأخيرة إنَّ الطبيب النفسيَّ أخبرها بأنّه سيتولّى أمر دفع أجرتها. تردُّ المشغّلة بأنّها تعرف؛ هذه زيادةٌ على ذلك، ليس إلّا. تتشكّرها، وتتشكّرها الأخرى، ويمسي الوقت متأخّرًا في تلك الليلة من بداية فصل الشتاء.

في وقتٍ سابقٍ من العام، يصل العاطل عن العمل إلى البيت بعد المغرب من ذلك اليوم الصيفيّ. يقع بصره على والدته الجالسة تحت الدالية في ساحة الدار الصغيرة. يلقى التحيَّة عليها، مضيفًا بأنّهم سرّحوه من شغله نهائيًّا. لا تعلّق. يتّجه مباشرةً إلى غرفته. يستلقي فوق فراشه دون أن يُغيّر ملابسه. فجأة، يستحوذ على وجهه انقباضٌ شديد، قبل أن يغطَّ في نومٍ عميق.

ينام ويصحو في الأيّام التالية دون أن يبدِّد النومُ العكرَ من وجهه. ينزوي في غرفته طيلة هذه الأيّام. يخرج فقط لأوقاتٍ قصيرة حين لا يتواجد أحدٌ في البيت. والدته في محلّ الفلافل وشقيقتاه في المدرسة. لكنَّه لا يترك البيت إلى أن يأتي صباح يظهر بأنَّ الثقل الذي يكون بانتظاره متأهّبًا للانقضاض عليه متى يصحو، يخفّف من قبضته عليه. يفتح نافذة غرفته ليعبرها الهواء الذي لمَّا تشتدُّ حرارته بعد. يتجّه إلى المطبخ ويشرب كأس ماءٍ دافئ. المطبخ المعتم مرتَّبٌ ونظيف. عادةً تنظّفه شقيقتاه قبل توجُّههما إلى المدرسة. يخرج باتّجاه الحديقة

الضيّقة خلف البيت نحو شجرة التين. فيما تحلّق العصافير بنشاطٍ حولها، يباشر بالبحث عن حبِّ التين الذي يُميّله النضج نحو الأسفل. يلتقط الحبّات التي دفّأت أشعّة الشمس الشارقة قشرتها الخارجيّة قليلًا، ويأكلها. يتوقّف عن الأكل بعد بضع حبّات، تاركًا ما يلتقطه في راحة يده، محاذرًا أن يمسَّ حليب التين جلده.

شجر التين، مثله مثل شجر الزيتون، ليس متطلّبًا، لا من حيث العناية بأغصانه وتقليمها، ولا فيما يخصُّ عمليّة ريّه وتسميده. لو يفعل المرء، يقينًا سيُسعِد هذا الشجر، لكن بإمكانه كذلك مواصلة العيش بدون ضُمَّة الامتيازات هذه. فمن مميّزات التين قدرته على مواجهة شروط تستصعب غالبيّة الأشجار العيش معها، إضافةً إلى قدرته على التأقلم مع مختلف الظروف البيئيّة، بدءًا من شحّ المياه وحتّى غياب التربة الخصبة. بالتالي، يمكن لشجرة تينٍ النموّ في أرض تربتها خصبةٌ في حديقة بيت، قرب ينبوعٍ أو في واد، كما يمكنها أن تنمو في البرّيّة في أرضٍ جرداء بين صخور الجبال وحتّى حجارة المباني. الأمر يكاد أن يكون سيّيْن بالنسبة إليها. البرد الشديد هو فقط ما يبغضه التين، لذا يختار البقاء هنا في هذا المكان، بغضّ النظر عن وجود من يعتني به أم غيابه، جُمِع ثمره أم تُرِك على أمّه. وهذا أمرٌ واردٌ في حال هُجِّر أصحابه، على غرار ما حدث في العقود الفائتة، أو مُنعوا من الاقتراب من كرومهم العامرة به، كما هو الحال في الآونة الأخيرة، وما شابه من احتمالاتٍ في ظلّ ازدياد الوضع سوءًا يومًا بعد يوم. لكن إن لم يحدث هذا، ولم يُحظر أحدٌ من الوصول إليه، أو لم ينل المرض منه، يُدعى المرء لتناول قسطٍ من ثمره، بمذاقه الذي تحمله مئات الأزهار الدقيقة المتفتّحة داخل قشرة. هي أزهار يتحوّل ملمسها مع نضج الثمرة التامّ إلى رقيقٍ متناهي النعومة.

يضع العاطل عن العمل ما جَمِع من تينٍ على الطاولة في المطبخ الذي تتضاعف عتمته إثر ولوجه مباشرةً بعد القدوم من الخارج، ما يتسبَّب بارتطام ركبته اليسرى بإحدى أقدام الطاولة. يتَّجه عائدًا إلى غرفته، إلى فراشه.

ترجع والدته إلى البيت من محلِّ الفلافل حين يكون جالسًا فوق مقعد الحمَّام. يصدر ضجيجٌ خافتٌ لتحرّكها في المطبخ ثمَّ في أنحاء غرفة الجلوس. هي مسألة دقائق إلى أن تصدح مناداتها عليه في أرجاء البيت. يردُّ صائحًا بأنَّه في الحمَّام. بعد لحظات، يجيء صوتها من خلف الباب، سائلًا إن كان يحتاج شيئًا. يردُّ بالنفي. بعد زمن، تصل شقيقتاه من المدرسة. يطبق الصمت على البيت لبرهة، يختتمه طرْقٌ خفيفٌ آخر على باب الحمَّام، يعقبه همس والدته، تسأله إن كان يمكنها أن تحضر له كأس مياهٍ دافئة. يجيب بأنَّه فعل ذلك أوَّل شيءٍ في الصباح. تعود لتسأل إن كان يمكنها أن تحضر له تينًا. يردُّ بأنَّه فعل ذلك بعد الماء، أكلَ ستَّ حبَّات تينٍ على الأقلّ، وقد لقَّط قدرًا منه، تركه لهنّ في المطبخ، لكن عليهنَّ الانتباه لأنَّه وجد ديدانًا في بعضه. تردُّ والدته بأنَّها رأت التين على الطاولة.

يتقدَّم الوقت على مهل، حتَّى يصير بالكاد يتقدَّم، ولا يعود بالإمكان منع حالة القلق من الاستيلاء على مَن في البيت، مؤدِّيةً إلى قرع والدته باب الحمَّام من جديد لتسأله عن حاله. يجيء ردُّه قائلًا إنَّه تمام. تستفسر بخفرٍ إن خرج شيء. يردُّ بالنفي بصوتٍ يغلبه الضيق. تواصل استجوابه، سائلةً إيَّاه منذ متى لم يُخْرج. يردُّ متنهِّدًا بأنَّها سبعة أيَّامٍ أو ثمانية. يسمع همسًا خلف الباب بين والدته وشقيقتيه، يُسَرِّبُ إلى الحمَّام التوتُّر الذي يطغى على حديثهنّ. يبدو بأنَّه جرى إعلان

حالة الطوارئ. حتمًا ليس لذلك أيُّ أثرٍ إيجابيٍّ على محاولاته. يتوقَّف بعد ما يقارب الساعة، ويخرج. يجد والدته وشقيقتيه واقفاتٍ عند باب المطبخ، في وضعيَّةٍ أقرب ما تكون إلى الترقُّب وانتظار سماع خبرٍ مطمئن، سرعان ما يتَّضح بأنَّه لن يكون طرفًا في تلبيته. يتَّجه إلى مدخل البيت، يضع حذاءه، وقبل أن يطرق الباب خلفه يتسلَّل صوت والدته طالبًا منه ألَّا ينسى قبَّعته. الشمس في الخارج قويَّة. يردُّ بأنَّه سيلزم الظلال، ثمَّ يضيف بأنَّه ترك على الطاولة في غرفة الجلوس كلَّ ما تلقَّى من أجرٍ مقابل أيَّام عمله على الشاطئ.

هي لتلقِّي أجرتها، يتحتَّم عليها الاتِّصال من هاتفٍ عموميٍّ في حرم الجامعة بالطبيب النفسيّ، تباعًا لما يشير إليها الأخير أن تفعل في لقائهما قبل مباشرتها العمل. يدعوها لأن تمرَّ عليه في مكتبه في آخر يومٍ من الأسبوع كي يدفع لها. هذه المرَّة، متجنِّبةً استقلال أيِّ حافلة، تمشي إلى مكتبه سالكةً دربًا ترابيًّا ضيِّقًا غير علنيّ يقصِّر المسافة بربع ساعةٍ تقريبًا ويقتضي عبور حديقة النباتات الاستوائيَّة المحيطة بالجامعة. الدرب يُستخدم من قِبل عمَّال وعاملات النظافة في الجامعة الذين شقُّوا في سياج الحديقة فتحة وربصوا التربة بخطاهم في خطٍّ شبه مستقيم، كي يتمكَّنوا من الوصول إلى الجامعة من بيوتهم في الأحياء الفلسطينيَّة الملاصقة. إنَّها فعليًا تسير على خُطى هؤلاء العمَّال والعاملات، بفارق أنَّه يتوجَّب عليها حضور المحاضرات في قاعات الجامعة، وهم يتوجَّب عليهم تنظيفها فقط.

تقودها موظَّفة الاستقبال إلى غرفة المكتب التي أحضرتها إليها المرَّة الماضية. أوَّل ما يستقبلها فور دخولها هو لمعان زجاج الطاولة الذي يخمده ظلُّ الطبيب النفسيّ حين يقف فاتحًا ذراعيه، تفترش

وجهه ابتسامةٌ عريضة. يمدُّ يده الضخمة لمصافحتها، شاكرًا إيَّاها على قبول التحدِّي الصعب في تنظيف بيت المريضة. لقد أعلمته بأنَّ ما فعلتهُ عاملة النظافة بمثابة أعجوبة. لا تعلّق، تهزُّ رأسها لا غير. يواصل الطبيب النفسيُّ حديثه قائلًا بعد منحها أجرتها، بأنَّ المريضة قرَّرت أن تعتمد خدماتها وستدفع لها هي مباشرةً مقابل عملها بدءًا من الآن. قبل أن تغادر المكتب، تسأله عن سبب ترك المريضة النفايات تتراكم في شقَّتها. يردُّ بصوتٍ دافئٍ بأنَّها تواجه بعض التحدِّيات، يأمل بأنَّها جميعًا في طريقها إلى الزوال. تنظيفها للشقَّة بعد قبول المريضة بذلك هو خطوةٌ شديدة الأهمّيَّة في هذا الاتِّجاه.

في طريق عودتها، تعرّج على محلّ فلافل طالما رأت الزبائن يتدفَّقون حتَّى خارجه. تشتري رغيف فلافل، ثمَّ تتَّجه إلى مدرَّجٍ قريب يشرف على ساحةٍ قريبةٍ مكتظَّة، وتجلس على إحدى درجاته. تتناول الرغيف من الكيس الورقيّ وتباشر بأكله، ناقلةً عينيها بين الناس ممَّن يشغلون الساحة، يعبرونها أو يتلكَّؤون في أنحائها واقفين أو جالسين. ساهمةً في وجوههم أو متابعةً أفعالهم، يُمَكِّنها هذا من تجنُّب النظر صوب مجموعة الجنود الواقفة بمحاذاة الجهة اليمنى من المدرَّج. تصرُّفها لم يكن بالاستثنائيّ، إنَّما يماثل تصرُّف معظم مَن حولها مِن الواقفين والعابرين في الساحة. بالأساس ينقلون بصرهم بين المارَّة وبين البضائع المعروضة على البسطات. البضائع إمَّا مرتَّبةٌ فوق عرباتٍ أو بسطٍ أو ورقٍ مقوَّى، وإمَّا على أرض الساحة مباشرة. الجميع يتفادى النظر قدر الإمكان إلى الجنود. وإن حدث ووقع بصر أحدهم على جنديّ، يحوّلونه بسرعةٍ إلى الجهة الأخرى. هي، كما تتجنَّب النظر إلى الجنود، تتجنَّب النظر إلى رغيف الفلافل الذي تواصل التهامه

بنظراتٍ شاردة، ممَّا يتسبَّب بسقوط أجزاءٍ من محتوياته على أرض المدرَّج. يشدُّ فتات الطعام انتباهَ العصافير وعددًا من القطط التي تأخذ تُناوِر بعضها بعضًا محاولةً منع غريمتها من افتراس ما يقع. العصافير أسرع من القطط التي هي أشرس. حين تغير العصافير من أعلى صوب فتات الخبز، تنقضُّ نحوها القطط التي تكون تتحرَّك برويَّةٍ فاتنةٍ إلى ما قبل لحظة. ثمَّ ما إن تدير القطط ظهرها بعد فشلها في صيد العصافير، أو إثر اكتشافها بأنَّ هذه قطعة بندورة أو خيارٍ أو خسٍّ أو بصل، حتَّى تهبَّ العصافير مجدَّدًا نحو أرض المدرَّج محاولةً التقاط الفتات بمناقيرها الصغيرة بسرعةٍ فائقة. تعود إثرها القطط لتغير نحوها، وهلمَّ جرًّا. تنتمي القطط في الساحة إلى فصيلة ما يسمّى بالقطط العربيَّة، أو قطط الشوارع التي وإن لا تُعرف برهافتها، تمتاز بالرشاقة. بسبب شحِّ مصادر غذائها، يبقى جسمها متوسِّط الحجم هزيلًا، ممَّا يساهم في قدرتها على القفز عاليًا لاصطياد العصافير، أو الانقضاض على أيِّ شيءٍ يصلح للأكل، بما فيه ما تجده في حاويات النفايات ذات الفتحات المرتفعة.

بعدما تكمل رغيفها، تلاحظ عاملة النظافة خطًّا رماديًّا رفيعًا، يرتسم على معطفها الأسود، شكَّلته الطحينة التي يبدو أنَّها سالت فوقه أثناء أكلها. تحاول جاهدةً محوه، عندما تنصرف إلى مراقبتها من بعيد، قطَّةٌ واحدةٌ لم تشارك في المعركة السابقة على فتات رغيف الفلافل. تتمدَّد في حضن القطة قططٌ صغيرةٌ عديدةٌ حديثة الولادة، وُضِع أمامها صحنان، واحدٌ مليءٌ بالماء، وآخر بالطعام في داخله بقايا عظم، هي هبةٌ في الغالب من الملحمة الواقعة على مقربةٍ من محلِّ الفلافل. من البائن أنَّ بعض الباعة المتجوِّلين في الساحة يحيطون هذه القطَّة الوالدة

بالعناية. ومع أنَّها كغيرها من قطط الشوارع كانت سترضى بالقليل، لا ينفي هذا البتَّة إجلالها كلَّ اهتمامٍ تتلقَّاه أو أيَّ فعلٍ ينمُّ عن الدفء تُحاط به.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في اللحظة التي تلتقي عينا عاملة النظافة بعيْنَي القطَّة، تبدأ الأخيرة بالمواء بصوتٍ خافت، يأخذ يعلو رويدًا رويدًا، مستجديًا. مواؤها الحادُّ المتكرِّر لدرجة قد يصفه البعض بالإلحاح، يبعث بعينَيْ عاملة النظافة إلى الدوران بِحَيرةٍ في أنحاء الساحة، بحثًا عمَّا يؤدِّي بهذه القطَّة إلى الاستنجاد بها، إلى أن يقع بصرها على حزامٍ عريض، مصنوعٍ من جلد أفعى. أهو السبب؟

يتمدَّد الأفعى الذي لو كان حيًّا لابتلع القطة وأولادها كما هم دفعةً واحدة، فوق بسطةٍ صغيرةٍ لبيع الأغراض والملابس المستعملة. تقف عاملة النظافة، تكوِّر كيس الفلافل الورقيَ الفارغ وتتَّجه نحو سلَّة نفاياتٍ في أعلى المدرَّج، ترميه داخلها، ثمَّ تعود وتنزل مجدَّدًا باتِّجاه الساحة. تواصل القطَّة مواءها، متابعة ما يدور حولها، راصدةً بعينيها كيف تدفع عاملةُ النظافة الأفعى داخل حلقات بنطالها، ثمَّ نظرتها الراضية، فَدَفْعها المبلغ الذي يتمُّ التوصُّل إلى اتِّفاقٍ عليه مع البائعة بعد مماحكة تنجم عنها مشاركة مقتطفاتٍ من السير الذاتيَّة لكلٍ واحدةٍ من بينهما. البائعة لديها ستَّة أطفالٍ عليها أن تعيلهم وحدها، وهي نعرف عنها ما نعرف. تنتهي المحادثةُ بالشكر والامتنان والأمنيات المتبادلة بالهناء. عقب مغادرتها، تواصل القطَّة ملاحقة ظهر عاملة النظافة بأنظارها وقد كفَّت عن المواء. تراقبها وهي تصعد درجات المدرَّج، ثمَّ قبل أن تختفي بين المارَّة، تحرِّك القطَّة ذيلها قليلًا.

في زمنٍ آخر لا يبرح صيفًا، مع أنَّه يتقدَّم نحو آخِره، يواصل العاطل عن العمل المكوث في غرفته أو الطواف في شوارع شبه خاليةٍ من حركة المارَّة. يجبره القيظ المستمرُّ حالما يغادر البيت، على المسير في الشوارع التي تظلِّلها المباني أو الأشجار متى نمت على الأرصفة. أحيانًا تدفعه سياط أشعَّة الشمس إلى اجتياز الشارع المهجور نحو الفيء على الرصيف المقابل. تكون تظلِّله أشجارٌ يتيمة، تقبع بين أغصانها العصافير ساكنة وقد أنهكها الحرّ. من بين الأشجار النامية بمحاذاة الأرصفة وفي الأماكن العامَّة، يصادف المرء شجر البلُّوط أو الخرُّوب، السرو أو الغار، إلى جانب التين والزيتون. كذلك إبَّان العقود الأخيرة زُرِعت أنواعٌ أخرى من الأشجار، كالقيقب والسنديان. كما هناك فروع أشجار قد تمتدُّ من حدائق البيوت إلى فضاء الشارع، خاصَّة لشجيرات المجنونة والدفلى والياسمين. غالبًا ما يسقط زهر هذه على الأرصفة، بحيث تتحوَّل ألوانه المبهجة إلى بنِّيَّةٍ مُغْتمَّةٍ إثر ذبوله ودوس أحذية المارَّة فوقه.

لأيَّامٍ عديدة، يبقى العاطل عن العمل يدور فوق أرصفة الشوارع، إلى أن تفتح والدته مرَّةً ثانيةً موضوع خططه المستقبليَّة، كما لو أنَّ المستقبل يتلهَّفُ للترحيب بهذه الخطط. لكن هذه المرَّة لا يصرخ في وجهها. ينطلق للبحث عن عمل. بعد فترةٍ ليست بالقصيرة، يشارف فيها الصيف على الانقضاء، ينجح بمساندة أحد معارف العائلة بإيجاد فرصةٍ للتدرُّب أوَّلًا، وربَّما العمل لاحقًا إن أثبت مهاراته في المجال. التدريب هو في أحد المَشاغل الصغيرة المختصَّة بصنع التحف من خشب الزيتون.

في اليوم الموعود لمباشرته التدريب يصحو باكرًا، إلَّا أنَّ والدته تصحو قبله. يشرب كأسًا من الماء الدافئ، ثمَّ يخرج متَّجهًا إلى شجرة

التين التي تسبقه إليها العصافير. تفرُّ غالبيَّتها لحظةَ يقترب، ثمَّ بقيَّتها حين يعلو صوت حفيف الأوراق الكبيرة التي تقلِّبها يداه بحثًا عن حبَّات التين الناضجة المستترة بينها.

مع شروق الشمس، يتَّجه إلى المشغل. أوَّلُ ما يناط إليه به هناك، ويأتي من ضمن مهامِّه كمتدرِّب، هو نقلُ جذوع الزيتون التي تصل ذلك الصباح إلى المخزن في القسم الخلفيِّ من المشغَل.

بما أنَّ الخريف لمَّا يبدأ بعد، والوضع يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، يمكن الارتياب بأنَّ الجذوع والأغصان الغليظة التي يشتغل على نقلها تعود لأشجار زيتون تمَّ اقتلاعها ليس من قبل أصحابها أو برضاهم. لا يمكن لمزارعٍ أو صاحب أرضٍ اقتلاع شجر زيتونه أو قصّه قبل جدِّه بزمنٍ قصير. موسم جدِّ الزيتون لمَّا يزل على الأبواب. يحلُّ في أوج الخريف، بعد أوَّل سقوطٍ للمطر. من بين الجذوع التي ينقلها يوجد ما هو سميكٌ للغاية، تتخلَّله تعرُّجاتٌ والتواءات تمكِّن الرائي من الاستدلال على عمر الشجرة. في العادة، تمنحُ أشجار الزيتون المعمَّرة أجود أنواع الزيت. قبل نقلها، يضرب المتدرِّب الجذوع والأغصان الغليظة بقوَّةٍ مرَّةً أو مرَّتين فوق الأرض، وفق ما يمليه عليه المعلِّم، صاحب المشغل. يجدر القيام بهذا للتخلُّص من الديدان وبقيَّة الحشرات التي تلجأ إلى الشقوق في الجذع أو تأوي تحت قشرته، حيث تترك خلفها آثار تحرُّكاتها محفورةً في الخشب. حالما يصطدم الجذع بالأرض مُحدِثًا ضجيجًا تفرُّ إثره العصافير من مواضعها، تسقط الكثير من الديدان والحشرات مُلتفَّةً على نفسها قبل أن تعود لتتمدَّد بالتدريج، ثمَّ تنطلق زاحفةً ببطءٍ على غير هدًى. ينتهي المتدرِّب من نقل الجذوع إلى مخزن المشغل، حين يَشرع بترتيبها في مجموعاتٍ وفق الحجم لتجهيزها للمراحل التالية

خلال الأشهر القادمة، بدءًا بإزالة قشرتها، فتقطيعها، ثمَّ تجفيفها. يخرج عائدًا إلى المنطقة التي أُنزِلت فيها نقلة الخشب، حاملًا في يده مجرودًا حديديًّا. يعلو صرير المجرود حادًّا ما إن يسحبه فوق الأرض لجمع ما سقط من بقايا الجذوع والحشرات. بعدها يتَّجه مع المجرود إلى سلسلةٍ حجريَّةٍ قريبة ويرمي بمحتواه نحوها. تهيم الديدان والحشرات في الهواء للحظات قبل أن تتناثر بين حجارة السلسلة والنباتات البرِّيَّة الجافَّة التي تنتصب بينها وبقربها. من هناك، تنطلق تلك الحشرات زاحفةً مرَّةً أخرى نحو موضعٍ مُظلَّلٍ رطب تحتمي به، وربَّما تستوطنه.

يعود المتدرِّب إلى المشغل. يستهلُّ عمليَّة تدريبه على الحفر باختيار قطعة الخشب المناسبة، كما يشير إليه المعلِّم بعبارة يلفظها بالكاد فاتحًا فمه، تاركًا المخرج الوحيد للكلمات عبر أنفه. هذه هي طريقته في الحديث. من الأفضل ألَّا تكون هناك عقدٌ في قطعة الخشب المنتقاة، يشرح، وأن تكون بحجم يقارب ثلاثة أضعافٍ حجم القطعة المنشود صنعها. حظيرة، يمكن للمتدرِّب لصق أجزائها معًا إن لم يتمكَّن من حفرها كقطعةٍ واحدةٍ كاملة. يتحوَّل عقبها المعلم إلى تفصيل كيفيَّة حفر الحظيرة والأدوات المختلفة التي تحتاجها العمليَّة، مرفقًا عباراته الموجزة في سرد التعليمات بحركاتٍ من أصابعه تبدو تعويضًا عمَّا يتنازل عن قوله.

يجلس المتدرِّب إلى طرفٍ قصيٍّ من طاولة العمل يجري تخصيصه له. المشغَل، كغالبيَّة مشاغل الحفر في الخشب المنتشرة في البلد، مختصٌّ بنحت تماثيل ومجسَّماتٍ خشبيَّةٍ مستوحاةٍ من التوراة والإنجيل ومعدَّةٍ للبيع للسيَّاح من الحُجَّاج. الأجواء في المشغل باردة، لا يساهم بإدفائها البياض المشعُّ من مصباح الإضاءة الطويل

الذي يتدلّى من السقف. إنارته تزيد من شحوب وجوه بقيّة الشغّيلة، علاوة على برادة الخشب الناعمة المتجمّعة فوقهم، وفوق سطح الطاولة، وبقيّة الأشياء في المشغل. كلّ برهةٍ وأخرى، يغلب ضجيج المنشار أو صنفرة الخشب على صوتِ المذياع الذي يصدح في الخلفيّة بشكلٍ متواصل. لاحقًا يعلو صوتٌ آخر جديدٌ قادمًا من خلفه، مزاحمًا جملة الأصوات في فضاء المكان. يسأل المعلّمُ المتدرّبَ إن كان بإمكانه تحضير الشاي. يترك مكانه ويتّجه نحو إبريق شايٍ ضخم اسوَدَّ قاعه من لهيب النار يتربّع على موقد غازٍ صغير، يغلي الماء داخله، هو مصدر ذاك الصوت. يطفئ الموقد تحت الإبريق. على مقربةٍ منه كيس شايٍ كبيرٌ يجلس على رفٍّ خشبيّ. شاي «الولد». إلى يساره كيس سكّر، لم يعد السكّر فيه ناصع البياض.

بعد فراغه من تحضير الشاي، يسكبه في كؤوسٍ صغيرةٍ بعدد بقيّة مَن في المشغل ويدور ليوزّعها عليهم واحدًا واحدًا. يسأله أحد الشغّيلة الذي يلحظ بأنّه استثنى نفسه، إن لم يرغب بكأس شاي. يردُّ المتدرّب بأنّه نادرًا ما يشرب الشاي. في الحال يتحوّل موضوع الحديث بين الشغّيلة إلى الشاي، بعضهم ينوّه إلى فوائد الامتناع عن شربه بكثرةٍ لتسبُّبه بالأرق، بينما يقسم آخرون بأنّهم ما إن يحتسوه، حتّى يغطّوا في النوم في اللحظة التالية، حوارٌ يكون مصيره عاجلًا التفتُّت تحت ضجيج النشر والدقّ والحفر الذي يجبرهم على إحكام إغلاق أفواههم كي لا تتسلّل برادة الخشب إليها. في أيّ ظرف، لم يكن المتدرّب ليقدم على المشاركة بالحديث، أو التنويه إلى مقدرة الشاي على أن يفاقم من الإمساك، مثلًا. بعيدًا عن إحجامه عن الحديث إجمالًا وليس في هذا النقاش فقط، كما انطوائيّته التي يلحظها البقيّة، يتّضح سريعًا بأنّه يتمتّع

بقدرةٍ فائقةٍ على العمل اليدويّ. إنَّه يعمل بدقَّةٍ وأناةٍ وصبر، مزايا على الأرجح اكتسبها من تجربته في الأسر وعمله مع والدته. بحلول نهاية النهار من اليوم الأوَّل لتدريبه، يكون قد أوشك على الانتهاء من صنع الحظيرة التي أحيلت إليه مهمَّة المباشرة بصنعها. يحملها ويعرضها أمام المعلِّم، ليخرج حكم هذا من أنفه بأنَّها جيِّدة. ولسببٍ لا يمكنه أن يقتصر على هذا الحكم، يبدِّد الحفرُ في الخشب ذلك اليوم الانقباض من وجه المتدرِّب. بيْدَ أنَّه لا يمكن لهذا الانقباض أن يتبدَّد، إنَّما ينطلق زاحفًا للبحث عن مُستقرٍّ آخر له.

بالتحاقها بمجال علم الاجتماع، تواصل الطالبة، متى استطاعت، الانضمام للمحاضرات. تجلس في الصفِّ الأخير في القاعة، ثمَّ في لحظةٍ ما تنام. أحيانًا تفيق على صوت المحاضر أو المحاضرة في خضمِّ شرحهما نصًّا عن العادات القبليَّة حسبما سجَّلها علماء الجنس البشريِّ أثناء رحلاتهم لمناطق في القارَّة الأفريقيَّة، أو أمريكا الجنوبيَّة، أو آسيا خلال القرن التاسع عشر. في مرَّاتٍ أخرى، هي تحليلاتٌ للحقِّ الحصريِّ في ممارسة العنف من قبل الدولة ونقيضه، مواضيع في مجملها قد تكون مثيرةً وملهمةً للنقاشات لكن ليس كما يبدو للطالبة التي تُؤثِر النوم. وكلَّما تصحو يكون الانقباض بانتظارها للانقضاض على صدرها.

قد يكون لهذا الانقباض دورٌ في دفعها عصرَ يوم باردٍ من نهاية الشتاء، وهي في طريقها إلى تنظيف الشقَّة، بأن تحتجَّ على محاولة جنديَّيْن إنزال شابَّيْن من الحافلة التي تستقلُّها ويتَّضح بعد فحص أوراقهما بأنَّهما فلسطينيَّان. مع أنَّه أمكنها ببساطةٍ مواصلة النظر عبر النافذة كالبقيَّة، إلَّا أنَّها فجأةً ومن حيث لا ندري، تنطلق للتحدُّث

بعبريَّة تخلو من ذلك الارتجاف المعهود الذي يسري إلى حَلْقِها قبل محاولتها الحديث في المحاضرات خانقًا صوتها في كلِّ مرَّة. يشتعل شجارٌ كبيرٌ جرَّاءها في الحافلة. ينضمُّ إلى الشجار عدد ليس بالقليل من الركَّاب الذين يسبُّونها وينعتونها، هي والفلسطينيِّين والعرب، بالنَتِنين أو بالإرهابيِّين. هي تتلقَّف بيقظةٍ غير مسبوقةٍ سبابَهم غير راضخة، رادَّةً على الفور بكلمة تعيد الإهانة إلى مصدرها. في غضون طلاقتها اللغويَّة بالعبريَّة، تصرخ على سيِّدة تجلس خلفها في الحافلة، تصيح بدورها بعباراتٍ بالعبريَّة يتأكَّد بأنَّ الطالبة لم تسمعها جيِّدًا. تهتف السيِّدة نحوها قائلةً إنَّها في صفِّها، معيدةً على مسمعها ما قالته للتوّ. لكن الآن، لا يمكن لأيِّ كلمةٍ انتشالها من بقعة الوحل التي رُمِيَ بها داخلها. تلوذ إلى الصمت، بينما يغرق بقيَّة الركَّاب في الضحك. تعتذر للسيِّدة بصوتٍ خفيض يخنقه ضحك الركَّاب ومواصلتهم الهزء بالاثنتين. ثمَّ يواكبها استهزاؤهم وسِبابهم وهي في طريقها للنزول من الحافلة، يقودها الجنديَّان وخلفها الشابَّين، وقد تمَّ إنزالها معهما هي أيضًا. حالما يغلق السائق باب الحافلة خلفهم، تصبُّ جامَّ غضبها على الشابَّين لعدم مقاومتهما محاولة إنزالهما عوضًا عن ترك الجنديَّين يقودانهما كجديَيْن. يقاطعها الجنديَّان ويطلبان منها تسليم بطاقة هويَّتها، بعد أن يطلقا سراح الشابَّين في الحال.

هنا يمكن الاشتباه بأنَّها ربَّما تقصد الخِراف، لا الجديان. الجديان إطلاقًا لا تمشي معًا، ولا تركض معًا، ولا تتأنَّى في المشي معًا، ولا تتوقَّف معًا، ولا تسير يمينًا معًا، ولا تدور يسارًا معًا، ولا تصمت معًا. إنَّما هي أشدُّ الحيوانات عفويَّة وتفرُّدًا ونزعةً للتجوال بحرِّيَّة. هي، كما يبدو، تقع ثانيةً ذلك العصر فريسة العجز اللغويّ. أو قد نكون نحن مخطئين،

وأنّها تعي تمامًا ما تقوله، محيلةً بنعتها الشابَّين إلى تلك الجديان البيضاء المسالمة المستسلمة التي قدَّمها صديق شقيقها كهدايا للعائلة على مدار أعوام.

بمنأًى عن هذا، يُطلَقُ سراحها بعد قرابة ساعةٍ ونصف الساعة من توقيفها. لكنّها لا تستسلم. بعد الانتهاء من تنظيف الشقَّة، في طريق عودتها إلى سكنها الجامعيّ، تتوقَّف عند هاتفٍ عموميّ وتتّصل بقسم الاستعلامات لدليل الهواتف. تستفسر عن رقم مؤسَّسةٍ إسرائيليَّةٍ مختصَّةٍ بحقوق الإنسان أنشئت حديثًا، لمحت اسمها في عنوان مقالةٍ في إحدى الصحف المتروكة في بيت المشغِّلة. تنسخ رقم الهاتف في دفترها الصغير الخاصّ بالعناوين، ومن ثمَّ تتَّصل به. لا أحد يجيب المكالمة. الساعة تقارب السادسة مساء، ولا بدَّ أنَّ المؤسسة مغلقة. تصل غرفة سكنها الجامعيّ، ويواصل الانقباض بالهيمنة على جسمها، منكشفًا في تقلُّبها في فراشها لساعات.

في صباح اليوم التالي الذي ينهي ليلة لا تنام خلالها جيِّدًا، تتَّجه إلى الهاتف العموميّ القريب من مبنى سكنها، وتعيد الاتّصال بالمؤسسة. لديها، كما تشرح بالعبريَّة لموظفة المقسّم شكوى تعتقد بأنَّها تستوجب إجراء تحقيقٍ حول الانتهاكات اليوميَّة لحقوق الانسان. تحوِّلها الموظفة للحديث مع محامٍ مختصّ. حين يصلها صوته عبر السمَّاعة، تحيِّيه مواصلةً الحديث بالعبريَّة. تقدِّم نفسها أوَّلًا ثمَّ تشكره على تخصيص بعضٍ من وقته للاستماع إليها. يردُّ عليها التحيَّة مضيفًا بأنَّه يمكنها الحديث بالعربيَّة إن كان الأمر أسهل بالنسبة إليها تعود عندها إلى الحديث بالعربيَّة مستعيدةً بغير ترتيبٍ وبإطالةٍ زائدةٍ أحيانًا، مع إضافة تفاصيل لا أهمِّيَّة لها بالمرَّة، ما حدث لها وللشابَّين من

تعاملٍ وتهجُّمٍ لفظيٍّ من قبل الركَّاب عليهم. مصدر ما حدث، تشرح معتمدةً كلمات سمعتها في أوقات صحوها خلال محاضرات علم الاجتماع، ممارسات الفوقيَّة والتنميط العنصريّ وما إليه من تعبيرات نظريَّة. المحامي المختصّ يستمع إليها دون مقاطعتها حتَّى تفرغ من سرد قصَّتها وتقديم شروحاتها وتحليلاتها. حين تنتهي، يستمرُّ بصمته للحظات، إلى أن يقول إنَّه للأسف، بصدد ما جرى معها، هناك حوادث كثيرةٌ مماثلة. إنَّها تحدث عدَّة مرَّاتٍ يوميًّا. يمكنها عوضًا عن التوجُّه للمؤسسة، التقدّمُ بشكوى إلى الشرطة. لكن وفق معرفته، الشرطة لن تُقْدم على إجراء أيِّ تحقيقٍ في الحادثة. وإن حدث وفعلت، عدا عن الاحتماليَّة الضئيلة جدًّا لذلك، لن ينجم عن تحقيقها توجيه التهم لأيِّ أحد. يختتم حديثه قائلًا بلباقةٍ شديدة، بألَّا تتردَّد بالاتِّصال به مستقبلًا إن شهدت حدثًا أشدَّ سطوة، ثمَّ يشكرها على الاتصال. تشوب عربيَّته طوال حديثه لكنةٌ مصدرها العبريَّة، تجعل من الـ«ر» «غ» والـ«ح» «خ»، والـ«ع» «أ».

أسابيع قليلةٌ تمضي حتَّى يبدأ العمل في المشغل بالاستحواذ على المتدرِّب. الدِّقَّة في الحفر تتطلَّب كامل انتباهه، كما ويجنِّبه تواجده في المشغل الحاجة إلى التخلِّي عن سكوته المعهود. تقتيره في الكلام يبدو عاديًّا برفقة الشغيلة معه. باستثناء أحاديثهم المباغتة غير الطويلة، الكلُّ منكبٌّ يعمل بصمتٍ على إتمام مجسَّمٍ تحت الضوء البارد المسلَّط على الطاولة من أعلى. متردِّدًا في الخلفيَّة على الدوام، صوت المذياع لا ينفكُّ يلازمهم، تتخلَّله ضوضاء المنشار الآليّ أو دقَّاتٌ مكتومةٌ في الخشب بين كلِّ فينةٍ وفينة. إنَّ نوعيَّة البرامج المنبعثة منه، تشابه التي انطلقت من قبل من المذياع في السجن. على الأرجح زملاؤه السابقون

من الأسرى ممَّن لا يزالون قابعين فيه، يستمعون في هذه اللحظات لصوت المذيع نفسه الذي يصدح في المشغل، يتحدَّث بعربيَّةٍ فصحى.

بمرور كلِّ يوم، تزداد يدا المتدرِّب احترافًا وتُحَفُه دقَّة. إنتاجه يتركَّز في صنع تماثيل ومجسَّماتٍ صغيرةٍ مختلفة. حظائر، أطفالٌ ونساءٌ ورجال، صلبان، حميرٌ وخِرافٌ وجِمال، يستخرجها من جذوع أشجار الزيتون وأغصانه الغليظة التي لم تحوِ في السابق من كائناتٍ سوى الديدان والحشرات. غير أنَّه، بعد أشهر من التدريب، لا يزال بطيئًا. من وقتٍ لآخر، يرمقه المعلِّم أثناء جلوسه في الموضع والهيئة ذاتهما. يظهر بأنَّ نتاجه الدقيق يشفع له. إنَّه، كما يقول المعلِّم، جيِّد. كذلك تبقى مهمَّة نقل الجذوع إلى المخزن في القسم الخلفيِّ من المشغل وترتيبها وفق حجمها، تخصُّه وحده دون سواه، ولهذا يدٌ في بطء وتيرة إنتاجه أيضًا. في كلِّ مرَّةٍ تصل نقلةٌ خشب شجر، يترك ما ينحت، ويتجه لترتيبها. يحمل الجذوع والأغصان إلى المخزن يرصفها كما هو لازم، بعد أن يخبطها بالأرض متخلِّصًا من أكبر قدرٍ من الحشرات. ثمَّ يعود ليكنُسها مع بقايا الخشب، يجمعها في المجرود ويرميها فوق السلسلة الحجريَّة.

عاملة النظافة تبيت تعتمد في تنظيف الشقَّة، بعد أن كفَّت القمامة عن التراكم في أنحائها، على مكنسةٍ كهربائيَّة. لا محالة بأنَّ صوت محرِّك المكنسة يزيد من هلع القطَّة التي لم تظهر ثانيةً بعد تلك المرَّة الأولى. تستمرُّ في الاختباء بعيدًا عن أنظار عاملة النظافة، مع أنَّها تنظِّف الشقَّة منذ بضعة أشهر. في المعدَّل تحتاج ساعتين أو ساعتين ونصف الساعة بالأكثر لتنظيفها تمامًا. تعتمد المدَّة بقدرٍ كبيرٍ على وضع المشغِّلة النفسيّ الذي يبدو بأنَّه يشهد تحسُّنًا متواصلًا.

ما لا يشهد تحسُّنًا هو الوضع الدراسيُّ للطالبة، على الرغم من تحوُّلها إلى حقل علم الاجتماع. قد يظهر نصٌّ ما يشدُّ انتباهها وتقرأه بالكامل، يناقش ضرورة وضع التصرُّفات البشريَّة في سياقها لفهمها. ثمَّ سرعان ما يختفي هكذا نصٌّ من النقاشات خلال المحاضرات، وفي أعقابه، تأثير كاتبه على مسار المساق. إنَّه ببساطةٍ أحد النصوص التي تأتي في قائمة القراءات الاختياريَّة. بالتالي، ليس من المستغرب ألَّا يكون له، على غرار هذه الفئة من القراءات، حضورٌ ضمن موادِّ الامتحان أو الواجبات النهائيَّة، وهو ما لا تعرف به الطالبة دائمًا. أو في أفضل الحالات، تعرف بالأمر بعد فوات الأوان. هذا بالضبط ما يحدث عقب تسليمها ورقةً بحثيَّةً في أحد المواضيع الرئيسيَّة، تقوم بالعمل عليها بعنايةٍ شديدة، أو هكذا يبدو من الوقت الذي تخصِّصه لها. حين تستلم الوظيفة بعد تصليحها، يتَّضح بأنَّ درجاتها واطئةٌ جدًّا. تحدو بها هذه النتيجة إلى ترتيب لقاءٍ مع المحاضر الذي تقدِّم له البحث، لمناقشة علامتها ومراجعة الورقة معًا، لتفهم أين هي المشكلة.

أين هي المشكلة؟ تجلس إلى الجهة الثانية من طاولة مكتب المحاضر الذي يُباشر شرحه الأسباب خلف درجاتها الواطئة جدًّا. يوضِّح لها منذ البداية بأنَّه، شفقةً عليها، لم يمنحها درجة السقوط في تقييمه لما كتبت. الورقة تفتقد التركيز في صلبها على الموادِّ الضروريَّة، وبدلها تنشغل بالركض خلف مفكِّرين نوقِشَت طروحاتهم أثناء المساق بصورةٍ عرضيَّة. كما أنَّ الوظيفة مكتوبةٌ بخطِّ اليد بعبريَّةٍ سيِّئة. كلُّ هذا يجعل بحثها أقرب إلى قطيعٍ من الخيول التي تجري لاهثة، مُتسابِقةً فيما بينها.

مع فائق الاحترام لمستوى المحاضر الفكريّ، حتمًا لا يمكننا الموافقة على أنَّ جري الخيول هو بهدف التسابق فقط. قد يكون مدفوعًا بالفزع. لدى الخيول خوفٌ فطريٌّ من أن تقع فريسة الذي يعود إلى حقبة حياتها في البرّيَّة، ممّا يدفعها إلى الهرب دائمًا؛ الجري في أقصى سرعة، إلَّا إذا استحال الهرب. بل إنّه خوفٌ من الشدَّة بحيث يقودها إلى النوم واقفة، حتَّى لا تعود قادرةً على حمل جسمها من شدَّة الإعياء وعندها تقع مكانها. قد يكون هناك من لحظ من قبل ثلاثة خيول أو أربعة تستلقي على الأرض نائمةً في رقعةٍ ما، بينما تقف بقيَّة القطيع متجمّعةً حولها، بعضها يحدّق في الفراغ، ينبسط في عيونها وعلى امتداد نظرها الكثير من الغموض. يا ترى بمَ تحلم؟ حتَّى يحلَّ خطرٌ ما، وفي الحال تطلق صوت شخرٍ أو صفير، وتجري.

عليه، حين تسأل المشغِّلة ذات يومٍ عاملة النظافة بعد انتهائها من تنظيف الشقَّة عن أحلامها هي الأخرى، تجيب بأن تتمكَّن من تقديم واجباتها البحثيَّة في الجامعة مطبوعةً وبعبريَّةٍ صائبة. بعد صمتٍ قصير، تعقّب المشغِّلة بعينين تشوبهما مسحةٌ من الانبهار، بأنَّ أحلامها بسيطةٌ للغاية وقابلةٌ للتحقيق. لا تعلّق عاملة النظافة، التي يبدو بأنَّها لا تفهم بأنَّه يجدر بالأحلام أن تكون صعبة المنال كي تكون أحلامًا فعلًا.

بأيِّ حال، تواصل أيَّامها بالمضيِّ مُثقَلةً بالانقباض الذي يصاحبها خلال دراستها، ويشتدُّ عند التحاقها بالمحاضرات، مع أنَّه لا مصدر جليًّا للهواجِس المحتملة التي تقف خلف هذا بعد كل ما أتت عليه من تغييرات. كما وتواصل اليقظة الاستفراد بها في الليالي قاطعةً نومها على التوالي، مراكمةً من طعم الفراغ في حلقها. السهم في البعيد هو وحده القادر على التخفيف من وطأة ما يؤجّج انقباضها.

ثمَّ قبل نهاية ورديَّة عملها ذات مساءٍ ربيعيّ، تظهر المشغِّلة في الشقَّة قبل موعد عودتها المعتاد. تقترح توصيلها إلى سكنها الجامعيّ. تستقلَّان السيَّارة التي تسلك الطريق المعهودة، إلى أن تنعطف يسارًا عند مفترق إحدى الطرقات، متَّخذةً شارعًا لا يقود إلى مقرّ سكنها. تعلن المشغِّلة بأنَّها تودُّ التوقُّف قليلًا في مكانٍ ما لدقيقتين. بعد بضع مئات الأمتار تركن السيَّارة أمام مبنًى حديثٍ مكوَّنٍ من أربعة طوابق. تمتشق بجوار المبنى عمارة يُزيِّن أعلى مدخلها حجر حُفر عليه العام 1912، على الأرجح عام بنائها. إنَّه حيٌّ آخر معروفٌ بتشييده من قبل عائلاتٍ فلسطينيَّةٍ ميسورة الحال، أهَلَته حتَّى عام 1948. تدخلان المبنى الحديث بعد أن تضغط المشغِّلة برمزٍ فوق لوحة الأرقام إلى يمين بابه الرئيسيّ. تخطوان باتِّجاه المصعد الذي يحملهما إلى الطابق الرابع. من المصعد تخرجان مباشرةً إلى مكتبٍ شاسع، تشرف نوافذه الكبيرة على جانبٍ من المدينة التي تثقب أضواؤها عتمة الليل، مضيئةً المكتب بنورٍ خافت. وسط المكتب طاولةٌ كبيرةٌ يلمع سطحها الزجاجيُّ في الظلام، تطوِّقها مقاعد عديدة. إلى يسار الطاولة، بالقرب من النوافذ الكبيرة، طاولة مكتبٍ أمامها مقعدٌ وفوقها جهاز حاسوب. تقول المشغِّلة، دون أن تشعل الضوء، بأنَّ هذا هو مكتبها. تقترب عاملة النظافة من إحدى النوافذ مواصلةً نقل عينيها بين أضواء المدينة المبعثرة في زخم الليل. تعلِّق المشغِّلة بأنَّ المنظر من نوافذ المكتب جميلٌ جدًّا، ثمَّ تضيف بأنَّه في الحقيقة، هذا مكتب مديرها الذي قام على إنشاء المؤسَّسة، لكنَّه يستخدمه لبضعة أيَّامٍ فقط كلَّ عدَّة أشهر، عندما يأتي من الولايات المتَّحدة في زيارةٍ قصيرة. وبما أنَّها مساعدته الشخصيَّة، يمكنها استخدام مكتبه متى لا يكون متواجدًا في المؤسَّسة. لا يبدو بأنَّ كلَّ ما قيل إلى

الآن، يهمُّ عاملة النظافة. تواصل التحديق عبر النافذة بعينين متنبّهتين، ناقلةً نظرها بين الأنوار التي يرتجف ضوؤها برقّة. تكمل المشغّلة قولها إنَّه يمكنها على جهاز الحاسوب ذاك طباعة واجباتها الجامعيَّة. بحكم عملها، هي قادرةٌ على الطباعة بسرعةٍ فائقة ما يسمَّى بالطباعة العمياء، تطبعها وتراجع عبريَّتها. لذا، تضيف المشغّلة، يمكنهما أن تنتظرا حتَّى تتجمَّع لديها عدَّة أوراقٍ بحثيَّة ترغب بتسليمها للجامعة، ثمَّ تحضران معًا إلى هنا في إحدى نهايات الأسبوع حين لا يداوم أحدٌ في المكتب لتعملا عليها بهدوء. يمكن لعاملة النظافة مساعدتها في تلاوة ما كتبت، فيما هي تطبع وتنقّح العبريَّة، ذلك لتسريع العمليَّة.

في طريقهما من المصعد رجوعًا باتِّجاه السيارة، تسألها عاملةُ النظافة عن طبيعة عمل المؤسَّسة. تردُّ بأنَّها مؤسَّسةٌ غير حكوميَّةٍ تهدف إلى تقديم الدعم المادِّيّ لمشاريع ونشاطاتٍ ثقافيَّةٍ بين إسرائيليِّين وفلسطينيِّين، عبارة عن تبرُّعاتٍ يقدّمها المدير المؤسِّس من ماله الشخصيّ، في سعيه لإحلال السلام بين الشعبين. لا تنبس بكلمةٍ تعليقًا على ما قيل. في ظلِّ مواصلتها عدم التفوُّه بشيء، وبناءً على ما بَلَغَنا عن جانب من تجربتها وتجارب الآخرين من حولها، وأنَّ الوضع يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، قد يناشدها البعض بأن تردّ، بالطبع مع تجنُّب التعثُّر والسقوط في الهوَّة التي يحفرها سرد التفاصيل المعروفة. عليها كذلك محاولة تكوين عباراتٍ منطقيَّة، هادئةٍ ومقنعة. يمكنها أن تقول مثلًا إنَّ السلام لا يتحقَّق بدعمٍ مادِّيّ يقوم بتحسين ظروف الحياة تحت الاضطهاد، إنَّما برفع الاضطهاد بالكامل. أو ربَّما يمكنها أن تقول إنَّ الاختلافات في شروط الحياة لدى الفلسطينيِّين والإسرائيليِّين، باعتبار أنَّ جهةً تحيا تحت شروط الاستعمار والاحتلال، وأخرى تمارس هذا

الاستعمار والاحتلال، لا يمكنها أن تثمر عن مشاريع ثقافيَّةٍ صادقةٍ روحيًّا وفكريًّا، لأنَّها بدل النظر إلى الواقع، تحاول استبداله بتصوُّرٍ متخيَّل، قائمٍ على تجاهل مصدر هذه الاختلافات ومسبِّباتها. قد يكون هذا خطابًا نظريًّا لا يناسب الموقف لن يمكنها سرده. أجدر أن تقول إنَّ مثل هذه المشاريع قائمةٌ على إغفال الظرف القاسي الذي يحيا تحته الفلسطينيُّون، ودور الاحتلال الإسرائيليِّ في خلق هذا الظرف وإدارته على مدى عقودٍ والاستفادة منه. ما تقوم به المؤسَّسة في آخر النهار غير قادرٍ على مواجهة شروط القهر وغياب العدل التي تؤسِّس لهذا الظرف، إنَّما تخاطر بدثورها تحت غطاء ثقافة تَقارُب الفُرقاء. مهما كان أحدهم كريمًا يسعى لتوزيع ثروته في سعيه لدعم أهدافٍ إنسانيَّةٍ سامية، فإنَّ الحلَّ لا يكمن البتَّة في الدعم المادِّيِّ لمشاريع ثقافيَّةٍ بين إسرائيليِّين وفلسطينيِّين. أبدًا، خطابٌ قد يميل إلى التعقيد، لا تبدو وجهةٌ واضحةٌ له في الأفق. عباراتٌ أشدُّ اختصارًا قد تكون أفضل. عليها أن تقول إنَّ الدعم المادِّيَّ الذي تقدِّمه المؤسَّسة لا يوفِّر حلًّا يحتاجه الفلسطينيُّون على نحوٍ عاجلٍ لإيقاف معاناتهم التي ليس سببها النقص في المال، إنَّما في الحرِّيَّة. بإمكانها أن تضيف بأنَّ مديرها بلا شكٍّ إنسانٌ جيِّد، وأفضل من غيره من الأثرياء الذين لا يكترثون أو يلقون بالًا إلى معاناة أحد، إنَّما قد يتسبَّبون بها، وربَّما في هذا السياق قد يدعمون الاحتلال وينتفعون منه. مع ذلك، لا يمكن اقتصار تخيُّل نهايةٍ لأيٍّ من الممارسات الاستعماريَّة عبر تصوُّر هذا الخيار من الدعم الماليِّ لنشاطاتٍ ثقافيَّةٍ بين إسرائيليِّين وفلسطينيِّين. ترفع عاملة النظافة رأسها باتِّجاه المشغِّلة. حركةٌ طفيفةٌ تطرأ على فمها. يمكن الاستشراف بأنَّها تتأهَّب لقول شيءٍ ما. تصلان السيَّارة. وبالفعل تنطلق الكلمات

من فمها. إنَّها تستفسر عن قيمة المعاش الشهريّ الذي تتلقَّاه المشغِّلة مقابل عملها في المؤسَّسة. تنطق المشغِّلة بمبلغٍ مرتفعٍ جدًّا. تلوذ عاملة النظافة إلى الصمت مجدَّدًا.

أثناء مسير السيَّارة باتِّجاه السكن الجامعيّ، تعود عاملةُ النظافة، وتسأل المشغِّلةَ كيف هي تعيش في شقَّةٍ صغيرةٍ في حيٍّ ناءٍ مع هكذا دخلٍ شهريّ. تجيب المشغِّلة ضاحكةً بأنَّ أغلب معاشها يذهب لتغطية تكاليف علاجها التي يشرف عليها الطبيب النفسيّ. إنَّه مصَّاص دماء. توشك عاملة النظافة على التعليق بشيء، لكنَّ المشغِّلة تواصل القول إنَّها في نهاية المطاف فقيرةٌ لا تملك شيئًا، حتَّى سيَّارتها ليست ملكها، بل هي لمديرها.

تصلان مدخل حيِّ سكنها الجامعيّ. تنزل من السيَّارة التي تغادر بهدوء، وتتَّجه إلى غرفة سكنها. مع اقترابها من مدخل المبنى، يقع بصرها على الببَّغاء التي لا تزال صاحية، رأسها يدور بيقظة. تحيِّيها، وتجيب الببغاء مردِّدَةً سلام سلام، قبل أن تضيف، بلهاء بلهاء. ينبثق الفزع في عيني الطالبة. تصعد الدرج باتِّجاه غرفة سكنها الصغيرة، هذه الليلة أسرع من المعتاد.

فيما يخصُّ ما يمكن اعتباره معتادًا أو غير معتاد، هذه عمليًّا ليست بالمسألة المُطلقة في صلبها. قد يطرأ حدثٌ مغايرٌ عن سابقه، يقود إلى سلسلةٍ من التحوّلات على ما كان سائدًا حتَّى تلك اللحظة. بيد أنَّه حين يتّم الابقاء عليها، هذه التحوّلات، تصبح عادية، حتَّى يطرأ حدثٌ مغايرٌ جديد يؤثِّر في سيرها. تجعل العمليَّة تعريف ما يمكن اعتباره غير معتادٍ دائم التبدّل. بل يحدث هذا بوتيرةٍ عالية، بحيث يتبادر إلى الذهن

بأنَّ ما هو غير معتاد لا يكفّ عن الحدوث بصورةٍ اعتياديَّة، مزيدًا على الدوام من حالة التوجُّس الملاصقة بالأيَّام في هذا المكان، حتَّى حينما لا يبدو بأنَّ شيئًا يحدث فيه بالفعل. لكن قبل بداية فصل الخريف، تنتشر أخبارٌ مباغتةٌ غير اعتياديَّة تتعلَّق بالوضع، فئةٌ من الناس تأمل أنَّها تعني بأنَّه سيتحسَّن، بينما البعض الآخر يخشى أنَّها تؤكِّد فحسب بأنَّه سيزداد سوءًا. كذلك في هذه الفترة يقبل المعلِّم ببقاء المتدرِّب معهم في المشغل كأجير، أسوةً ببقيَّة الشَّغيلة.

مع دنوّ الخريف من منتصفه يحلُّ المطر الأوَّل. تمطر على مدار يومين مطرًا خفيفًا، كافيًا لأن يقود المزارعين إلى البدء بموسم جدِّ الزيتون. يستمرُّ الاشتغال بالموسم لعدَّة أسابيع يوميًّا، منذ حلول الفجر وحتَّى وقت المغيب. إضافةً إلى قطف الزيتون، ينتهز أصحاب الأرض فرصة تواجدهم في الكروم ويبدؤون بتقليم الأشجار بعد الانتهاء من تلقيط حبِّها، بهدف تمكين الضوء والهواء من بلوغ كامل فروعها ونموِّها بعافية. في أحيانٍ قليلةٍ جدًّا قد تُقتلع شجرةٌ ما كلِّيًّا بعدما يكون المرض قد أصاب جذورها، أو هاجمها نوعٌ من الحشرات الضارَّة التي تمتصُّ سوائل أفرعها وجذعها. مع أنَّه إجمالًا، يبقى شجر الزيتون قادرًا على مواجهة آفاتٍ عديدةٍ والصمود أمام ظروفٍ بيئيَّةٍ قاسيةٍ على مدار العام، بالطبع باستثناء ما تأتي عليه الظروف السياسيَّة، وتشهد على قيام سلطات الاحتلال أو المستوطنين باقتلاعها أو حرقها. عقب قصِّ الأفرع وقلع الجذوع المريضة أو الميتة، يعمد المزارعون إلى تقطيعها وبيعها أو نقلها إلى بيتوهم لاستخدامها كحطب نار.

على الرغم من أنَّه يوم عطلته وبإمكانه أن يستيقظ متأخِّرًا، يصحو الأجيرُ في فجر يومٍ من أيام هذا الخريف. يتَّجه إلى شجرة التين التي لم

يتبقّ الكثير من الثمر عليها وقد بلغ الخريف منتصفه. يخلّص ثلاثة أكوازٍ من بين بضعةٍ قليلة سبقته إليها مناقير العصافير. يأكلها بعد التدقيق في لبّها تحت ضوء الفجر المتلاشي وهو يَدور بتؤدةٍ في حديقة البيت الصغيرة. يغادر إثرها. مع شروق الشمس، يعود حاملًا جذع زيتونٍ ضخم، يتّجه به إلى غرفته ويضعه على الأرض قرب النافذة. يُخرج من كيسٍ بلاستيكي نال منه التجعُّد معدّات حفر حملها معه من المشغل إلى البيت. ثمَّ يباشر بدقّ أداةٍ حادَّة الرأس في الجذع بمساعدة مطرقة يهوي بها عليها.

تقود الطرقة الأولى في جذع الزيتون وما يليها من طرقاتٍ حتَّى نهاية اليوم إلى ظهور ما يشبه الحارك لحيوان. منه تتّجه أدوات الحفر في فجر اليوم التالي يمينًا لتصنع ظَهرًا يمتدُّ حتَّى قاعدة ما يبدو بأنَّه ذيل، قبل أن تعود يسارًا لترتفع وتشكّل ما يصبح بحلول العصر عُرفًا. يرجع الأجيرُ عقبها إلى أسفل الظهر، ويحفر كتفًا وجزءًا من الخاصرة، يتمُّها في أوَّل يومٍ من نهاية الأسبوع التالي، حافرًا في الخشب في اليوم الذي يليه ما يبين بأنَّه أسفل البطن ثمَّ الصدر، ومنهما يصعد لحفر أسفل الرقبة. في الأسابيع المقبلة، يتحوَّل إلى حفر أجزاء تستغرق وقتًا أطول وتتطلَّب دقَّةً بالغة في العمل، من اتّساع الخياشيم وحتَّى علوّ بداية الذيل عن مستوى الظهر والأطراف الأماميَّة المرتفعة في الهواء. كذلك تنكسر إحدى الأدوات التي تعود للمشغل أثناء عمله على المجسَّم.

تستغرقه عمليَّة تشكيل هذا المجسَّم ساعاتٍ طويلة، تقتضي أيَّامًا عديدةً من أيَّام عطلته. ينكبُّ طيلة النهارات على حفره، حفّه، تصحيح بعض زوايا وثنيات أطرافه، وتموجٌ شعر الناصية والذيل، ثمَّ دهنه، تركه لينشف، حفّه ثانية، ومن بعدها دهنه بمادَّة الشمع الشفَّافة، لتجعل

من ملمسه في الخاتمة شديد النعومة. حين ينتهي من صنعه، يمنحه لوالدته.

حصانٌ خشبيٌّ بارتفاع ساق، جسمه ينتصب في وقفة تجعله يلمع في عدَّة مواضع تحت الضوء الخافت الممتدّ في غرفة الجلوس. من الممكن، لو أنَّه حيٌّ هذا الحصان، سماع صهيله الذي تظهر آثاره مكتومةً في طرفيه الأماميَّيْن المرتفعَيْن عاليًا في الهواء.

في صغرها، كان على والدته الاعتناء بحصان والدها. تطعمه وتنظِّف حظيرته الصغيرة، ثمَّ تخرج معه للرعي. يأكل ما ينبت من أعشابٍ ونباتاتٍ برِّيَّةٍ على حواف الطرقات وفي بعض الأماكن التي لمَّا يمتدُّ العمران إليها بعد، فيما هي ترقبه بسكون. كان هذا الحصان، بتعبير والدته، الكائن الوحيد في تلك الأيَّام الذي منحها قدْرًا من الحبِّ في دنيا مشبعةٍ بقسوة الحياة وقهرها. ثمَّ تزوَّجت.

تمرِّر والدته يديها فوق الحصان الخشبيّ بحذرٍ طفوليّ يشوبه الاجلال، ناقلةً بصرها بين طرفيه الخلفيَّيْن اللذين يقف عليهما، وطرفيه الأماميَّين اللذين يعلو أحدهما الآخر، انتهاءً بفمه حيث يحبس داخله صهيله الأبديّ. يقتفي الأجير بعينيه السعادة التي تزحف ببطءٍ إلى عيني والدته الحادَّتين، وشفتيها المطبقتين حين تفرجهما قليلًا.

الحصان الحاليُّ مختلفٌ بدرجةٍ كبيرةٍ عن ذلك المعلَّق كلوحةٍ في غرفة الجلوس، وصنعه من أجلها وهو في السجن. أنتجه مستخدمًا عيدان ثقابٍ محترقة، انصرف إلى جمعها من الأسرى في الزنزانة بعد إشعالهم سجائرهم على مدار أشهر. لإتمامه، كان عليه في البدء ترتيب العيدان بجانب بعضها البعض، ليشكِّل الجزء المحترق فيها خطًّا أسود،

يمكن إمالته وتطويعه لرسم عنق الحصان وتكوين قمّة رأسه، ثمّ أعلى قليلًا لرسم مُثلّثين صغيرَيْن متباينَيْن هما الأذنان تنتصبان مشدودتين، تلاصقان في أسفلهما اتّساع الجبهة التي تحوي دائرةً شبه بيضاويّة يحتدُّ طرفاها لتخطّ إحدى عيني الحصان الواسعتين، وتحتها تتّسع استدارةٌ طفيفةٌ للفكّ، قبل أن يواصل الخطّ نزوله حتّى يستدير ويكوّن الخطم الممتدّ نحو الأعلى باتّجاه الجبهة، خاطًّا قصبة الأنف. تلك اللوحة اليدويّة لرأس الحصان التي يرسمها بواسطة النهايات المحترقة لأعواد الثقاب، هي كلُّ ما يحمل معه إلى الخارج عقب تحريره من السجن، إضافةً إلى ستّ عشرة رسالةً مضغوطةً في هيئة حبّة دواء، معدَّةً للتهريب، يبتلعها اليوم المفترض للإفراج عنه. مجمل الرسائل التي يبتلعها موجّهة، كعهد هذه الرسائل، إلى أمّهات الأسرى أو زوجاتهم خارج السجن، ويُنْتَظَر منه توزيعها عقب تحريره. لكنّ تلك المحاولة، كغيرها، لا تمضي ببساطة. هكذا محاولاتٌ تشهد بشكلٍ منظّمٍ إبقاء إدارة السجن أيَّ أسيرٍ يوم إطلاق سراحه لثلاثة أيّامٍ إضافيّةٍ في أدنى حدٍّ تحت المراقبة، لإجباره على التبرُّز، ومن ثمّ تفتيش برازه بحثًا عن أيّ رسائل مهرَّبة. في حال تمّ إيجادها، عدا عن مصادرتها، يتمّ إنزال أشدّ العقوبات بهذا الأسير كما آخرين، بدءًا بتأخير الإفراج عنه وحتّى حرمانه وحرمان الأسرى المُرسِلين لهذه الرسائل من الزيارات، وتحويلهم في بعض المرّات إلى الحبس الانفراديّ. لذا، يحجم كلُّ من يوشَك الإفراج عنه خلال أيّام المراقبة هذه عن الإخراج تمامًا. في حالة الطالب الأسير يجري إخضاعه للمراقبة ليس لمجرّد ثلاثة أيّام، إنّما لعشرة أيّام، بعد وصول إدارة السجن معلوماتٌ من قبل أحد العصافير تفي بأنّه ابتلع قدرًا كبيرًا من الرسائل المضغوطة بهدف تهريبها. بالفعل

ستَّ عشرة رسالةً هي عددٌ كبيرٌ جدًّا. مع ذلك ينجح بعدم الإخراج إبَّان الأيَّام العشرة تلك، وإيصال جميع الرسائل إلى أصحابها عقب تحريره. من ناحيةٍ أخرى، تبدأ على إثرها معاناته من مشكلة الإمساك المزمن التي تتفاقم بشدَّة في حالات التوتُّر أو أثناء مروره في ظروفٍ صعبة. أي لا يتوقَّف شبح الإمساك عن مطاردته.

يحدو ظهور تمثال الحصان الخشبيّ في البيت بصاحبة محلّ الفلافل إلى لفظ عبارةٍ جديدةٍ بين آنٍ وآخر، همّها مطالبة الآخرين بضرورة التحرُّك بحذرٍ في محيطه. أمَّا الحصان فيتعثَّر ويقع. يقع مرارًا. ينكسر أحد طرفيه الأماميَّين، عنقه، ذيله، مرَّةً تلو المرَّة، ما يثير سخط صاحبته التي لا تكفُّ عن توجيه تحذيراتها لكلّ من يقربه. من الممكن الاشتباه بأنَّ أداة الحفر الحادَّة التي انكسرت خلال صنعه قد أصابته بعدوى الانكسار. الأجير، قبالتها، يجلب من المشغل بعض الصمغ الخاصّ بلصق الخشب، ليجبر ما ينكسر. مع هذا، تبقى آثار مواضع الجبر بائنةً على الخشب، ويتخلَّى الحصان بالتدريج عن نعومة ملمس خشبه التي يتمتّع بها في البداية.

في زمنٍ آخر، يمضي دون تمكُّن أيِّ أحدٍ من الإحاطة بجميع تفاصيل ما يحدث خلاله سوى أنَّ الربيع يقترب من نهايته، وأنَّ قرب عاملة النظافة من المشغِّلة يتعزَّز. تلتقيان باستمرار. لكنّ سطوة الانقباض في حياتها لا تخفّ، وحالة التوجُّس لا تتبدَّد. تبدأ فحسب باستغلال ساعات فراغها في قراءة المراجع الضروريَّة لمساقاتها الجامعيَّة والعمل على واجباتها التي ربَّما يمكنها تقديمها وأخيرًا مطبوعةً وبلغةٍ عبريَّةٍ منقَّحة. العقبة الوحيدة أمامها حاليًّا أنَّها حالما تباشر بالعمل عليها، يجتاحها النعاس. ثمَّ ما إن تضع الكتاب جانبًا كي تنام، يوقظها الانقباض،

وهكذا دواليك. لكنَّها لا تستسلم. ليلةً بعد نهارٍ تصارع الكلمات، تقاوم النعاس، تناضل في سبيل كتابة فقرة، تمحو نصفها إلى أن تحلَّ وأخيرًا ليلة، تكتسح عتمتها في الخارج نسائم عليلة كتلك التي تتحلَّى بها المدينة في أوائل الصيف.

يستبدل فوضى الخيول المتسابقة ليلتها خبطٌ رقيقٌ متتالٍ على لوحة مفاتيح الحاسوب. على هذا النحو ينبعث صوت ضغط الأصابع فوقها على مدار ساعات تلك الليلة، ثمَّ الليلة التالية، فالتالية. فيما يصبح مجموعه ثلاث ليالٍ مديدةٍ من إحدى نهايات الأسبوع، تطبع المشغِّلة الواجبات الجامعيَّة لعاملة النظافة الجالسة قربها تتلو عليها ما كتبت. بالموازاة مع طباعتها يجري تحرير النصوص وتدقيقها لغويًّا، وإعادة صياغة بعض المقاطع التي برأي المشغِّلة لا تزال مبهمةً أو ضعيفة. في كلّ الأحوال، لا تتحدَّث الاثنتان مطلقًا عن الوضع الذي يأخذ مُجدَّدً منحًى مغايرًا وبشكلٍ متسارع، مؤكِّدًا ما خشيه العديد من قبل، بأنَّه لا بدَّ أن يزداد سوءًا. الببَّغاء، على حدة، تواصل صياحها المعهود. سلام سلام.

وهكذا بحلول نهاية العام الدراسيّ، تتسلَّم الطالبة درجاتها النهائيَّة على ما قدمَّت من واجبات. النتائجُ تتراوح بين جيِّدةٍ جدًّا وممتازة. تسرع إلى أقرب هاتفٍ عموميٍّ في حرم الجامعة، وتتَّصل بالمشغِّلة التي تحضر للقائها ذلك المساء. تأخذها في لفَّةٍ في السيَّارة، فوق الشوارع المحاذية للسكن الجامعيّ، غير المكتظَّة كعادتها. لا تقولان لكثير. حين تحاول التعبير عن امتنانها للدعم الذي قدَّمته لها المشغِّلة. توقفها الأخيرة بابتسامتها الطيِّبة، قائلةً إنَّه لا دور كبيرًا لها في كلّ هذا، وأنَّ ما قدَّمته من دعم لا يتعدَّى ما تفعله يوميًّا كسكرتيرة؛ إنَّما هي التي تودُّ أن تشكرها. ثمَّ تقترح بأن تتناولا العشاء معًا.

أثناء العشاء، تعلن المشغِّلة بأنَّها قرَّرت التوقُّف عن جلسات العلاج. إنَّها تشعر بأنَّها بخير. كما أنَّه لا يمكنها مواصلة دفع تكاليف الجلسات الباهظة، واصفةً الطبيب النفسيَّ مرَّةً أخرى بأنَّه مصَّاص دماء. تتحسَّس عاملة النظافة بلسانها شيئًا عالقًا بين أسنانها، قبل أن تطلق رأيها المضادّ، قائلة بأنَّها وجدت الطبيب النفسيَّ لطيفًا. ترمقها المشغِّلةُ عندها بنظرةٍ طويلة تصحبها ابتسامةٌ خفيفة، تكفي كي لا تستفسر عاملة النظافة عن حكم لا تنبس به الأولى.

سوى أنَّه بمقدم الشتاء، ينجلي بأنَّ حالةً من انعدام الثقة تتجذَّر بين الأجيرِ والمعلِّم. تأخذ الأمور بينهما هذا المنحى غير المتوقَّع بعد اكتشاف المعلِّم، بطريقةٍ ما، أنَّ الأجيرَ اصطحب بعض المعدَّات والموادّ من المشغل إلى بيته دون إذنٍ منه. هل أخبره العصفور؟

الأجيرُ لم يقدِّر الموقف جيِّدًا، بأنَّ المعلِّم قد يغضب إلى هذه الدرجة حين يعلم بالأمر، أو بأنَّ غضبه على عدم استئذانه سيفوق غضبه على كسر إحدى أدوات الحفر. يترك الحدث أثرًا بائنًا على العلاقة بين الاثنين لم يمكن جبره، مُدشِّنًا حقبةً جديدةً من أجواء الامتعاض والبرود بينهما. تشرع نظرات المعلِّم المفعمة بالارتياب بمحاصرة كلِّ حركة يأتي بها الأجير. إنَّها تجعله في حالةٍ من التأهُّب القلِق، بينما هو قابعٌ تحت المراقبة في زاويته من الطاولة داخل المشغل المكتظِّ برائحة الصمغ والشمع والشاي الذي لا يتوقَّف بقيَّة الشغِّيلة عن شربه، يحوم حولهم دخان سجائرهم. في الخلفيَّة كذلك لا تكفّ ضوضاء المذياع. ينفذ من هذه الأجواء لحظيًّا حين يترك موضعه قرب الطاولة لإحضار قطعة خشبٍ من المخزن، أو لوقتٍ أطول، كي يحمل جذوع الزيتون والأغصان الغليظة الملقاة في الخارج وينقلها إلى القسم الخلفيِّ من

المشغل، ثمَّ يكنس ما تخلّفه من بقايا خشبٍ وديدانٍ وحشرات. يجمعها في المجرود ويرمي بها كالمعتاد فوق السلسلة الحجريَّة.

في هذه الفترة من أواخر الشتاء، ينبثق بين حجارة السلسلة العشب والنباتات البرِّيَّة الخضراء اليافعة، غالبيَّتها لنبات النجيل ذي الأوراق الرفيعة الطويلة، والخبَّيزة بأوراقها المضلَّعة المجتمعة في شبه دائرة، متوَّجةً بزهرٍ بنفسجيٍّ صغير، بمحاذاتها نباتاتٌ أخرى. بضعُ زهرها بنفسجيٌّ كذلك لكن إبريّ، يكسو عروقها الشوك وتعترض أوراقها خطوطٌ بيضاء دقيقة؛ هذا نبات الخرفيش. ثمَّ هناك الحمَّيض الذي يظهر بين أوراقه الناعمة الصغيرة زهرٌ أصفر دقيق، يتشابك مع عروق نبات الصفَّير المعروف بأوراقه الأطول والأقسى. كما وتنتشر على العديد من أوراق هذه النباتات والأعشاب ثقوبٌ أو نتوءات، أحدثتها الحشرات والديدان التي تقتات عليها، إلى جانب ما يتعلَّق بها من قطر الندى أو نقاط المطر. قد ينحدر قدْرٌ من هذه النقاط على مهلٍ وبِرِفقٍ نحو الحجارة المبلولة والتربة الموحلة بفعل ما يجوب حولها من حشراتٍ وديدان، بعضها يزحف بين سيقانها وأخرى تحطُّ على أوراقها، أو قد تدفعها الريحُ التي تهبُّ بقوَّةٍ بين وقتٍ وآخر. ثمَّ في لحظةٍ أخرى، قد تتلاشى الغيوم من السماء وتستعيد الطبيعة وهج ألوانها ثانية.

ينقضي الشتاء، ليتقدَّم الزمن مختصرًا الربيع، مسرعًا نحو نهاية الصيف، جالبًا الخريف إلى منتصفه، معلنًا اكتمال ثلاثة فصول، لم تلتفت الطالبة في غضونها إلى التحوُّلات الطارئة لا على الطبيعة ولا على الحياة من حولها، فيما هي تتنقَّل من سكنها الجامعيّ وإلى قاعات المحاضرات، ثمَّ إلى الشقَّة في الطابق السادس التي تداوم على تنظيفها مرَّةً كلَّ أسبوعَيْن.

في الآونة الأخيرة، تغدو الشقَّة أشدَّ قذارةً عمَّا دامت عليه حتَّى وقتٍ قريب. يضطرُّها هذا كلَّ مرَّةٍ إلى تمضية وقتٍ أطول في تنظيفها. لا تعود تنجح بالانتهاء من جميع مهامِّها قبل عودة المشغِّلة. أمَّا المشغِّلة، فمرَّةً بعد مرَّةٍ تأخذ نظرةٌ ساهمةٌ تحدُّها اللا دِعة تستوطن عينيها، مستبدلةً اللمعان السابق في عينيها. قد يكون هذا ما يدفع بعاملة النظافة إلى سؤالها ذات مساءٍ عن أحوالها. السؤال يبدو مباغتًا للمشغِّلة، أو ربَّما في غير محلِّه. بصوتٍ يشوبه الاستغراب يأتي ردُّها قادمًا في صيغة سؤال. بخير؟

بالتوازي مع هذا، يحدث أن صحفيًّا ما، حال كثيرين قبله ثمَّ بعده، يقدم إلى البلاد بهدف التغطية الإخباريَّة. الصحفيّ، كما هو متوقَّع، لا يتقن لا العربيَّة ولا العبريَّة، ويحتاج إلى مترجمٍ أو مترجمة يمكنها أن تكون هي، وفق ما تقترح المشغِّلة التي تعرض عليها فكرة العمل. يقوم هذا الصحفيّ بالاتصال بالمؤسَّسة التي تعمل بها، كونها مؤسَّسةً على تواصلٍ مع فلسطينيِّين وإسرائيليِّين، لطلب المساعدة في ترشيح شخصٍ قادرٍ على أداء مهمَّة مرافقته والترجمة. توافِق.

يسعى الصحفيّ، بشكلٍ رئيسيّ، إلى كتابة المقالات وتدوين الأخبار بصدد شتَّى الأحداث التي يتسبَّب بها الاحتلال أو المتعلِّقة بظروف الحياة تحته. عليه، تستوجب مهمَّتها إيجاد أشخاصٍ مناسبين لإجراء مقابلاتٍ معهم. محاور المقابلات متنوِّعة. من استيلاءٍ على أراضٍ واقتلاع أشجارٍ وحرقها، ومظاهراتٍ وإلقاء حجارة، وحتَّى سحب هويَّاتٍ واعتقالاتٍ واعتداءاتٍ بالضرب، ومن وقتٍ لآخر تبعات الاغتيالات السياسيَّة وقتل قوَّات الجيش لأناسٍ من مختلف الأجيال والأجناس والطبقات، كلُّ ذلك يجري بالعربيَّة، تترجمها هي في مقاطع إلى

الإنجليزيَّة، أحيانًا أشدَّ اختصارًا، كما وقد تنسى ترجمة بعض العبارات. هي مصاعب معهودةٌ في الترجمة الفوريَّة. خلال العمل على كلِّ موضوع ترتَّب أيضًا لقاءاتٍ مع محلِّلين سياسيِّين ومختصِّين في قضايا مُعيَّنة، ومتحدِّثين حكوميِّين رسميِّين، يعقِّبون من طرفهم على ما يحدث أو يبرِّرونه، كلٌّ وموقعه، بالعربيَّة أو بالعبريَّة، لكن غالبًا بالإنجليزيَّة. إلى جانب هذا، تقوم بترتيب لقاءاتٍ مع مستوطنين وقادتهم في إطار تحضير الصحفيّ لتقارير عن ممارسات المستوطنين، معظمها حرقٌ لأراضي الفلسطينيِّين واعتداءاتٌ عليهم بشتّى الوسائل، منها ما قد ينتهي بالقتل. ثمَّ تتباين المواضيع التي يرغب الصحفيّ بتغطيتها، مقتضيةً ترتيبها للقاءاتٍ مع متظاهرين ومعارضين للاحتلال، من بينهم رافضون للخدمة العسكريَّة وحركاتٌ نسويَّةٌ يساريَّة، إضافةً إلى مؤرِّخين وكتَّاب، ذلك بالعبريَّة وبالإنجليزيَّة. عمومًا حين يجري الحديث بالإنجليزيَّة، لا حاجة لها إلى الترجمة. غالبًا ما تنسحب إلى مكانٍ منزو. تسهم في الفراغ، أو تلاحق عيناها حركة بعض الحشرات، كمحاولات مجموعةٍ من النمل حمل حبَّة بذور، إن لم تتابع هبوب النسيم في تحريكه ستارة نافذةٍ، أو أوراق الأشجار.

لكنَّ وتيرة الأحداث وحدَّتها تتسارع، مستوجبةً الصحفيّ على العمل على تقارير من نوعٍ آخر، تتعلَّق بتفجيراتٍ لحافلاتٍ إسرائيليَّة، ترتَّبُ في إطارها لقاءاتٍ مع بعض عائلات المصابين والقتلى، كما متحدِّثين رسميِّين. بعد بضعة أسابيع من العمل المضني شبه اليوميّ معًا، في ظلِ ازدياد الوضع سوءًا يومًا بعد يوم، يسألها الصحفيُّ إن أمكنه لقاؤها خارج سياق العمل، في المساء. تردُّ بالإيجاب. تمنحه عنوان سكنها الجامعيّ.

يحلُّ المساء. تتَّجه إلى مدخل مبنى سكنها وتجلس أمامه، حتَّى يظهر الصحفيّ حاملًا في قبضته ضمَّة أزهار تفضح أضواء المدخل التواءات بتلاتها. تحاول أثناء استقبالها له إدخاله بسرعةٍ إلى المبنى، مختلسةً النظر إلى شرفة الطابق الأوَّل، حيث تمكث الببَّغاء التي قد تكون صاحيةً في تلك الساعة.

في غرفة سكنها الضيِّقة، يشربان قليلًا ويتحدَّثان. بدايةً يتحدَّث هو عن المنظر البديع الذي ينبسط من نافذة غرفة سكنها المطلَّة على الجبال الجرداء المخمليَّة شبه المعتمة. يفتح النافذة، ويبقى واقفًا هناك متأمِّلًا ما يبين عبرها من زرقةٍ داكنةٍ فوق خطِّ الأفق، تتحوَّل إلى كحليَّةٍ فيما تتَّجه صوب لبِّ السماء. تحت خطِّ الأفق مباشرةً تتناثر أضواءٌ قليلة، تتكاثف في قرى ثمَّ أحياءٍ مع دنوّ سفوح الجبال من محيط الجامعة. صامتًا لبعض الوقت، يعلِّق وأخيرًا بأنَّ المشهد توَراتيّ. ينتقل بعدها إلى الحديث عن مدى تألُّمه من جرَّاء كلِّ ما شهده خلال الأسابيع القليلة المنصرمة. لاحقًا يقرُّ ضاحكًا، ربَّما ثملًا، بأنَّه بعد أيَّامٍ من وصوله أرسل لعائلته صورته متوشِّحًا بحطَّة، حاملًا صحيفةً باللغة العربيَّة، مرفقةً برسالةٍ بأنَّه جرى اختطافه من قِبل إرهابيِّين. لا تعلِّق. إنَّما طيلة أمسيتهما معًا لا تعبِّر عن آرائها حيال ما يقول، كما لا تقول الكثير. يظهر بأنَّه لا يضيرها الاستماع. إلَّا أنَّها مع حلول الفجر، عقب يوم عملٍ طويل، تبدأ بالتثاؤب. ترافق الصحفيَّ إلى الخارج وتمشي معه قليلًا داخل برد الفجر الرماديِّ الرطب الذي لا يتوانى عن بثِّ القشعريرة في الجلد. تودِّعه ويقبِّلها. وتقبِّله. ثمَّ يقبِّل أحدهما الثاني. حين تعود أدراجها إلى مبنى سكنها الجامعيّ، تطوّقها من كلِّ صوبٍ رائحة قبلاتهما التي يتضرَّج بها الهواء وكان يخلو من أيِّ عبقٍ حتَّى ما قبل هنيهة. ثمَّ هناك في صلب الفجر

يكون من هو بانتظارها، يتربَّص لها. ما إن تبيت على مقربةٍ من الشرفة في الطابق الأول من مبنى سكنها، حتَّى تنطلق الببَّغاء بصداح ما قبل الصباح. سلام سلام، مملّ مملّ. فجأةً تصرخ المترجمة نحوها قائلةً إنَّ هذا ليس من شأنها، ومن الأفضل لها أن تتوقَّف عن مراقبة الآخرين وأن تنشغل عوضًا عنها بأمورها الشخصيَّة. لكنَّ الببَّغاء لا تتوقَّف. يخفُّ صوتها فحسب حين تغلق المترجمة الباب الرئيسيَّ لمبنى سكنها، ثمَّ يعلو مجدَّدًا حين تدخل غرفتها، فتهرع إلى النافذة التي لا تزال مفتوحة، وتغلقها بسرعة. عندها يخفُّ صداح الببَّغاء ثانية.

تجلس إلى طاولتها، ويجلس الأجير إلى طاولته فيما يصادف الصباح ذاته من أحد الأيَّام التي تبتدئ فصل الشتاء.

حدَّة العتمة المتنامية في أنحاء المشغل وبرودته مع بداية الشتاء تجعل مهمَّة الحفر أكثر مشقَّة، أو هو السببُ الآخر الذي يؤدّي بالأجير إلى العمل بغير تلهُّفٍ وببطء، مقارنةً بالدقَّة والتفاني اللذين أظهرهما في الماضي، كما أثناء عمله على الحصان الخشبيِّ المهدى لوالدته. على الأرجح بدأ يملُّ عمله. بعد إنتاجه الكثير منها، من المفهوم أن تفتر حماسته ويأخذ بالتلكُّؤ في حفر تماثيل ومجسَّماتٍ متشابهة، أفضلها بنظر المعلِّم تلك التي لا يمكن تفريقها البتَّة عن العيِّنات، أو كما يقول نسخةً طبق الأصل. أمَّا كيف صارت العيِّنات أصلًا فهذا سؤالٌ آخر لا يمكن الخوض فيه الآن. ما يهمّ، أنَّه حين تطرأ أيُّ فروقاتٍ ولو صغيرةٌ على أيٍّ من التماثيل التي يحفرها، كخدوشٍ في غير مواضعها تباعًا للعيِّنة، تعزى إلى هفوةٍ أو زلَّةٍ أثناء استخدام إحدى الأدوات، يصير لزامًا عليه تمضية وقتٍ إضافيّ لتصحيحها، تلطيفها، أو تخبئتها، بحيث تعود الوجوه الخشبيَّة إلى فراغها السابق من أيّ تعابير، والأجسام إلى

وقوفها أو جلوسها المتكلّف. في أحيانٍ قليلة، عندما تكون الفروقات كبيرة، ولا ينجح بتصحيحها أو إخفائها، يصير مجبرًا على التخلُّص من التمثال برمَّته، والشروع بصنع واحدٍ جديد. هذا كلُّه يبطئ من إيقاع إنتاجه أيضًا. مع ذلك يواصل عمله في المشغل، دون أن يكفَّ عن صنعها، شتّى التماثيل والمجسَّمات المنسوخة المكرَّرة على شاكلة ما تنتج بقيَّة المشاغل. على الأقلّ والدته راضيةٌ عنه. على حدّ تعبيرها، سلَّك أموره وأخيرًا ووجد شغلًا يخرجه من فراشه كلَّ صباح.

في الصباح الذي ينجلي عقب حضور الصحفيّ لزيارتها للمرَّة الأولى، لا تصحو الطالبة وقد خلدت إلى النوم بعد شروق الشمس. تستيقظ في العصر، ممّا يحول دون انضمامها لمحاضرات ذلك اليوم. تبقى في فراشها حتَّى مغيب الشمس وحلول الظلام، وربَّما خلود الطيور إلى النوم. تخرج ساعتها. وما إن تطأ قدماها الممرَّ الممتدَّ بين مدخل عمارة سكنها والبوَّابة الرئيسيَّة، حتَّى ينطلق صداح الببَّغاء من جوف العتمة، مردِّدةً سلام سلام، مملّ مملّ، جبانة جبانة. تواصل مسيرها محاطةً بالعتمة غير الدامسة بفعل أنوار الشوارع القويَّة شاحبة البياض. تسير باتِّجاه محلّ الفلافل القريب من سكنها الجامعيّ. عندما تبلغ محيطه، يلاقيها ضوءٌ أزرق ينير المكان وواجهة المحلّ بشكلٍ متقطِّع، مصدره مصباحٌ يعتلي مركبةً عسكريَّةً لدوريَّة حرس حدود. لا تقطع الشارع باتِّجاه المحلّ، إنَّما تواصل مسيرها نحو جهة اليسار، إلى مقبرةٍ تحتلُّ مساحةً شاسعة تقع قبالة حيّ السكن الجامعيّ. تمشي بين شواهد القبور الرتيبة المتشابهة، يتوسَّطها نصبٌ تذكاريٌّ ضخم. تطوف في أنحاء المقبرة لما يقارب نصف الساعة، أو أقلّ. البرد شديدٌ في مثل هذا الوقت ولا يمكن للعديد تحمُّله. ترجع ماشيةً صوب محلّ الفلافل. المركبة

العسكريَّة لم تغادر. تتَّجه عائدةً أدراجها إلى سكنها الجامعيّ. في كلّ الأحوال ليس من المستحسن تناول الفلافل في المساء. لدى عودتها، تكون الببَّغاء في استقبالها، مكرِّرةً إنشادها. سلام سلام، مملّ مملّ، جبانة جبانة. لم تخلد إلى النوم بعد إذًا. لا تردُّ الطالبة هذه المرَّة أيضًا.

من المحتمل أنَّ الببَّغاء، مثل ما يحدث للطيور المهاجرة، تعاني الأرق منذ فترة. إجمالًا يتلبَّس الصحوُ الطيورَ قبل حلول موعد هجرتها. يعود الأمر بشكلٍ رئيسيٍّ إلى تغيُّر طول النهار، ممّا يؤدّي إلى حدوث تبدُّلاتٍ على جسمها ورفع مستوى نشاطها، مستشرفةً حاجتها إلى الطيران ليلًا لمسافاتٍ طويلةٍ على مدى أسابيع. الطيور في الأسر كذلك لا تنفذ من هذا الأرق، إذ تبدأ هي الأخرى بالتململ داخل أقفاصها مع مغيب الشمس وحلول العتمة، مفصحةً عن اعتزامها التحليق طواله، بينما تلازمها حالةٌ من الصحو القَلِق. بل حبيسة القفص، تدور هذه الطيور نحو الاتِّجاه نفسه الذي تتبعه بقيَّة الطيور من نوعها خلال رحلتها، وكانت ستتَّخذه لو أنَّها طليقة. بهذا، تتملّكها طيلة فترة الرحلة حالةٌ من التنبُّه الشديد وتستمرّ معاناتها الأرق إلى أن تنتهي عمليَّة الهجرة ويصل باقي أفراد فصيلتها إلى مستقرّهم الجديد.

تصعد درجات المبنى باتِّجاه غرفتها. تشرب الماء الذي يساعد إلى حدٍّ ما بسدِّ الإحساس بالجوع، ثمَّ تخلد إلى فراشها. إلَّا أنَّها تبقى صاحية تتقلَّب داخله حتَّى ما قبل حلول الفجر. تنام ساعاتٍ قليلة. في الصباح التالي، تجهِّز نفسها للخروج. وحالما تدلف من مبنى سكنها الجامعيّ، تهرع الببَّغاء إلى إطلاق سيل العبارات السابق نحوها. تتَّجه إلى الجامعة وتلتحق بمحاضراتها. بعد انتهائها، وهي ثلاث محاضراتٍ لذلك اليوم، تتَّجه لتنظيف الشقَّة.

مرَّةً أخرى تكون الشقَّة في حالٍ أسوأ ممَّا دامت عليه حتَّى قبل أشهر. القمامة وبقايا الطعام منتشرةٌ في أنحاء المكان، والحمَّام شديد القذارة كما المطبخ. تضطرُّ للعمل لأكثر من ثلاث ساعاتٍ ونصف الساعة بدلًا من ساعتين ونصف الساعة أو أقل، وهي ما احتاجت في الماضي. كما تنتهي ورديَّتها بمهاجمة القطَّة لها وخدشها فيما هي تنظِّف المطبخ. تباغتها القطَّة التي تظهر من حيث لا تلحظ، تخمش يدها اليسرى وتفرُّ هاربةً في لمح البصر. ثمَّ قبل أن تتدارك نفسها، يأتي صوت استدارة المفتاح في باب الشقَّة الرئيسيّ. الوقت يبيت متأخِّرًا هذه المرَّة لدرجة أنَّ المشغِّلة أنهت دوام عملها لليوم وها هي تقف أمامها عند مدخل المطبخ الذي لم تنته بعد من تنظيفه. فيما تقبض على يدها اليسرى محاولةً حبس نبض الدماء من الجرح، تسألها المشغِّلة بهلعٍ عمَّا حدث. مرأى الدم يشعل اضطرابها. تقول عاملة النظافة بأنَّ القطَّة خمشتها، مصرَّةً بأنَّه خدشٌ بسيط. إجابتها لا تخفِّف من الاضطراب البادي في عيني المشغِّلة اللتين تبقيان مفتوحتين على وسعهما. تُهَمْهِم بأنَّ الموضوع لا يحتاج إثارة قلقها البتَّة، حين تهرع المشغِّلة نحو الحمَّام قائلةً إنَّها ستحضر مرهمًا لتطهير الجرح. تعود بعد لحظات، وتباشر بوضع المرهم فوق منطقة الخدش. وما إن تفعل، يحتدُّ الألم فيه كما يشي تقلُّص عيني عاملة النظافة. لاحقًا تتورَّم يدها وأصابعها قليلًا، في الغالب بفعل البرد القارس أيضًا الذي لا يزال يطوِّقها وابتدأه استخدام الماء البارد أثناء عمليَّة التنظيف. إنَّه، بإيجاز، يومٌ بائسٌ آخر من مطلع فصل الشتاء.

البرد شديدٌ في المناطق الجبليَّة والوحل كثيفٌ في المناطق السهليَّة. لا تزال الأمطار تهطل باعتدال، تروي الأرض وتذيب قسوة

تربتها التي تتمدَّد في هيئة بقعٍ موحلةٍ من جديد. داخل الوحل الطريِّ تتمكَّن معظم الجذور من امتصاص المياه، مغذِّيةً جذوع الأشجار وأفرعها، في حينٍ تتعفَّن أخرى، مستشرفةً الموت القادم لأشجارٍ أخرى. تنصرف الديدان إلى التحرُّك بين هذه الجذور على اختلاف حالها، تتمدَّد وتتقلَّص خلال زحفها في جوف الأرض وأحيانًا فوق سطحها فارَّةً من برودة الوحل، أو على مقربةٍ من الحفر الممتلئة بالماء متجنِّبةً صقيعه. غير أنَّ الديدان التي تظهر بغتةً في المشغل وتنتشر حول الأجيرِ فيما بعد، لا علاقة مباشرةً لها بهذه الديدان سوى أنَّها تستجدي الدفء.

في المشغل، ليس واضحًا بالضبط متى تظهر ديدان تعود إلى صنفٍ مختلفٍ عن ديدان الأرض. لونها أقرب إلى الأبيض، كما أنَّها أصغر. يستوطن نوعها في العادة جذوع الأشجار، يقتات على خشبها، يقضمه على مهل حافرًا فيه الثقوب والمسارات، مخلِّفًا وراءه على التربة، متجمِّعًا في أكوام، غبار الخشب الناعم. في بعض الأحيان، قد يتواصل قضمها للخشب حتَّى لا يعود الجذع قادرًا على حمل الشجرة، فتهوي بكامل قامتها على الأرض. تشرع الديدان التي يبدو بأنَّ مصدرها جليٌّ في هذه الحالة، بالزحف ببطءٍ وسكونٍ داخل المشغل، قريبًا من الركن الذي يشغله الأجير، وهو غافل عنها. فيما تواصل الخدوش بالانتشار فوق تماثيل الخشب بين يديه، وبرادة الخشب بالتناثر من حوله، تقترب الديدان منه أكثر فأكثر، باحثةً عمَّا يمكنها أن تقتاته، حتَّى تدخل حركتها الطفيفة البطيئة على الأرضيَّة مجال بصره. على حين غرَّة، تدور عيناه باتِّجاه إحداها، مع أنَّ ليس من المستبعد أنَّه يشعر بوجودها قبل أن تشدَّ حركتها الزاحفة أنظاره. حركة تلك الدودة تجرُّ بصره نحو ديدانٍ إضافيَّة، ثمَّ أخرى خلفها، عندما لا يعود مناصٌّ هناك من ملاحظة وجود

الكثير منها في ركنه. ينصرف بمتابعتها بأنظاره وهي تزحف ببطءٍ شديدٍ في رقعةٍ قريبةٍ. تتلوَّى في حركتها قبل أن تتوقَّف. تلتفتُ إلى اليمين. تلتفتُ إلى اليسار. ثمَّ تعود لتكمل زحفها نحو الأمام. يتابع الجهد الكبير الذي تحتاجه للزحف والتسلُّق على كِسَر الخشب. يبقى في مكانه لا يأتي على حركةٍ لقدْرٍ من الزمن، يرقبها بتنبُّه. حين يرفع رأسه، تلتقي نظراته بنظرات المعلِّم المصوَّبة إليه. تعود يداه إلى مواصلة النحت في الخشب. بين وقتٍ وآخر يرتدُّ نظره للحظةٍ إلى الديدان. بعضها يكون قد تقدَّم أكثر باتِّجاهه وبعضها يكون قد سقط مجدَّدًا على الأرض من موضع راحت تتسلَّقه من قبل بجهد لم يتحمَّله جسمها الهشّ.

إنَّ قدرة هذه الديدان على التسلُّق أثناء الزحف ليست أقلَّ إبهارًا ممَّا تترك من آثارٍ لذلك خلفها محفورةً في جذوع الأشجار، تقدِّم خرائط دقيقةً لمساراتها. قد لا يكون مبالغًا فيه التخمين بأنَّ الطاقة المدروسة البائنة في حركتها، القادرة على إسقاط شجرة، تساهم في الإيعاز للأجير عقب انكشافها أمامه في المشغل، بسبل حفرٍ مغايرةٍ عن تلك المتَّبعة وفق أوامر المعلِّم. منذها، إبَّان دفعهما أدوات النحت فيها، تزحف يداه فوق قطع خشب الزيتون برويَّةٍ أكبر. تدوران يمينًا، تدوران يسارًا، تنزلقان إلى الأسفل، تصعدان إلى الأعلى، حتَّى يبين في غضون أسابيع قليلةٍ على نحوٍ لا لبس فيه بأنَّ الثقل الذي حكم حركة يديه في الأشهر الأخيرة يشرع بالانفضاض. يزول التردُّد عنهما، وتعود الدقَّة، ويعود الإصرار إلى أنامله، راجعًا إلى العمل في ركنه على الطاولة على نحت التماثيل بهمَّة. في خضمِّ عمله المستمرِّ بنشاط مؤخَّرًا، تتنحَّى كذلك الأجواء الباردة الجوفاء عن المكان، ويشرع بالظهور في وجوه ما ينتج من تماثيل ووضعيَّاتها، طائفةٌ من المعالم التي تخلو منها بقيَّة

التماثيل المُنتَجة في المشغل والمشاغل الأخرى. تنكشف الآن فيها تجاعيد في الخدَّين، ترهّلٌ في العينين أو تقوُّسٌ في طرفيهما، ميلانٌ خفيفٌ في الرأس، أو انحناءٌ في الظهر. من الجليّ أنَّ شتّى المعالم التي تأخذ بالارتسام فوق وجوه الأنبياء والصالحين والصالحات وأجسامهم، مصدرها غير تلك البائنة في العيِّنات. لمن تعود إذًا؟

كلَّا. قاومته أمْ استسلمت له، الاضطراب يصرُّ على الاستئثار بتحرُّكاتها، علاوةً على ثقل سيل كلمات الببَّغاء الذي لا يتوقَّف. إنَّه ينصبُّ نحوها كلَّما همَّتْ بمغادرة سكنها الجامعيّ للالتحاق بمحاضراتها، أو لتنظيف الشقَّة، أو لمرافقة الصحفيّ في تغطيته الأحداث بهدف الترجمة، أو لتلتقيه خارج نطاق عملهما. في الآونة الأخيرة، يتقابل الاثنان يوميًّا تقريبًا.

خلال تواتر لقاءاتهما المتزايدة هذه، بينما لا يكفّ الصمت عن لجم كلامها، لا يتوانى الصحفيُّ عن الحديث بانفتاح، بدءًا من التعبير عن أحاسيسه وحتَّى التعبير عن مواقفه وآرائه السياسيَّة حيال مختلف القضايا. غير أنَّ انفتاحه هذا لا يزال لا يسعفها على قول الكثير. ربَّما عدم توفُّر السياق المناسب لما يمكنها أن تقوله، هو ما يسوقها للاستكانة إلى الصمت أكثر فأكثر، أو قد يكون الاستماع فعلًا أقلَّ تعقيدًا بالنسبة إليها من التحدُّث. قد تعلّق بكلمةٍ قبل أن تعود للإنصات إلى مقدار الخفَّة الكبير في الكلام الذي يتمكَّن منه الصحفيّ. إنَّها خفَّةٌ قادرةٌ إلى حدٍّ ما على أن تحْسِر من تعابير الانقباض في وجهها. على الأقلّ هذا باد، إنَّ الصحفيَّ إجمالًا يضفي على حياتها شيئًا ما لا يمكن تسميته بسهولة، لكنَّه على الأكيد يعينها على مواجهة ثقل الواقع المتفاقم من حولها. أحيانًا، كما يمكن أن يحدث لأيٍّ مِنَّا، ينزلق الصحفيّ إلى تكرار قصص

أو آراءٍ سبق له أن شاركها بها. قد يقف خلف هذا مشاهدته الكثير ممَّا لم يسبق له أن فعل وأكثر مما يمكن له استيعابه في ظلِّ ظروفٍ قاسية، يتفاقم تكرارها.

يتواصل قلع الأشجار، تتواصل مصادرة الأراضي، تتواصل الاعتقالات، تتواصل اعتداءات قوَّات الاحتلال على الأهالي، يتواصل إطلاقهم النار على المتظاهرين، يتواصل القتل. وبينما يتكرَّر النهج، في كلِّ مرَّةٍ يتعاظم عددٌ من يتعرَّض له، بحيث تُواصل دائرة القهر والمعاناة اتِّساعها.

ثمَّ في أحد الأيَّام، يعلمها الصحفيّ عن قراره بتمديد فترة مكوثه في البلد بعد انتهاء المدَّة المتاحة له وفق ما تنصُّ عليه تأشيرة الدخول. يقرِّر هذا مع أنَّه أنهى المهامَّ الصحفيَّة التي جرى التعاقد معه عليها. يقول إنَّه يفكِّر بالبقاء في البلد، عليه فقط السفر كلَّ فترةٍ للحصول على تأشيرةٍ جديدة. يقول إنَّ بمقدوره المباشرة من الآن فصاعدًا اقتراح مواضيع لتقارير إخباريَّةٍ على جهاتٍ إعلاميَّةٍ مختلفةٍ من موقعه كصحفيٍّ حرّ. يقول إنَّه سعيدٌ بالعيش هنا على الرغم من الوضع الذي يزداد سوءًا يومًا بعد يوم. يقول إنَّه يُحبُّها.

المعضلة أنَّ تكرار الأحداث لا يؤسِّس لاعتياديَّتها فقط، إنَّما لفقدانها عنصر المفاجأة، بحيث لا يعود بالإمكان اعتبارها أخبارًا جديدة. يملُّها القرَّاء ولا يهرعون لمتابعتها. لا تعود مأساويَّةً سوى لمن تصيبه. وهكذا، على الرغم من استمرار حدَّة وطأتها، لا يساهم تكرارها، هذه الأحداث، على قبول الكثير من مقترحات المقالات التي يحاول الصحفيّ تقديمها بشكلٍ مستقل. جرَّاء ظروف عمله الجديدة، تقلّ فرص عملها كمترجمةٍ أيضًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في الآن ذاته، لا تزال بحاجةٍ إلى تمضية وقتٍ أطول في كلِّ مرَّةٍ من المرَّة السابقة لإتمام مهامها في تنظيف الشقَّة التي تحتدم قذارتها. باستمرارٍ لا تتمكَّن من إنهاء تنظيفها قبل عودة المشغِّلة. برفقة هذه التحوُّلات، تبادر إلى لفِّ الأخيرة سكينةٌ عميقة لا تلحظ عاملة النظافة أنَّها في تزايد، فيما هي منشغلةٌ بإخبارها، كلَّما سنحت لها الفرصة، عن عملها مع الصحفيِّ وعن علاقتها به، عن اقتراب موعد فراغها من دراستها الجامعيَّة، عن عدم مقدرتها على اتِّخاذ قرارٍ بشأن البحث عن مسكنٍ آخر وتغيير مكان سكنها الحاليّ؛ أمورٌ تبدو بأنَّها تشغل بالها. وقد يبعث على التساؤل هذا الإقدام على الكلام غير المألوف الذي تقدر عليه مع المشغِّلة، مقارنةً بندرة ما تتفوَّه به في المحاضرات أو حين تكون مع آخرين، بمن فيهم الصحفيّ. تستمع المشغِّلة إلى كلِّ ما تقول عاملة النظافة دون التعليق، أحيانًا بوجهٍ ساهمٍ وعينين تشوبهما دهشةٌ خفيَّة، فيما الشتاء ينسحب على مهل.

تثب خُضْرةٌ نَضِرةٌ على السهول والتلال على نحوٍ مباغت، تنقضُّ الأوراق على الأشجار وتنمو النباتات بين ليلةٍ وضحاها. برفقتها، تهيج الحيوانات والطيور والحشرات، خارجةً من أوكارها ومخابئها أو عائدةً من جهاتٍ بعيدة، هائمةً على وجه الأرض وفي السماء، طاردةً سكون الشتاء النسبيَّ بأصواتها المتباينة التي تتهادى من كلِّ صوبٍ وحدب، فيما أشعَّة الشمس الباكرة تؤجِّجها، لا تدعها تنام طويلًا خلال ليالٍ آخذةٍ في القِصر. ليلةً بعد ليلة، يغويها الصحو، ويتمكَّن من حركتها التي لا تهدن، مشعلًا اضطرابها. إنَّه الربيع.

بحلول مساءٍ عاديٍّ من مستهلِّ الربيع، تفرغ عاملة النظافة من كامل مهامِّها فقط بعد ما يقارب الأربع ساعات. الشقَّة تكون قذرةً لأبعد

الحدود. نفاياتٌ مرميَّةٌ على الأرض في كلّ رقعةٍ تقريبًا، وبقايا الطعام حتَّى في الحمَّام. وهكذا، مع أنَّ المشغِّلة تعود إلى الشقَّة متأخِّرةً جدًّا من عملها ذلك المساء، تلتقيان. حالما تلمحها، تقول المشغِّلة لها قبل أن تنبس حتَّى بالتحيَّة، بأنَّها تودُّ الحديث معها. تقترح بأن توصلها إلى سكنها الجامعيّ، وفي الطريق تتحدَّثان. تتركان الشقَّة بصمت. في طريقهما إلى الخارج، تلتفُّ عاملة النظافة إلى الوراء للحظةٍ قصيرة. الشقَّة مرتَّبةٌ ونظيفة. ثمَّ تلمح قرب باب المطبخ القطَّة تحدِّق باتِّجاهها بعينين شديدتي الاتِّساع وجسمٍ مقوَّس.

تستقلَّان السيَّارة التي ما إن تترك الموقف، وتلج الشارع الرئيسيّ، حتَّى تقول المشغِّلة بسكينةٍ خالصةٍ بأنَّ الفلسطينيِّين إرهابيُّون. يطبق الصمت عليهما ثانيةً طيلة الطريق، إلى أن تصلا مدخل حيّ السكن الجامعيّ. تنزل. تقول وداعًا قبل أن تطبق الباب خلفها بهدوء يكاد يخنق صوت طرقه لحظة انغلاقه. تغادر السيَّارةُ بهدوءٍ كذلك، تاركةً ما قالت المشغِّلة من كلمات، تلجلج في أنحاء الظلام، كي تتلقَّفها الببغاء. سلام سلام، الفلسطينيُّون إرهابيُّون الفلسطينيُّون إرهابيُّون. تغير الكلمات نحوها، تطاردها آخذةً في الارتفاع وهي تصعد الدرج باتِّجاه غرفتها دون أن تجيب. تطرق الباب خلفها بقوَّةٍ فقط. إلَّا أنَّ الكلمات تباشر بطرقه محاولةً اختراقه بصخب لم يشهد أيُّ بابٍ مثيلًا له.

في الغرفة يكون الانقباض بانتظارها، ليمضي بسحقها هذه الليلة بحدَّةٍ أكبر من ذي قبل.

وبمحض الصدفة الخالصة، حقًّا، في أواخر الربيع ذاته، يُطرَد الأجير من عمله مع نفاذ صبر المعلِّم تجاهه وتجاه هفواته المتتالية. بعد

اصطحابه أدوات الحفر إلى بيته دون إذنٍ منه قبل عامين أو شيءٍ من هذا القبيل، كما وكسر إحداها، المعلّم لا ينسى هذا البتّة، لم يمكنه التغاضي أكثر عن الفروقات المتزايدة في التماثيل التي ينحتها الأجير مقارنةً بالعيّنات التي عليه اتّباعها. وهذه ليست النهاية بعد. الديدان منتشرةٌ لدرجةٍ مقزّزةٍ في الركن الذي يعمل فيه، منها ما يزحف في نواحٍ أخرى من المشغل. إنّه يتعامل مع مهامّه بدرجةٍ من الاستخفاف، بحيث لم يعد يأبه لا بإنتاجه ولا حتّى بتنظيف الخشب الجديد كما ينبغي، مُتسبّبًا بتخفيض جودة ما يصنع المشغل من مجسّمات وبانتشار الديدان داخله أيضًا. لقد طفح الكيل به.

يسرّحُ المعلّمُ الأجيرَ ذلك اليوم. قبل مغادرته، يوضّب المنطقة التي انصرف إلى العمل فيها على مدار السنين القليلة الماضية، وينظّفها. ثمَّ يجمع الديدان في رقعةٍ على الأرض، يدفعها إلى المجرود، ويحملها إلى الخارج. هناك يرمي بها نحو السلسلة الحجريَّة. يغادر المشغل مع ما يمنحه المعلّم من أجرٍ متبقٍّ له وزيادةٍ عليه. في الخارج، يكون بانتظاره عصر يومٍ ربيعيٍّ جميل. إنّه آخر أيّام الأسبوع. حال وصوله البيت، يمنح والدته ما تلقّى كمقابلٍ على عمله، ويحتفظ بالزيادة. في طريقه إلى غرفته يعلمها بأنّه سُرّحَ من العمل.

لدينا الآن عاطِلان عن العمل.

تشهد الأيّام التالية الدفء الربيعيّ المعهود، مع أنّه قد تعقبها أيّامٌ باردةٌ ماطرةٌ أو أيامٌ شديدة الحرّ. هذا هو حال الربيع هنا، شديد التقلّب لا يمكن التكهُّن به. يمضي العاطل عن العمل معظم وقته خلال تلك الأيام في غرفته، أو في الحمّام، حيث يعاود القلق والدته والتوتُّر شقيقتيه.

وكالمعتاد، ينتهي بهنَّ الأمر بالإعلان عن حالة الطوارئ في البيت مع عودة الإمساك إليه. أيَّامٌ عديدةٌ أخرى تنقضي باهتة وعقيمة، تشهد بشكلٍ متكرّر اجتياح المنطقة منخفضاتٌ خماسينيَّة، تغلّف السماء بطبقاتٍ كثيفةٍ من الغبار والأتربة، تتراوح بين الصفراء والرماديَّة. في خضمّها يطبق الحرُّ الجافّ على الأنفاس، ويفقد الربيع رونقه والطبيعة وهجها. يصبح كلّ شيءٍ رمليّ اللون ويتحوَّل مزاج الكائنات إلى رماديّ. الوجوه عابسةٌ والضيق بائنٌ على الجميع. كما وتحمل الريَّاح متى هبَّت درجاتٍ متزايدةً من الحرّ التي تجفّف بتلات الأزهار، وحبيبات الرّمل المتطاير التي تنثرها على أسطح السيَّارات والشرفات وحواف النوافذ وزجاجها وفي الأعين. لا يَعُد بالإمكان لا التنفُّس ولا النظر إلى أن تمطر ويمسح ماء المطر الأجواء، ويَنظُفَ الهواء.

يحلُّ صباح، يبشِّر دفؤه ونقاء زرقة السماء بمقدم الصيف. يترك العاطل عن العمل البيت ويعود قبل الظهيرة حاملًا صندوق أدوات حفر يقتنيه معتمدًا الزيادة التي تلقَّاها فوق آخر أجرٍ له واحتفظ بها. يبدأ في مستهلِّ العصر بتجهيز الطاولة في غرفته، مرتِّبًا فوقها الأدوات التي يخرجها من الصندوق بشديد الحيطة.

في حالتها، بعد بضعة أيَّامٍ تقضيها في غرفة سكنها الجامعيّ، معظمها في الفراش، يأتي قرعٌ خفيفٌ على بابها حتمًا لا يمكن للكلمات افتعاله. إنَّه مساء. عقب شيءٍ من التردُّد وتواصل القرع، تفتح الباب. أمامها يظهر الصحفيُّ واقفًا، حاملًا بيده كيسًا بلاستيكيًّا أسود. يسرُّ بأنَّه قَلِقَ عليها إثر عدم سماعه منها على مدار الأيَّام السابقة. يضيف بأنَّه أحضر رغيفي فلافل لهما. تشكره وتدعوه إلى الدخول. يدخل وتلحق به ذبابة تبدأ بالحوم في الغرفة. يجلس إلى الطاولة وهي على

حافَّة السرير. بعد برهةٍ قصيرةٍ من الصمت تستغلُّها الذبابة لبثِّ طنينها في الفضاء، يخرج رغيفي الفلافل من الكيس. تقول إنَّها ليست جائعة. يضع رغيفها، ملفوفًا بورقةٍ على الطاولة، ليباشر الخبز فيه، ثمَّ الورقة بالتشبُّع بعصائر محتوياته. تسود لحظاتٌ أخرى من الصمت إلى أن تتمتم بأنَّه ليس من المستحسن تناول الفلافل في الليل. يُعلِّق بأنَّه اعتقد أنَّها تفعل هذا أحيانًا. تجيب بالنفي. لا يعلِّق. يفتح فحسب لفَّة الورق الثانية ويخرج منها رغيفًا آخر ينصرف إلى التهامه بطريقة تؤدِّي ببعض فتات الطعام المكوَّن من الفلافل والبندورة والخيار والخسّ والبطاطا والخضار المكبوسة الملطَّخة بالطحينة والشطَّة إلى السقوط على أرضيَّة الغرفة بين قدميه. يعرب فجأةً أثناء أكله، ربَّما في محاولته كسر الصمت الثقيل الذي عاد ليسيطر على الأجواء، بأنَّ الطعام هنا لذيذٌ جدًّا. تواصل صمتها. بعد عدَّة لقماتٍ أخرى، يفصح عن رغبته في تعلُّم اللغة العربيَّة. يفكِّر بمباشرة البحث عن دورةٍ لدراستها. يسألها إن كانت تعرف عن واحدةٍ مناسبة، أو إن أمكنها تدريسه. تبقى صامتة، إلَّا أنَّها تومئ برأسها. يتردَّد قبل أن يطرح أخيرًا السؤال المعقَّد. يسألها عن حالها. تردُّ بأنَّها بخير. ثمَّ من حيث لا نتوقَّع، بينما الذبابة تقفز من موضعٍ إلى آخر، تسقط دمعةٌ من عينها اليسرى، يعقبها سيلٌ من الدموع التي تجتاح وجهها. يترك الصحفيّ على الفور رغيف الفلافل، أو ما تبقَّى منه، على حافة الطاولة. لكن يسقط الرغيف، ويعود لتناوله عن الأرض في عجالة، فيتفتَّت الخبز ويقع محتواه على الأرض. تسرع هي لمساعدته ولمِّ ما وقع، ثمَّ تنظيف الأرض، وهو ما لا يستغرق وقتًا طويلًا. أخيرًا تفتح النافذة وتطرد الذبابة، ثمَّ تغلقها. يعود السكون ليستولي على الغرفة إلى أن يطرده الصحفيُّ بسؤالها عمَّا يجري. هذه المرَّة لا تنهمر أيُّ دموعٍ من

عينَيْها. تقول بسكينةٍ إنَّها فقدت عملها الثاني، وإنَّ هناك من يضايقها حدّ الاختناق في مبنى سكنها. بالتالي، لم تكن في أفضل حال، دون أن تخوض أكثر في التفاصيل. بعد لحظات، يقترح أن تنتقل للسكن معه، ممّا سيقلّل من مصاريفها أيضًا، حتّى تجد فرصة عملٍ جيدة، ربَّما بعد تخرُّجها. يكرّر بأنَّه يحبُّها.

بحلول الصيف، تستقرّ انعكاسات الضوء الخفيفة على تماثيل ومجسَّمات الخشب الصغيرة التي يباشر بصنعها في البيت بمفرده. مدهونةً بطبقةٍ من الزيت والشمع، تشعّ بعض المجسَّمات من مواضعها في الغرفة باكرًا كلَّ صباح، راسمةً خطوطًا متقطّعةً تلمع قريبًا من الطاولة. تعمد خطوط الضوء المتقطّعة هذه على إرسال إشعاعاتها الرماديَّةً المائلة إلى الزرقة على مدار اليوم، مصرّحةً عن جانبٍ من النتوءات والانبعاجات الخفيفة في التماثيل فاتَه حفُّها. حالما تبين له فوق سطحها، يرجع للاشتغال عليها. لا يدعها إلَّا وقد غاب عنها كلُّ ما يضيرها مهما كان صغره وبمعزلٍ عن مقدار الوقت والجهد اللذين تستوجبهما. هو، كعهده، يحاول قدر الإمكان العمل بإخلاصٍ كالذي تتمتَّع به والدته، وبصبرٍ تعلَّمه من رفاقه في السجن وربَّما بمثابرةٍ شهدها عند زملائه في المشغل. على هذا المنوال، لا يمضي وقتٌ طويلٌ حتّى يذيع صيته بين المعارف على أنَّه حِرَفيٌّ ماهر، كما يفِدُ إليه عددٌ من الراغبين باقتناء ما يصنع من تُحَف. بعضهم يأتي مدفوعًا برغبة وضعها في بيوتهم تقديرًا لما كان يومًا من صلب شجرة زيتونٍ حقيقيَّة؛ شجرةٍ تعزُّ على قلب الجميع. آخرون يفعلون ذلك كونهم يتيمَّنون خيرًا بما لا استخدام فعليًّا له في حياتهم، أو دعمًا له أو بالأحرى لوالدته. تتَّسع دائرة المقتنين والمقتنِيات لمنتَجاته هذه شيئًا فشيئًا، ويشرع بتنفيذ طلبيَّاتٍ هنا وهناك،

إلَّا أنَّها تبقى محدودة. غالبيَّة هؤلاء المقتنين هم من مستوري الحال لا ميسوريه، عدا عن أنَّ العمل على إنتاج تحفٍ جديدةٍ بما يتوفَّر لدَيْه من أدوات حفر يستغرق الكثير من الوقت. عمله بشكلٍ مستقلّ، بالتالي، يعود عليه بدخل يبقى بسيطًا لا يضاهي الدخل الشهريَّ الذي كان يتقاضاه سابقًا من المشغل. مع هذا هو أفضل من لا شيء، ويمكن إضافته إلى دخل العائلة ممَّا تجني والدته. وإذ يبين بمرور الأشهر بأنَّ صنعته كحِرَفيٍّ تسير على ما يرام، خلا مضارٌ استنشاق رائحة الشمع والصمغ التي على غرار التصاقها بخشب التماثيل، تلاحقه طيلة النهار، يحلُّ اليوم الذي ينضب فيه سوق معارفه. يضطرُّ في أعقابها إلى حمل ما يصنع من مجسَّمات، والتجوُّل بها لعرضها بأسعارٍ أقلّ على محالّ بيع التحف والمنتجات السياحيَّة. جهوده لا تفلح دائمًا، إنَّما حسب موسم السياحة والوضع، عدا عن أنَّ الأسواق تمتلئ بهذا النوع من التماثيل المصنوعة من خشب الزيتون. يؤدِّي به الأمر لاحقًا إلى أن يبسِّط من مرَّةٍ إلى أخرى في ساحات الكنائس الشهيرة في المنطقة، محاولًا بيع ما لم ينجح ببيعه لتلك المحالّ، بالأساس إلى السيَّاح من الحجَّاج المسيحيِّين. إضافةً إلى تبدُّل السيَّاح باستمرار، إنَّ عدم توانيه عن فعل كلِّ ما في وسعه يحسِّن فرصه في بيعها.

من بين التماثيل التي يبيع، تتوفَّر، إضافةً إلى الأحصنة، على قوافل جمالٍ بأحجامٍ مختلفة، وخِراف، وجديان، وأفاعٍ في هيئة عصيّ، وقبَّة الصخرة، وشخصيَّاتٍ دينيَّةٍ مختارة، بعضها يركب دابَّةً أو يتَّكئ على جذع شجرة، بينما أخرى واقفةٌ بمفردها، يعرضها جميعًا فوق بسطته بعد أن يرتِّبها في مشاهد تتبدَّل يوميًّا. قد لا يلقي السيَّاح أو العابرون بالًا إلى هذه المشاهد. ولو فعلوا، لشهدوا ما ينبسط أمامهم من سرديَّات تعيد

أشعَّة الشمس صياغتها في أشكالٍ مُتجدِّدةٍ على الدوام مع تبدُّل ظلال التماثيل. في الصبح قد يقود المسيحُ الخراف التي تتبعه بانصياعٍ تامٍّ مُقَبِّلةً آثار قدميه فوق البساط، حتَّى تفرَّ منه فزعة وهو يطاردها بحلول نهاية النهار. وقد تلتفُّ الأفعى في يد موسى متكوِّرةً على نفسها نائمةً بتأثير سياط شمس الظهيرة، ومع الغروب تنطلق هاربة، كعادة الأفاعي، بحثًا عن مكانٍ تحتمي به من برد المساء. قد تمتطي مريم حمارًا ضامَّةً ابنها الرضيع في حضنها، يقودهما يوسف باكرًا، وبحلول العصر، في خضمِّ رحلتهم الطويلة، يتعارك الأربعة ملتحمين في جوف كتلةٍ من الظلال. كلُّ ذلك إلى أن تشاء الأقدار بفصل الراعي عن قطيعه، أو اصطياد الأفعى أو تفكيك العائلة المقدَّسة، حين يتناول سائحٌ أو سائحةٌ أحد هذه التماثيل، ثمَّ يدفعان ثمنها، في كثيرٍ من الأحيان بعد مساومة السعر كما توصي بعض الدلائل السياحيَّة أن يفعلا بمعزلٍ عن بخسِ المبلغ. من الجليِّ أنَّ ما يقوم به يتطلَّب الكثير من العناء، بدءًا من الجلوس تحت سياط أشعَّة الشمس التي لا ترحم لا صيفًا ولا شتاءً بحيث يعود لارتداء قبَّعة، وحتَّى تلكُّؤ السيَّاح في اتِّخاذ قرارهم باقتناء أحد التماثيل أم لا، بعد تقليبهم إيَّاها بين أيديهم عشرات المرَّات. مع هذا، تبقى هذه الطريقة المثلى لبيع ما ينتج، إذ تدرُّ عليه ربحًا أفضل ممَّا سبق. لكنّه بالتأكيد ليس أفضل ممَّا يدرُّ محلّ الفلافل. كما أنَّ ازدياد الوضع سوءًا يومًا بعد يوم، يحول دون توافد أفواجٍ كبيرةٍ من السيَّاح.

هي، عقب فقدانها عملها في التنظيف، يُبقي تردِّي الأحوال المتواصل في البلد على عملها كمترجمة. ترافق الصحفيَّ متى احتاجها في تغطيته مختلف الأحداث، مستمرًّا في كتابة التقارير الإخباريَّة والمقالات التي على الرغم من انخفاضها، لا تتوقَّف.

بصحبة هذا التردّي، تواصل الأيّام مسيرها دانية من الخريف. إلّا أنَّ علامات الصيف لا تعتق الطبيعة. يمكث الحرَّ شديدًا، وقسوة الجفاف تستولي على التربة، فيما يستمرُّ انحباس المطر التامّ. يسبق هذا منع سلطات الاحتلال المزارعين من حفر آبار مياهٍ جديدةٍ أو ترميم آبارهم القائمة. الكثير من الأشجار لا تتحمّل هذا التصحُّر المتعاظم الذي يطوّقها، بما فيها شجر التين الذي تذبل أوراقه وتتلوّى. على عكسه، شجر الزيتون يقاوم. أوراقه الخضراء النائلة منها زرقةٌ طفيفة، تواصل كسو التلال، محتضنةً الكثير من حبّ الزيتون هذا العام. على الأقلّ يواسي الشجر الحامل المزارعين إبّان انتظارهم جدَّه بعد حلول المطر الأوّل الذي ما برح يمتنع عن الهطول.

في هذه الأثناء، بعيدًا عن ميلها المتنامي إلى عدم الحديث، تزداد مهارات المترجمة اللغويَّة بصورةٍ ملحوظة جرَّاء مصاحبتها المتتالية للصحفيّ. يشهد على هذا تساؤل توجّهه إليه حول تبديله مبنى الجمل في تقاريره عن الفلسطينيّين مقارنةً بالإسرائيليين بطريقة تبدو كذلك مغايرةً قليلًا لِما تترجم وما يقوله مَن قابلوهما. أشدُّ هذه الاختلافات وضوحًا، تقول، هو أنَّ كلَّ ما يتعلّق بمصائر الفلسطينيّين وسبَّبَته سلطاتُ الاحتلال، يظهر في الإنجليزيَّة في جملٍ مبنيَّةٍ للمجهول. الكلمة، فعلًا كانت أم اسمًا، التي تفيد بما تعرَّضوا إليه، تظهر باستمرارٍ في بداية الجملة، والفاعل في آخرها، يوصل بينهما تعبيرُ «من قِبَل». كما أنَّ في هذه الجمل في العادة لا «يُقتَل» الفلسطينيُّون أو «يذبحون» مثلما يحدث للإسرائيليّين، بل يَظهَرون باعتبارهم «موتى». هذه الاستخدامات اللغويَّة، تشرح، تتناقض مع ما تعلَّمت في المدرسة، بأنَّ اللغة الإنجليزيَّة لا تحبُّ البتَّة المبنيَّ للمجهول. يردُّ الصحفيُّ بأنَّ هذه صياغاتٍ ترتبط

باعتباراتٍ تحريريَّة، تنتهجها الصحف التي ينشر مقالاته فيها ويُتوقَّع منه اتِّباعها.

عدا عن هكذا ملاحظات، دورُ ما تكتسب من مهاراتٍ لغويَّةٍ وخبرةٍ في الترجمة في المستقبل لا يزال مبهمًا. بل لو سألها أحدٌ الآن عن مخطَّطاتها المستقبليَّة، ربَّما لن تفهم ضرورة السؤال، وهو عدم فهمٍ يمكن إحالته إلى الظرف العامّ ويشاركها به غالبيَّة من حولها. لا أحد قادرٌ على التفكير في الغد، ولا الثقة بما قد تجلبه الأيَّام الآتية. ما استدام حتَّى أمس قد يختفي اليوم على حين غرة، ليستبدله ما لم يتوقّعه أحد أو كان مستهجنًا حتّى فترةٍ قريبة، ولمامًا ما كان يحدث. بكلماتٍ أخرى، أكثر من أيِّ زمنٍ مضى، يحجب المستقبل فرص استشرافه. حاليًّا على الأقلّ، يستمرُّ عملها مع الصحفيّ، وهو كثيرًا ما يقودها إلى قرًى ومدنٍ مختلفة، وإلى لقاء شتَّى أطياف الناس، حيث عليها ترجمة ما يقولونه دون حاجتها إلى قول شيءٍ بنفسها. ثمَّ مؤخَّرًا لا يعود العمل، وما يتوقَّف عليه من التحقيق والكتابة عن تجارب الآخرين الأليمة، يبدو صعبًا بالنسبة إلى الصحفيّ أيضًا. لا يتحدَّث أكثر عمَّا يشهد من مآسٍ كما اعتاد أن يفعل في السابق. فقط مَن يُجريان معهم مِن مقابلاتٍ لا يتخلَّون، في غِمار كلِّ ذلك، عن الأمل في أنَّ هذه التقارير ستحدث تغييرًا ما له أن يبدِّل مصائرهم. إنَّه أملٌ يعوِّلون عليه الكثير في ظلِّ ما يُظهرون من استعدادٍ كبيرٍ للإجابة على أسئلة الصحفيّ، على الرغم من حجم مصابهم. مع أنَّه ليس مستبعدًا أنَّ ما يواجهونه من ظلمٍ متصاعدٍ واشتدادِ أدوات القهر، قد يصل درجة تستحيل معها ترجمتها، الأمر الذي يحدث مرَّة، توافق فقدان المزارعين أملهم على الأقلّ في أنَّها ستمطر.

يبدأ موسم قطف الزيتون قبل هطول المطر الأوَّل، وهي خطوةٌ نادرًا ما يأتي عليها المزارعون. بعد تأخيرٍ طويلٍ وأزوف الخريف من نهايته يتَّجهون إلى كرومهم، حيث أشجار الزيتون مغبرَّة وكذلك حبُّه الذي في العادة ينبغي أن يكون نظيفًا قبل عصره.

في ظهيرة يوم من أيَّام ذلك الموسم ينطلق الصحفيّ والمترجمة لتغطية حادثة يأتي فيها مستوطنٌ على قتل مزارعٍ في كرم زيتونه المتاخم لإحدى المستوطنات. يقابلان أوَّلًا أعضاء العائلة المنكوبة. يصف شقيق المزارع كيف أنَّهم في ساعات الصباح من اليوم السابق، خلال جدِّهم الزيتون، ظهر المستوطن وسط كرمهم وأمرهم بالمغادرة فورًا، مهدِّدًا إيَّاهم بسلاحه الشخصيّ. لم ينصاعوا لأوامره وواصلوا المكوث في الكرم وجدِّ الشجر. ثمَّ سرعان ما تحوَّل الموقف إلى مشادَّةٍ كلاميَّةٍ بين الطرفين أنهاها المستوطن بإطلاق النار على المزارع.

يتَّجه الصحفيّ والمترجمة فيما بعد إلى المستوطنة للقاء رئيسها وتسجيل شهادته على ما حدث، نيابةً عن المستوطن الذي أوقفته السلطات. يستقبلهم رئيس المستوطنة على البوابة الرئيسيَّة التي تنتصب على جانبَيْها أشجار الصنوبر اليافعة. قدرته على الحديث بطلاقةٍ بالإنجليزيَّة تبقي على المترجمة صامتة. يسيرون معًا داخل المستوطنة باتِّجاه الحدود المتاخمة لكرم الزيتون، هي خطوتان أو ثلاثٌ في الخلف، حيث يجبرها بياض حجارة المباني الحديثة على إغماض عينيها قليلًا. في الطريق، يوضِّح رئيس المستوطنة بأنَّ الحادثة جاءت دفاعًا عن النفس. لقد حاول المزارعون مهاجمة المستوطن. حين أمرهم بعدم الاقتراب منه أكثر وإلَّا سيطلق النار، لم يستمعوا إليه. بدلها قاموا بمهاجمته بالحجارة، بينما قسمٌ آخر شرع يركض نحوه حاملًا العصيّ،

ممَّا دفعه إلى إطلاق النار حمايةً لحياته. المستوطن الآن موقوفٌ في مخفرٍ قريب، لكنَّ رئيس مجالس المستوطنات يعمل على إطلاق سراحه وعودته إلى عائلته في أسرع وقتٍ ممكن. توقيفه يأتي مخالفًا للقانون، فمن حقّه الدفاع عن نفسه أمام خطر الإرهابيّين الفلسطينيّين.

بدنوّهم من حدود المستوطنة المقامة على رأس تلة، تبين أشجار الصنوبر من جديد في هيئة ستارٍ مخلميٍّ داكن الخضرة يواري كلّ ما هو متواجد خلفه. تحت الأشجار تتراكم أوراقها الإبريّة وقد تيبَّست، كاسية الأرض بغشاءٍ بنيّ. أسفل هذا الغشاء قد تختبئ الحشرات والخنافس والنمل، دون أيٍّ من النباتات البريّة المعهودة من الخريف في هذه المناطق شبه العالية. فالأوراق الإبريّة تمنع الضوء من بلوغ سطح الأرض، خانقة البراعم حال نموّها. ولو نمت، يمكن الحكم بأنَّ أجملها هو زهر اللحلاح والزعفران الأبيض، إلّا أنَّ أفيدها نبات الزعتر وشاي الصخر.

هذا الصنف من الصنوبر الجبلي منتشرٌ بكثرةٍ في المستعمرات على غرار التجمُّعات الإسرائيليَّة الأخرى. إنَّه شجر، كما الصنوبر المتوسطي أو ما يسمَّى بالصنوبر الحلبي، كثَّف المستعمرون، القادمون من أوروبا قبلها ببضعة عقود، من زراعته في أحراش احتلَّت مساحاتٍ كبيرةٍ من العديد من التلال. في بعض هذه الأحراش تكاتف الصنوبر مخفيًا بينه الثكنات العسكريَّة لفئة من هؤلاء المستعمرين، والتجمُّعات السكنيَّة لفئة أخرى.

خلف أشجار الصنوبر يعلو شبك سياج المستوطنة، باديًا عبره عكوف نسيم العصر الناعمة، غير شديدة الحرارة في مثل هذا الوقت، على تحريك أعالي أشجار الزيتون. في قسم الكرم المتاخم للمستوطنة،

تنبسط تحت تلك الأشجار مفارش كبيرة تمتدّ خارج نطاق الأغصان، ويتجمَّع فوقها حبُّ الزيتون وبعض ورقه. كما هناك عصيّ طويلة ملقاة على المفارش وبجانبها، وبضعة سلالم وبرميل كبير، إضافةً إلى أكياس ملأى، على الأرجح بالزيتون، محكمة الإغلاق وأخرى ممتلئة حتى النصف تقريبًا.

من المعروف أنَّ أفضل سبل جذّ الزيتون التي يُنصَح بها هي باليد، ما يُسمَّى بالحلب. يضع الجاني أو الجانية يدهما أعلى الغصن الحامل بالثمر، يحكما إغلاقها عليه، ثمَّ يسحبانها حتَّى نهايته، ساحبان معها الحب، كي يسقط بدوره على المفرش تحت الشجرة حيث يقفان. وكما هو جارٍ، لا مفرّ من أن يسحبا مع الحبِّ بعض الورق، الذي يتمّ لاحقًا إبعاده، أو إزالة غالبيَّته، قبل إرسال الزيتون إلى المعصرة. في أحيانٍ متباعدة، يعتمد المزارعون على العصي الطويلة، التي يدعونها بالشواريط ومفردها شاروط، لجني ما لا تتمكَّن الأيدى من الوصول إليه ولو جرى الوقوف على البراميل أو السلالم، ولا إن تسلَّق أحدهم الشجرة. هي طريقة غير محبَّذة بالمرة لما يترتَّب عليها من إيلام وأذى للشجرة، لذا نادرًا ما يلجأ إليها المزارعون، وتحال فقط للكبار من بينهم ممَّن لدَيْهم خبرة من خلال الممارسة. يطرق حامل العصا الغصنَ المرتفع في مقطعٍ قويٍّ منه، لتفادي كسره، بطرقات خفيفة سريعة يسقط إثرها الحب العالق على المفرش. في النهاية، حين تنفد جميع السبل للوصول إلى الغصن الحامل المرتفع، قد يتمّ قصّه بالمنشار من الأسفل وبما يتناسب مع قوام الشجرة وإمكانية استمرارها النموّ بعافية.

يشي الحال الذي يلاقيهم به الكرْم بأنَّ العائلة المنكوبة تركته على وجه السرعة ولم تعد إليه بعد. هذا هو مسرح الجريمة.

خلال اللقاء، ينضمّ مستوطنٌ آخر للمجموعة. بين حينٍ وآخر يتحدَّث إليه رئيس المستوطنة بالعبريَّة، أوَّلًا شارحًا الموقف له، بأنَّ هذا وفدٌ صحفيٌّ أميركيّ، معلِّقًا على بعض ما يُخبر به الصحفيّ، كما عن مصير المستوطن الذي لا زال موقوفًا. ثمَّ في لحظةٍ ما، يسرُّ له بصوتٍ خفيض، بأنّ المستوطن القاتل، خلال المشادَّة الكلاميَّة مع المزارعين، شعر بتوتُّرٍ شديد، ممَّا حدا به إلى إطلاق النار. يصل كلُّ هذا الحديث بالعبريَّة المترجمةَ التي تلاحق بعينين متنبِّهتين الكلمات المنبعثة بصوتٍ خفيض، مواصلةً صمتها في الخلف. لاحقًا حين يغادران المستوطنة، لا تترجم للصحفيّ ما سمعت. ما السبب؟

سوى أنَّ العلاقة بينها والصحفيّ تمضي قُدُمًا. هو يواصل إقامته في البلد، مضطرًّا للسفر كلَّ ثلاثة أشهرٍ مع اقتراب موعد انتهاء إقامته وفقًا لتأشيرته، ثمَّ بعد بضعة أيَّامٍ يرجع، حائزًا في المطار على تأشيرةٍ جديدة، تجيز له المكوث لمدَّة ثلاثة أشهرٍ جديدة. هي تواصل مرافقته متى احتاجها، ومتى لا، تغوص في صمتها أو مسائلها. إنَّها توشك على الانتهاء وأخيرًا من دراستها الجامعيَّة في تخصُّص علم الاجتماع. لتفرَغ منها كلِّيًّا، يتوجَّب عليها إتمام ورقتَيْن بحثيَّتَيْن طويلتَيْن، تواصل تمديد الموعد النهائيّ لتسليمهما، شهرًا بعد شهر.

هنا، للتوضيح، طلبها هذا بالتمديد ليس استثنائيًّا. عددٌ غير قليلٍ من الطلبة الذين يتخصَّصون في مجال علم الاجتماع، ليسوا في عجلةٍ من أمرهم لإنهاء دراستهم. قد يعود هذا التروِّي إلى غياب حسّ المنافسة المعهود من مجالات دراسيَّة أخرى كإدارة الأعمال والمحاماة والطّبّ أو الصيدلة. طلاب علم الاجتماع يميلون إلى تخصيص وقتٍ إضافيٍّ للتفكير والنقاش فيما يتعلَّق بحال العالم، خاصَّة في الأيَّام المشمسة

حين يستلقون على العشب تحت ظلال الأشجار في حديقة الجامعة. في كثيرٍ من الأحيان، يؤدّي انغماسهم في شتّى النقاشات إلى تأخُّرهم عن المحاضرات. مع تراكم هذا التأخير، يتأخرون عن إتمام دراستهم خلال السنوات الثلاث أو الأربع المخصَّصة لها.

في ظلِّ صمتها وانعزالها، المعضلة مغايرةٌ فيما يخصُّ تأخُّرها إتمام بحثيها النهائيَّين. حين يتوفَّر لديها يومٌ لا تعمل فيه، حالما تباشر بقراءة المراجع لهاتين الورقتين، تغفو. ثمَّ حين تجلس أمام شاشة حاسوب الصحفيّ الذي تستخدمه الآن للعمل عليهما، يكون إيقاعها في الطباعة شديد البطء، لعدم معرفتها مواقع الأحرف بالضبط فوق لوحة المفاتيح. هذه المشقَّةُ تسوقها بين حينٍ وآخر إلى التحديق في الفراغ. على هذا الوتيرة، تصبح أيَّامها المخصَّصة لبحثيها منقسمةً بقدرٍ كبيرٍ بين النوم أو التحديق في الفراغ. كذلك ليس واضحًا البتَّة إلى أيِّ درجة، تبذل جهدًا كي تتجنَّب الأمرين. الصحفيُّ الذي يلاحظ هذا كلَّما تواجد في الشقَّة، يحاول تشجيعها على العودة إلى العمل على وظيفتَيْها. لكنّها حتَّى عندما يتحدَّث إليها تسهم في الفراغ. مشاركًا إيَّاها بعض ما يفكّر أو يسرد عليها ما جرى معه، كلماته تنصهر مع زقزقة العصافير التي تستوطن شجرة الصنوبر الجبليّ المنتصبة أمام نافذة غرفة الجلوس. سواءٌ من يقابلان في سياق العمل، معه أم مع غيره، حالما تمتدُّ عبارةٌ لأطول من ثلاث كلمات يشوب التيه تعابير وجهها، وتتثاءب. إنَّما يمكن، إن واصلنا التدقيق فيه، تقفِّي ظاهرة تفتُّت الكلمات عليه. يبيت هذا جليًّا في حركة أجفانها وانقباض حاجبها الأيسر، وأسفله ملتقى خدّها مع أنفها، كأنَّما تحتمي من هذه الكلمات ما قد يستدرجها إلى السرحان. يتوقَّف الصحفيّ عن الحديث كلَّما يلحظ الأمر. يسألها إن

هي ما زالت تتابع ما يقول. حين لا تعرف الإجابة على سؤاله، لم يكن الصحفيُّ ليستاء أو يتضايق من عدم استماعها إليه، إنَّما بصبرٍ وأناةٍ يعيد ما قاله ويعلم بأنَّها لم تسمعه. عندها تعود ملامح التركيز إلى وجهها، واليقظة إلى عينَيْها لبعض الوقت فقط.

يسألها بين حينٍ وآخر عن حالها، ليأتي ردُّها متشابهًا في كلِّ مرَّة، بأنَّها بخير. يظهر بأنَّ قلقه عليها في ازدياد.

يحلُّ فصل خريف آخر، عندما لا يعود بإمكانها تمديد موعد تسليم وظيفتيها النهائيَّتين حسب ما تنصُّ عليه قوانين الدائرة في الجامعة، كما يتمُّ إعلامها. مع هذا تتبع فترةٌ تستمرُّ الأيَّام فيها بالمضيِّ دون أيِّ تقدُّمٍ فعليٍّ في كتابة بحثيها، إلى أن يجيء يوم سبتٍ خريفيّ يطلب الصحفيُّ منها مرافقته في مهمَّةٍ جديدة.

من جديد، يتواصل احتجاب المطر في الخريف. إنَّه ينحبس هذا العام بدرجةٍ أكبر من العام المنصرم. الأشجار على اختلافها غير حاملة، كما لا يمكن لأصحاب الأراضي وصول كامل مساحاتها. إن لم تُصادر أو يهاجمهم المستوطنون فيها، يستمرّ قلع بعض ما يزرعون من شجر وهو ما زال يافعًا، بينما الأشجار المعمِّرة، أشجار الزيتون على وجه التَّحديد، تُقلَع ويعاد زرعها في الأحياء الإسرائيليَّة، إمَّا في حدائقها العامَّة، وإمَّا وسط دوَّارٍ يجمع شارعَيْن أو أكثر.

يأتي حلول الخريف في حياة الحِرَفيِّ متوِّجًا لعامٍ شاقّ. يبيِّن الإنهاك عليه جليًّا، إلَّا أنَّه لا يعني بأنَّه يتمكَّن منه، أو أنَّه يحول دون استمراره في العمل. تنقسم نهارات الحِرَفيِّ بين صنع التماثيل والمجسَّمات، معتمدًا على ما يجد من خشب زيتونٍ بأسعارٍ زهيدة، وبين

التجوال لبيعها. في غضونها، تلسع سياط الشمس بشرته، مغيِّرةً من لونها وحتَّى من شكلها، على الرغم من مواظبته على ارتداء قبَّعة. على العكس من شحوبها وبياضها خلال فترة اعتقاله ثمَّ عمله في المشغل، الآن بشرته شديدة السمار، ويبدأ ينال منها قدرٌ من التجعيد، ممّا قد يقود الآخرين إلى الاعتقاد بأنَّه أكبر بعقدٍ من سنِّه الفعليَّة، مثله مثل العديد غيره. لكن ليس من المؤكَّد أنَّ هذا ما يدفع والدته بأن تفاتحه، وهما جالسان معًا ذات مساءٍ خريفيٍّ عليل، بشأن خططه المستقبليَّة. ثانية. يتركها ويدخل غرفته. لكنَّه في الأيَّام المقبلة يطلق ذقنه. على الأقلِّ وقايةٌ إضافيَّةٌ لبشرته من الشمس.

عودةً إلى ذاك السبت. يصل الصحفيّ برفقة المترجمة إلى مقطعٍ صحراويٍّ شاسعٍ شبه مستو، تتكوَّن تربته من غبارٍ أبيض خاصٍّ بتلك المنطقة دون غيرها، يتجمَّع مئات الأشخاص فوقه. بعضهم يجلس على مدرَّجٍ خشبيّ بُني بعجالةٍ ذلك الصباح، وآخرون ينتشرون في كلِّ حدب، متجمِّعين حول فرسٍ أو حصان. ينصرف الصحفيّ، هي معه، إلى الطواف بين الجمع، مستقصيَيْن ردود أفعال عددٍ من الحاضرين في هذه المناسبة. هُم على موعدٍ مع انطلاق أوَّل سباق خيلٍ (فعليٍّ كما يبدو هذه المرَّة وليس استعارةً) يجري تنظيمه من قبل اتِّحاد الفروسيَّة في البلد، تحت إشراف سلطة الحكم الذاتيّ التي أحيلت إليها إدارة المنطقة ضمن صفقةٍ سياسيَّة محدودة. يسألهم الصحفيُّ عن آرائهم في ذكرى مرور أربعة أعوامٍ على الصفقة التي تمخَّضت عن محادثات سلام أثارت آمال البعض باعتبارها خطوةً أولى، واستياء آخرين كونها خطوةً محدودة. المقابلات تجري مع مشاركين في السباق، ثمَّ مع آخرين حضروا برفقة فرسٍ أو حصانٍ ليتفرَّجوا عليه لا غير، إلى جانب متفرِّجين

ومتفرّجاتٍ كثر. معظمهم يسردون مصاعبهم اليوميَّة التي لمَّا تنتهي في ظلِّ استمرار الاحتلال. هي تترجم. أحدهم يبدو رجلًا مُسنًّا، يشرح بأنَّ لدَيْه بيَّارات برتقال لا تمكّنه الصفقة من نقل ثمرها إلى مدنٍ أخرى نظير ما فعل في الماضي، وهكذا أضحى يترك البرتقال على أمّه. يتصعَّب الصحفيُّ فهم العبارة الأخيرة بعد أن تترجمها حرفيًّا. يستغرق هذا سلسلة من الشروحات بينها وبين الصحفيّ التي يتابعها المزارع المسنُّ ملتزمًا الصمت، يدخّن. الصحفيُّ ما زال لا يفهم ما يقول المزارع على الرغم من شروحاتها، إلى أن تعيد صياغة ترجمة الجواب بأنَّه لا يجني البرتقال. عندما تستفسر عن اسم المزارع وعمره ليدوِّنهما الصحفيّ، يتَّضح بأنَّه ليس مُسِنًّا. إنَّه في عمر ليس أكبر بكثيرٍ من عمرها.

بالفعل، مرارًا ما يُجْبَر المزارعون على ترك الثمر على الشجر، إمَّا بسبب منعهم من بلوغ أراضيهم، وإمَّا بسبب إعاقة عمليَّة توزيع ما يجنون على أماكن أخرى. تبدو عندها كرومهم متروكةً مهملة، العشب ينمو عاليًا بين جذوع أشجارها، أغصانها كثيفةٌ لا توفّر متَّسعًا للأوراق كي تتنفَّس. ويشرع الثمر بالتدريج بالتساقط على الأرض. هناك يباشر بالذبول قبل أن يتعفَّن، إذ يأخذ لونه بالاخضرار في حالة البرتقال، مجتذبًا الحشرات التي تسوق إلى إصابة الأشجار بآفاتٍ عدَّة، ثمَّ تموت، بحيث يبين مظهر الأرض حزينًا.

بعدما ينتهي الصحفيُّ من جمع ما يكفيه من موادّ، تتركه متربِّعًا في ركنٍ أسفل المدرَّج محاطًا بأوراقه وأغراضه. تروح وتغدو بين المحتشدين، ترقب وجوههم المتعبة التي لفحتها الشمس بسمارٍ حادّ. المنطقة حارَّةٌ جدًّا، تقع تحت مستوى سطح البحر، تقريبًا بلا هواء. في أنحائها تتناثر مئات التلال الصغيرة، بينها أودية يسري فيها الجفاف

معظم العام. كما بالكاد تظهر فوق مساحاتها الممتدَّة شجيرةٌ أو عشبة استطاعت مقاومة هذا الجفاف ومن ثمَّ النمو بين أحضانها. لولا الأودية والحجارة الصغيرة التي تثقب اصفرارَها الباهت، لبدت هذه المساحات ممسوحةً بالكامل على شاكلة السماء ومظهرها. طبقةٌ خفيفةٌ من الغبار تحجب صفوها، جاعلةً لونها أقرب إلى الرماديّ منه إلى الأزرق، وقرص الشمس ونورها خامدًا. إن الطقس هنا أقرب ما يكون إلى الخماسينيّ يوميًّا.

أثناء دورانها بلا غاية، تَلحظ مجموعةً من الرجال يقفون في حلقة، يتداولون أمرًا، يبدو بأنَّه بالغ الأهمِّيَّة وربَّما الخطورة. تدنو منهم، علمًا بأنَّ متطلَّبات عملها تقتضي البحث دائمًا عن كلِّ ما هو غير معتاد. قد يكون، فيما يتداولون، سبقٌ إعلاميٌّ أو خبرٌ مهمّ للصحفيّ. يصمتون لحظةَ تبيت قريبةً منهم. تحيِّيهم. يردُّون التحيَّة. في يد أحدهم قصاصةٌ ورقيَّةٌ وفي يده الأخرى قلم رصاص. يتعلَّق بصرها بالورقة التي تظهر عليها أسماءٌ وأرقامٌ في قوائم طويلةٍ مخطَّطةٍ بقلم الرصاص. تسألهم عمَّا يفعلون. بعد صمت، يجيب الرجل الذي يمسك بالورقة والقلم بأنَّهم يضعون المال على الحصان الفائز. يا لَهول ما يجري تحت سطح البحر! تسألهم، وقد انفرجت أساريرها إن كان بإمكانها المشاركة هي أيضًا في الرهان. يردُّون أهلًا وسهلًا بها.

تهرع عائدةً إلى الصحفيّ. تطلب منه إقراضها قدرًا من المال على الحساب، وهو ما يفعله دون سؤالها عن السبب. يسألها فحسب عن حالها. تردُّ بأنَّها بخير. يعود لخطِّ الملاحظات في دفتره بعدما تغادر عائدةً باتِّجاه الحشود المتجمِّعة. شاقَّةً طريقها بين الرجال وبعض النساء والأطفال، تباشر باللفِّ على الخيول المشاركة. بعد برهةٍ ليست

بالطويلة، تستوقفها انحناءة عنق فرسٍ فيها قدرٌ من النبل، ذلك في مكانٍ أخذ على عاتقه جلب كلّ أنواع البؤس والذلّ إلى حياة من يعيش فيه. الإنهاك البادي على وجوه الناس بتعابيرهم الذابلة، يشي بأنَّ هذا البؤس يكاد يكون أزليًّا لا يُقهر. الفرسُ رماديَّةٌ مرقَّطةٌ ببقعٍ حول الوجه والبطن، بعضها أشدُّ رماديَّةً وأخرى أقلّ، تتلفَّع بالعدد 11 عند منطقة السرج، ثمَّ يرتجف مقطعٌ من مؤخِّرة ظهرها للحظةٍ خاطفة. تطوف حول الفرس بتأنٍّ حتَّى تتوقَّف بعد عدَّة خطوات وتباشر التحديق في عينَيْها. بغتة تغمزها الفرس بعينها اليسرى. في الحال تجري نحو مجموعة الرجال المشاركين بالرهان وتعلن عن رغبتها بوضع ما تملك من نقودٍ معها على الفرس 11، عارضةً المبلغ على مدير الرهان. يُضافُ اسمها بقلم الرصاص إلى القائمة مع بقيَّة الأسماء والأرقام.

بعد الكثير من التأخير والتلكُّؤ ومضيعة الوقت، ينطلق السباق. تلازم عيناها الفرسَ 11 التي يُنتظر منها أن تفوز، إلَّا أنَّها تختفي بين رؤوس خيولٍ أخرى تسبقها، تلاحقها جميعًا كتلٌ هائلةٌ من الغبار في هالةٍ مهيبة. تراوح الفرس 11 الموقع السابع في البداية، وبعدها تبين في الموقع الخامس، فالرابع، ثمَّ الخامس فالرابع، دون أن تتقدَّم أو تتأخَّر أكثر. إنَّما وحده الندم يمكنه أن يتقدَّم نحو المراهِنة عقب قرارها في إضاعة نقود لا تملك الكثير منها على مشروعٍ خاسرٍ كهذا، تلاحقه بنظراتٍ وتعابير وجهٍ منكسرة. ثمَّ وقبل ظهور خطِّ النهاية بقرابة ثلاثمئة متر، تصير الفرس 11 في المكان الثالث، ثمَّ الثاني. وتفوز. بكلٍّ بساطة. مع أنَّها خصلةٌ معروفةٌ للكثير، بأنَّ الفرس الأصيلة تشدُّ حيلها في النهاية. بأيِّ حال، تربح المراهِنة عشرة أضعاف المبلغ الأوَّليّ الذي وضعَته. بعد تسلُّمها ربحها، تعود نحو الفرس 11 التي يسبقها إليها مجموعةٌ كبيرةٌ

من الناس تفترش وجوههم سعادةٌ نزيرةٌ قلَّما تتوفَّر لهم في حياتهم فرصة اختبارها. تشقُّ طريقها بينهم. حالما تبلغ الفرس 11، تلتفت الأخيرة إليها بنظرةٍ وديعة.

أثناء مكوثها وحدها في الشقَّة في الأيَّام اللاحقة، بين حينٍ وآخر، تعاود نظرة الفرس هذه تلوح أمامها بغياب تشجيع الصحفيِّ وحثِّه لها على إتمام وظيفيتيها الجامعيَّتين. هو يضطرُّ للسفر لمدَّة أسبوعين بهدف تجديد تأشيرته مع اقتراب موعد انتهائها. وحيدةً، تحاول جادَّةً العمل على بحثها. يدوم تركيزها في القراءة، ثمَّ الطباعة، إلى أن تبدأ أجفانها بالتثاقل وتوشك عيناها على الإغماض. تفتحهما بسرعة. نظرة الفرس ماثلة أمامها. تترك مقعدها وتتَّجه إلى المطبخ، تشرب الماء أو تفتح الثلَّاجة، أو إلى الحمَّام لتغسل وجهها. أحيانًا أخرى، تقف عند النافذة، ترقب شجرة الصنوبر، اهتزازات أوراقها، أو حطَّ العصافير فوقها، ثمَّ تعود إلى الطاولة لمواصلة القراءة أو الطباعة. قد تسهم عيناها في الفراغ لاحقًا لبضع لحظات، قبل أن تسارع لإغلاقهما للحظةٍ قصيرة. تقوم لتشرب الماء، تغسل وجهها، أو ترقب اهتزازات أغصان شجرة الصنوبر، ثمَّ تعود إلى حيثما توقَّفت من قبل، تقرأ أو تطبع. ساعةً تلو الأخرى، يومًا بعد يوم، تتعقَّبها نظرة الفرس التي لا تتوانى عن الظهور في كلِّ ناحيةٍ من الغرفة، دافعةً إيَّاها نحو خطِّ النهاية الداني.

وتنجح. تنهي الطالبة الوظيفتين، ثمَّ تسلِّمهما في الموعد النهائي الذي يأتي قبل بدء السنة الجامعيَّة الجديدة بأيَّامٍ معدودة. لا تزال قاعات الدراسة في الجامعة فارغةً كليًّا، وعددٌ قليلٌ من الطلبة يشغل الممرَّات والحرم الداخليّ. عددهم ليس أكبر من عدد العمَّال الذين ينكبُّون على دهن جدران الأروقة وأطر أبواب الغرف والألواح الدراسيَّة

داخل القاعات، تحضيرًا لبداية الفصل. في الخارج، آخرون ينشغلون بدهن السياج الحديديّ المحيط بحديقة الجامعة، أو العناية بنباتاتها وأشجارها. تعلو أحاديث جميع هؤلاء العمَّال واضحةً بالعربيَّة، يتردَّد صداها في رحاب الجامعة الفارغة من الطلبة وفي جنبات حديقتها. تخرج من الباب الرئيسيّ الدوَّار للمبنى.

تختتم فعليًّا حقبة دراستها الجامعيَّة، مقصيةً إيَّاها من حياتها بالكامل، بلمِّ كلِّ ما تجمّع لديها من أوراقٍ وكتب، مستثنيةً بضعة منها، ووضعها في صندوقين، تدفعهما نحو باب المدخل وتتركهما في زاويةٍ قريبةٍ منه. تنظِّف المكتب بعدها، كما تقلِّم الأزهار والنباتات المزروعة في الأصص في الشقة، مزيلةً الأوراق المتيبِّسة عنها. من بين هذه النباتات الغار المبقِّع، ونبتة العنكبوت، وأمّ محمود، وجلد النمر، والسجادة، والخنشارة، ومخلب القط، اقتنى الصحفيّ غالبيَّتها من مشاتل كان يصادفها على الطريق أثناء عودتهما من تغطية حدثٍ ما. هي نباتاتٌ تتواجد بكثرةٍ في بيوت الفلسطينيِّين، وأحيانًا الإسرائيليِّين، طالما لمحاها أثناء زياراتهما هذه البيوت لإجراء مختلف المقابلات. مجتمعةً الآن في غرفة جلوسهما، كوَّنت هذه النباتات المتباينة الأشكال ما يُشبه الدغل الصغير في أحد أركان الشقة. هي لم تعتد العناية بها سوى سقيها مرَّتَيْن أو ثلاثًا في الفترات التي يغادر فيها الصحفيّ البلد. كوبٌ صغيرٌ لكلِّ نبتةٍ لا غير مرَّةٍ في الأسبوع، وفق تعليماته، تدفّقها فوقها على عجلة. قد تكون هذه المرَّة الأولى التي تمضي وقتًا أطول في العناية بها.

في اليوم الذي يحلُّ فيه موعد عودة الصحفيّ، تحضِّر وجبة غداء، تمسي رويدًا رويدًا وجبة عشاء. في البداية، تنشغل متنقِّلةً بين المطبخ حيث تجهِّز الطعام وبين الحمَّام وغرفة النوم لارتداء ما وضعت جانبًا

من ملابس. ثمَّ بانقضاء اليوم، ينتهي بها الأمر مستلقيةً على الأريكة في غرفة الجلوس، عرضةً لهجوم النعاس المتعاقب عليها.

من حينٍ إلى آخر، تنهض باتِّجاه النافذة وتنصرف إلى مراقبة شجرة الصنوبر وما يقف خلفها من مبان. بحلول المغرب، يشرع نسيمٌ باردٌ بالهبوب، فتحكم إغلاق زجاجها الذي تظهَر عبره انعكاسات أشعَّة الشمس الغاربة برتقاليَّةً على زجاج نوافذ الشقق العليا في المباني المقابِلة والألواح الشمسيَّة فوق أسطحها. تنحبس في الخارج الريح الخفيفة، حيث تنشغل بتحريك أغصان شجرة الصنوبر برفق، دافعةً أوراقها الإبريَّة الخضراء من جديدٍ لرسم مختلف الأطياف تحت ضوء الغسق، قبل محوها.

من قلب العتمة الخفيفة التي تلفّها فيما هي جالسةٌ على الأريكة، تأتي حركة المفتاح في قفل الباب، تسبق طقَّته الحادَّة، بعد تأخيرٍ يدوم لساعات. يدخل الصحفيُّ بوجهٍ متعبٍ وتعابير فاترة، ممَّا يحول دون انقضاضها نحوه لعناقه كما هو مُنتَظرٌ في هكذا حالات وبعد كلِّ هذه الإنجازات والتحضيرات التي أتت عليها. تتقدَّم نحوه ببطء وتسأله ما الأمر. يحيِّيها، ثمَّ يضع قرب الباب، ليس بعيدًا عن صندوقي موادِّها الجامعيَّة، حقائبه، معلِّقًا بأنَّه ربَّما لن يحتاج إلى إدخالها أو حتَّى فتحها. لقد منحوه في المطار تأشيرة مدَّتها سبعة أيَّامٍ للبقاء في البلد.

يتَّجه نحو طاولة المكتب ويجلس فوق المقعد الذي شغلته هي في الأيَّام والليالي السابقة في خضمِّ عملها على وظيفتيها. بعد قدرٍ من السكون، تسأله إن كان يعتقد بأنَّ السبب خلف هذا هو كتاباته وتقاريره الصحافيَّة. يرفع رأسه نحوها قائلًا إنَّ ذلك ممكن، وقد تكون هي السبب

أيضًا. لدى وصوله نقطة فحص الجوازات في المطار، أخذوه وأخضعوه لتحقيق دام ما يقارب الأربع ساعات، تركَّزت في غضونه الأسئلة حول مكوثه المتواصل في البلد ومعارفه، على وجه التَّحديد علاقته بفتاةٍ فلسطينيَّة، لديهم معلوماتٌ بأنَّها انتقلت للسكن معه. يرغبون بمعرفة كافَّة التفاصيل عنها وحول علاقتهما ومعارفهما. هو رفض الإجابة على غالبيَّة هذه الأسئلة. في النهاية، سبعة أيَّامٍ هي التي منحوها له ليجمع أغراضه ويترك البلد، كما أنَّه ممنوعٌ من العودة للسنين الخمس المقبلة.

في صباح اليوم التالي، تصحو مبكِّرًا. تفتح نافذة غرفة الجلوس ليندفع نسيمٌ طريٌّ عبرها، مستبدلًا على مهلٍ الهواء الراكد في الداخل الذي ما زال يعبق ببقايا رائحة الطبخ من الأمس. تجهِّز الشاي، وتعصر بضع حبَّات برتقال هي الأولى التي تنزل هذا الموسم. تحمل الكؤوس المسكوبة بالشاي والعصير فوق سدرٍ صغيرٍ إلى غرفة النوم. تنصرف إلى مراقبة وجه الصحفيِّ حتَّى يصحو، ما يحدث بعد فترةٍ وجيزة. تنتظر حتَّى يبدأ بشرب شايه، ثمَّ تقول إنَّ لديها اقتراح؛ أن يمضيا أيَّامه الأخيرة في رحلةِ وداعٍ مؤقَّت للبلد، إن لم يكن راغبًا به أبديًّا. رحلةٌ تمكِّنهما من زيارة أماكن، لم يزرها من قبل وتحبُّها هي، أماكن بعيدةٌ عن سياق العمل والتغطية الصحفيَّة، طالما ودَّت زيارتها معه. بعد تردُّد، يجيب بالموافقة. يضيف بأنَّه يريد شراء بعض الحاجيَّات، هدايا تذكاريَّةً للعائلة ولعددٍ من أصدقائه؛ حطَّاتٍ وقطع تطريزٍ ومصنوعاتٍ يدويَّة أخرى، وكذلك صابونًا نابلسيًّا وطحينةً وزعترًا وربَّما زيت زيتون. تعقِّب بأنَّها ستساعده في اقتناء كلِّ ذلك. يباشر عقبها باستعادة تفاصيل التحقيق معه من اليوم السابق على مسامعها، ما يفصح كم لا تزال تلك الساعات الأربع عصيبةً بالنسبة إليه.

يخفّف من وطأتها فحسب، هذه الساعات، الوقت الذي يقضيانه خلال ما يلي من أيّام، قد تكون الأخيرة لهما معًا، ذلك إلى أن يحلّ اليوم الخامس من جولتهما.

فور وصولهما إلى إحدى المدن، يعرب الصحفيُّ عن رغبته في زيارة كنيسةٍ شهيرةٍ فيها، مع أنَّه يعرّف عن نفسه على أنَّه مُلحد. يدوران في أنحاء الكنيسة التي يسبقهم إليها المئات من الزوّار، بعضهم في حالةٍ من الخشوع التامّ وآخرون يتأمّلون المكان كمن يتأمّل مَعْلمًا تاريخيًّا أو معماريًّا، فيما رائحة البخور تفوح في الفضاء المعتم البارد. حالما يخرجان من جوف الكنيسة بعد فترةٍ ليست بالقصيرة، تسرع عيونهما للانغلاق حتّى تتأقلم مع ضوء شمس الظهيرة القويّ الذي تزيده شراسة الساحةُ الخارجيَّة بأرضيَّتها البيضاء الجرداء.

في غضون تجوالهما بلا هدفٍ في أنحاء الساحة، تتَّقد حيرة الصحفيِّ شيئًا فشيئًا بصدد رغبته بشراء تماثيل مصنوعةٍ يدويًّا من خشب الزيتون، قد تُسْعد بها والدته. هي تماثيل خشبيَّةٌ مختلفة، تحاكي مشهد ولادة المسيح، يلمحها منبسطةً فوق قطعة قماش، يبيعها رجل يجلس بمحاذاة أشجار السرو المزروعة على طرف الساحة. تقول المترجمة بأنَّه يمكنهما فحصها وبعدها يقرّر. يتقدَّم الصحفيُّ نحو البائع المتجوّل وتتبعه هي. تنال التماثيل إعجابه جدًّا ما إن ينصرف إلى تأمُّلها، حيث يبتدئ مشاركتها ما يلاحظ فيها بحماس؛ كيف أنَّ الوجوه فيها تحمل تفاصيل تحاكي وجوه الناس المحليّين تمامًا وهو ما يشاهده لأوَّل مرَّةٍ في البلد في مثل هذا النوع الشائع من التماثيل. إنَّه أسلوب يستعيد نهجًا يمكن ملاحظته في التماثيل واللوحات الفنِّيَّة التي تعود إلى فترة عصر النهضة في إيطاليا، حيث مريم العذراء تشبه ابنة تاجرٍ من البندقيَّة

أو فتاةً من أرياف فلورنسا، وتمثال داوود ما هو إلّا لفتًى محلّيّ، وقع الفنّان في حبّه. برأيه، ما قام به صانع التماثيل الخشبيّة هذه لا ينأى في صلبه عن أسلوب فنّاني عصر النهضة. يعرب الصحفيُّ عن كلّ هذا إليها بالإنجليزيّة، فيما ينصرف البائع المتجوّل بالنظر نحوها لفتراتٍ أطول من نظره إلى الصحفيّ. إنّه تصرُّف تلاحظه ويبعث بالامتعاض إليها، كما يظهر من مسحة الانقباض التي تمتدُّ إلى وجهها. بعد مماحكة البائع المتجوّل قليلًا حول السعر النهائيّ، يشتري الصحفيُّ غالبيّة ما يكون معروضًا من تماثيل على البسطة. قبل أن يغادرا، يسألها البائع المتجوّل بدماثةٍ إن لم تتعرّف إليه بعد. تتردّد قليلًا. حين لا تبدِّد النظرات في عينيه المصوَّبتين نحو عينيها أيَّ جهلٍ لديها، يعرّف البائع المتجوّل عن نفسه، متجنّبًا مضايقتها أكثر. فجأة، تنقضُّ السعادة إلى عينيها. يبتسم هو شالحًا قبّعته، بينما تسرع هي لإغراقه بالأسئلة. يردُّ على جميعها باقتضاب، مواصلًا الابتسام. بعد وقت، يباشر الصحفيُّ بالتململ، إذ لا تسعفه معرفته المحدودة باللغة العربيّة بمتابعة ما يجري من حديث. تدور عندها نحوه وتقدّم له الطالب، وأنّهما كانا في المدرسة ذاتها وأنّه أسيرُ سابق، وأنَّ التماثيل من صنعه هو. يحيّيه الصحفيُّ قبل أن يشرع بشرح ما وجده خاصًّا في تماثيله، كيف أنّها تستعير من تفاصيل وجوه السكّان المحليّين تمامًا كما فعل فنّانو عصر النهضة في أوروبا وإلخ...، لكن ما يختلف هذه المرّة وتشهده هي، لا ينطوي على ما يقول وسبق أن أخبرها به، إنّما كيف يقوله. الآن يتحدَّث ببطءٍ وبصوتٍ عال، بإنجليزيّة يحاول أن يضيف إليها لكنةً عربيّة، مُرفقًا عباراته بشرحٍ من حركات يدَيْه. يأخذ الحِرَفيّ، يُنقّل نظره بينه وبينها بسكون. ترقب هي بتوتُّرٍ هذه النظرات.

في طريق العودة، يوقِف الصحفيُّ السيَّارة التي يستأجرانها للقيام برحلتهما، عند مكانٍ يظهر بأنَّه وعر، لا وجود فيه إلَّا لأشجار الصنوبر الجبليّ والأعشاب اليابسة. ينزل من السيَّارة ويتَّجه إلى تلك الأشجار التي يظهر بين أفرعها، ناميًا خلفها، وقد تكاتفت أفرعه فيما يشبه الجدار أو النصب التذكاريّ، نبات الصبَّار. بعد دقائق، يعود الصحفيّ حاملًا كفًّا من كفوف الصبَّار العريضة السميكة. يضع الكفَّ في المنطقة السفليَّة المحاذية لأحد المقاعد الخلفيَّة، ثمَّ يقول حالما يجلس فوق مقعده خلف المقود، بأنَّه سيزرعه في أصيص يتركه معها لينمو على غرار نموِّه خلف من هجَّروا، الآن وقد هُجِّر هو الآخر. تبقى صامتة. كما أنَّ لا أحد يعرف إن كان بمقدرة نباتٍ ما أن يكمل مسيرة إنسان.

يصلان الشقَّة متأخِّرَيْن في المساء، محمَّلين بأغراضٍ كثيرة. في اليوم التالي، تساعده على لفّ كلّ ما اقتنى خلال الأيَّام المنصرمة جيِّدًا وتوضيب حقائبه وأغراضه، وكذلك زراعة الصبَّار. يجمعان في دلوٍ بعض التراب من الخارج، من رقعة أرضٍ متاخمةٍ للرصيف، ليست بعيدةً عن شجرة الصنوبر المتوسطيّ البادية عبر نافذة غرفة جلوسهما. حين يعودان إلى الشقة، يدفعان القسم السفليّ من ورقة الصبَّار داخل التربة في الدلو، ثمَّ يسقيانها. هنا للعالمين من بيننا، من البيِّن أنَّ كليهما لا يفقهان أنَّ زراعة ورقة الصبَّار بهذه السرعة وبهذه الطريقة، دون تركها حتَّى تشكِّل غشاءً في موضع قصِّها، معناه أنَّ احتمالَ انبثاق جذورٍ عنها كي تنمو في هيئة نبتة صبَّارٍ صحيَّة، هو ضئيل. ثمَّ زرعها في دلوٍ لا ثقوب فيه، يعني بأنَّ الورقة قد تتعفّن بعد أيام. بمعزلٍ عمَّا قد يحدث، مع انقضاء يومٍ متعبٍ كهذا، يخلدان مبكِّرًا إلى الفراش لتمضية ليلتهما الأخيرة معًا قبل سفره في اليوم الذي يلي. بعدما يلتحفان بالغطاء، تمتدُّ

يد الصحفيّ باحثةً عن يدها، وتحتضنها. ثمَّ ما إن يفعل، يخرج صوتها على غير المعتاد، غريبًا بعيدًا، قائلةً إنَّه كان مهينًا كيف تحدَّث أمس إلى الطالب، كما لو أنَّه أبله، يحتاج إلى أن يتحدَّث المرء معه ببطءٍ وبصوتٍ عال، وإلى أن يُشرح له ما يقال بحركاتٍ من الأيدي، مضيفةً بأنَّ لهذا الطالب ماضيًا مشرِّفًا. ترخي الحيرة ملامح وجه الصحفيّ الذي يبدو بأنَّ الملاحظة تربكه. يسأل، لا يزال محتضنًا يدها بيده، عن أيّ طالبٍ تقصد. الطالب الأسير السابق، تجيب. الطالب الأسير السابق؟ يكرِّر خلفها متسائلًا. الحِرَفيّ. الحِرَفيّ؟ لا يزال لا يفهم. البائع المتجوِّل في ساحة الكنيسة، تتمتم بضيق. فجأة، يسحب الصحفيُّ يده من يدها كما لو أنَّ أفعى لسعته، وينفجر غضبًا على غير عهده، متسائلًا عن فهمها معنى الإهانة والمرَّات التي لا تحصى حين قامت هي بإهانته ومعاملته كما لو أنَّه أبله بينما كلّ الوقت صامتةً بصحبته لا تقول شيئًا ثمَّ ما أن التقت بالبائع هذا حتَّى فاضت السعادة وسيل الكلام منها كما لم تفعل ولو لمرَّةٍ وهُما معًا بل والآن تأتي لتقول له هذا فحسب قبل مغادرته. يستدرك نفسه. يعود الصمت. بعد وقت، تمدّ يدها نحو يده. يُبعد يده عن يدها ببطء.

لا يتمكَّنان من النوم رغم محاولاتهما. يبقيان يتقلَّبان بحذرٍ في فراشهما. يبيت الوقت متأخِّرًا لدرجةٍ تؤكِّد أنَّه لا يمكن التحايل أكثر على النوم الذي يتمنَّع عنها، ويتمنَّع عنه، بمنأًى عن التعب.

تنهض وأخيرًا تاركةً السرير، بينما يبقى الصحفيُّ داخله. ثمَّ تغادر غرفة النوم برمَّتها. تخرج إلى غرفة الجلوس. تجلس فوق الأريكة في العتمة. يمضي الوقت.

مع وصول الليل إلى أشدَّ لحظاته حلكةً قبل حلول الفجر، يتسلَّل فجأةً أنينٌ خافت، قادمٌ من الخارج إلى غرفة الجلوس. ماذا الآن؟

بعد تردُّد، تتَّجه نحو النافذة، لتطلَّ نحو العتمة الحالكة والأنين الذي تحتضنه. تنشغل الريح بدفع أغصان شجرة الصنوبر الرفيعة وأوراقها، راسمةً ظلالًا مرتجفةً أشدَّ حلكة.

إنَّ غالبيَّة من يعبرون بها، لا يعرفون سرَّ شجرة الصنوبر هذه، وبأنَّها، على الرغم من خضرتها، ميِّتة. قشرتها البرتقاليَّة الحمراء، الأشبه بلون السماء عند خطِّ الأفق وقت الغسق، هي ذاتها منذ ما يزيد عن الثلاثة عقود، لا تزال تلفع جذعها غير القادر على إنتاج حلقةٍ إضافيَّةٍ جديدةٍ كعادة ما تفعل الأشجار الحيَّة كلَّ عام. إلَّا أنَّ أنسجتها الداخليَّة لا تكفُّ عن إمداد الأوراق الإبريَّة بالغذاء، مبقيةً على خضرتها، لتحاكي الأشجار التي على قيد الحياة.

تُواصِل وقوفها أمام النافذة، فيما تتباطأ العتمة بالانسحاب، حتَّى يبين بأنَّها تُحْجِم عن الانجلاء، ويشرع الأنين بالارتفاع شيئًا فشيئًا، صامًّا الآذان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

كلمة «تمويه» خط: لين الخردلي

لا أسماءَ، لا أماكنَ، لا سنوات، فقط الفصولُ الأربعةُ وحرارةُ الشّمس التي تزداد أحيانًا، وترأف بحال الرؤوس أحيانًا أخرى، في بنيةٍ مشهديَّةٍ تستقصي نتائج عقودٍ من الاستعمار والاحتلال التي تحوّل الفلسطينيّ إلى آخرٍ في بلده، فيما تتبعثر حياته وتتفكّك بفعل الاضطهاد اليوميّ.

"تمويه" هي روايةٌ محكومةٌ بتعاقب الفصول، وتغيُّر ألوان البيئة، في دلالةٍ على استمراريَّة الزمن وعدم توقُّفه بسبب أيِّ طرد، أو نفي، أو اعتقال، أو تعذيب.

في متن هذه البنية المشهديّة، تتقاطع حياتا شابّةٍ وشابٍّ سويًا ولا تتقاطعان، حياتان يبدو للوهلة الأولى أنّهما متناقضتان، لكنّهما تعبّران عن الجوهرِ نفسه: محاولة تغريب الفلسطينيَّة والفلسطينيِّ في أرضهما. لكنَّ الرواية لا تشتبك مباشرةً مع هذه المحاولات، بل تتحوَّل إلى أدواتٍ استعاريَّةٍ في سردٍ يبيِّن حقيقة ما يفعله الاستعمار من إسكاتٍ للحكاية.

عدنيّة شبلي روائيّةٌ فلسطينيّة، صدر لها عن دار الآداب 3 روايات: "مساس" و"كلُّنا بعيدٌ بنفْس المقدار عن الحُبّ" و"تفصيل ثانويّ" الحائزة جائزة Literaturpreis الألمانيّة.

telegram @soramnqraa

دار الآداب